



# نخادفة الكاميليا

إعداد وتحميل وتقديم  
الدكتور رحاب عكاوي

تأليف  
السننر رومالابن

[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)  
^ RAYAHEEN ^



# غادة الكاميليا



موضوع رواية «غادة الكاميليا» من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعًا، وقد انتقلت إليهم من طريق روايتي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يُطلق عليهم اسم جيل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس أنطوان بريفور في روايته الشهيرة «ماتون ليسكو».. ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسيي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هيغو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب.. وكان بعض هؤلاء يعطف على المرأة الخاطئة عطفًا شديدًا ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع.

وتجدر الإشارة إلى أن رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم إلى درجة أنها ظهرت في السينما المصرية وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٨٥.



دار الحرف العربي  
www.alkottob.com

## الكسندر دوما الابن

١٨٢٤ - ١٨٩٥

ولد الأديب الفرنسي الكسندر دوما الابن في باريس في ناحية  
مارلي - لي - روا سنة ١٨٢٤ ، وهو الابن البكر للكاتب الروائي  
المعروف الكسندر دوما صاحب الروايات التاريخية العديدة وأهمها  
«الفرسان الثلاثة» و«عقد الملكة» ، وكان عمر الكسندر الكبير يوم  
ولادة ابنه واحداً وعشرين عاماً ، فقد ولد الأب سنة ١٨٠٣ . وقد  
تأثر الكسندر الابن بوالده تأثيراً كبيراً ، وامتلاً به إعجاباً ، فلا بدع أن  
بدأ يكتب الروايات غداة إتمام دراسته الثانوية ، وكانت أول رواية  
ينشرها هي «غادة الكاميليا» التي كتبها - كما يقول هو نفسه في  
مقدمة هذه الرواية - في أسبوع .



الكسندر دوما الابن

تحول عن كتابة الرواية إلى المسرحية  
فغذى المسرح الفرنسي بمسرحيات تمتاز  
بحسن السبك والبناء وتفيض بروح  
الفكاهة والسخرية . . ومسرحياته على  
الدوام هادفة ، وكانت فكرته الرئيسية  
التي يدعو إليها في جميع مسرحياته  
هي إعادة بناء المجتمع من طريق إصلاح  
الأسرة التي ينبغي أن تبنى على الحب  
لا على المال .

أهم مسرحياته هي : غادة الكاميليا ، وادي الزفاف ، أنطونين ،  
مغامرات أربع نساء ، العلبة الفضيحة ، أقاصيص وقصص ، غادة  
اللؤلؤ ، صديق النساء ، المجتمع الثانوي ، الابن غير الشرعي ، الأب

المبثّر، الأميرة جورج، أفكار مدام أوربي، فرانسيلون، ديانا غادة الليس، استراحة، مسألة طلاق، قصة امرأة، المسرح الكامل، مسرح الآخرين، ودينس .

قُبِلَ ألكسندر دوما الابن عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة 1874 وتوفي سنة 1895 .

والواقع أنّ الفرنسيين لا يعتبرون دوما الابن من كتّاب الدرجة الأولى، ولذا فقلّمًا يدرس لذاته في الجامعات، وإنما يدرس عادة ضمن كتّاب الدرجة الثانية من أمثال إميل أوجييه وجول ساندو . غير أنّ كل من يدرس المسرح الفرنسي في القرن التاسع عشر دراسة خاصة لا بدّ أن يمرّ به . ومن عجائب القدر أن المسرحية التي منحتها الشهرة، والتي قدّر لها أن تؤثر في الأدب العالمي، هي أول مسرحية كتبها في حياته حين كان بعد فتى يافعاً غراً ناقص الخبرة غير مكتمل النضج، وهي مسرحية «غادة الكاميليا»، وهذا يعود دون شك إلى صدق المشاعر التي كانت تهزّه حين كتابتها، ولطرافة الموضوع واستقائه من صميم المجتمع الفرنسي، ولعالمته لداء من أهم الأدواء الاجتماعية التي تفشت في المجتمع في ذلك العصر . وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة الطبعة الكاملة لمسرحياته :

«لتعرف إذا يا صديقي القارئ أنني كتبت هذه المسرحيات بكل ما أدين به لغني من حب واحترام، فيما عدا الأولى «غادة الكاميليا» التي وضعتها في ثمانية أيام دون أن أدري كنه ذلك، تدفعتني جرأة الشباب وما يصادفه من حظ حسن . وكان الدافع الخفي لي هو الرغبة في الحصول على المال لا الإيحاء المقدس . وقد دفعت الجزء الأكبر من ديونني، واستطعت أن أولي المسرحية التالية مزيداً من العناية والوقت (وهي مسرحية «ديانا غادة الليس»)، ومع ذلك

فأخشى أن تجدها أقل من الأولى . ولمّا كنت بعد عرض هذه الأخيرة قد سدّدت جميع ديونني، فقد استطعت تخصيص أحد عشر شهراً بطولها لتنفيذ المسرحية الثالثة «المجتمع الثانوي» التي يصرّ الناس على اعتبارها أحسن من سابقتها . أمّا أنا فأصرّ على تفضيلها جميعاً بالتساوي، فقد منحتني لذة في العمل وشهرة أكثر ممّا أستحق، وعرفت من خلالها أنبل عواطف الفكر والاستقلال الذي جعلني سعيداً وطيباً .

### غادة الكاميليا

#### مسرحية ورواية

قبل الخوض في دراسة الظروف التي أوحى إلى ألكسندر دوما الابن بمسرحيته وروايتها لا بدّ من ملخص لهذه وتلك، أمّا المسرحية فتدور أحداثها كما يلي :

**الفصل الأول :** مرغريت جوتيه وسط أصدقائها في حياة ماجنة صاخبة رغم الداء الذي أخذ ينخر في عظامها . وبداية التعارف بينها وبين أرمان ديفال الذي أحبها دون أن يعرفها، وكان لا يكفّ عن الوقوف ببابها والسؤال عنها في أثناء مرضها . مرغريت تتأثر لصدق مشاعر أرمان نحوها فتبادلته حباً بحب .

**الفصل الثاني :** بداية حياة الحب السعيد بينهما رغم استمرار مرغريت في حياتها الماجنة، وإن كانت قد بدأت تقطع علاقاتها بعشاقها ومنهم الكونت دي ج .

**الفصل الثالث :** مرغريت وأرمان يغادران باريس إلى الريف . مرغريت تنقطع جميع مواردها المالية من عشاقها وكذلك من الدوق، وهو الرجل المسنّ الذي كان قد تولّى تسديد نفقاتها الباهظة لعطفه عليها لأنها تشبه ابنته التي ماتت بداء مرغريت نفسه . وقد

كفّ الدوق عن الاستمرار في الدفع لأنه كان يعتقد أنها في الريف للراحة والعلاج ، فحضر لزيارتها فجأة فوجدها تتناول الغداء مع خمسة عشر شخصاً من الأصدقاء ، كما أنه علم بعلاقتها بأرمان . مرغريت تبدأ ببيع ما تستطيع الاستغناء عنه من مظاهر الترف مثل المركبة والمعطف وترهن مجوهراتها . والد أرمان يحضر لزيارتها في غيبة ابنه ، ويطلب منها التضحية بسعادتها وحبها من أجل ابنته التي يرفض خطيبها إتمام الزواج ما لم يقطع أرمان صلته بمرغريت ، رغم أن هذا الحب هو ومضة السعادة الوحيدة في حياتها ، والشريان الوحيد الذي كان يمدّها بالحياة ، إلا أنها توافق على التضحية من أجل سعادة أرمان وأخته ، وتؤكد قبول التضحية بقبلة طاهرة طلبتها من والد أرمان . تحاول مرغريت إخفاء الأزمة التي تجتازها عن أرمان ، وتخرج بحجة الابتعاد عن البيت بعض الوقت فرمما يحضر والده لزيارته . ثم تبعث له بكلمة مع خادم تقول له فيها إن كل ما بينهما قد انتهى وأنها الآن عشيقة رجل آخر .

**الفصل الرابع :** مرغريت تعود إلى حياة الصخب وتسوء حالتها . أرمان يعود كذلك إلى الحياة الماجنة نفسها ويلتقي بها في كل مكان ليوجه إليها الإهانات علناً ، لأنه أساء تأويل الطريقة التي هجرته بها . مرغريت تستدعيه وترجوه أن يرحمها ويكف عن توجيه الإهانات إليها ، لأنها تخشى أن يبارزه عشيقها الكونت ويقتله . أرمان يعرض عليها حبه من جديد فترفض ، فيوجه إليها إهانة شديدة في حضرة جمع كبير من رواد هذا الوسط الماجن ويرميها بحزمة من الأوراق المالية ثمناً للحب الذي لم يكن قد دفع عوضه حتى الآن .

**الفصل الخامس :** نرى مرغريت في فراشها في حالة مرض

شديد . إنها لا تزال محاطة بالأصدقاء الذين يعطفون عليها ويدفعون عنها ديونها ، وهي ما زالت تغمر صديقاتها بالهدايا وتعطي لبرودنس مالاً هي في أشد الحاجة إليه . والد أرمان يرسل لها خطاباً يؤكد فيه أنه رجع في تصميمه ، وأنه سوف يكتب لابنه ليعود إليها ، لأنه تأكد الآن من أنها خير تمن يسمين أنفسهم بالفتيات الشريقات . أرمان يعود في اللحظات الأخيرة لمرغريت وبعد أن يشت من عودته . مرغريت تشعر لفرط سعادتها أنها شفيت ، ولكنها تموت بعد قليل بين ذراعي أرمان ووسط قبلاه ودموعه . وآخر كلمة - في المسرحية - تنطق بها صديقنها «نيشيت» إذ تقول : « .. نامي في سلام يا مرغريت ! سوف يغفر الله لك كثيراً لأنك أحببت كثيراً » .

أما الرواية فتختلف اختلافاً كبيراً عن المسرحية ، ويبدو واضحاً فيها أن المؤلف منحها مزيداً من العناية الفنية في الأسلوب والحبكة القصصية ، واستفاد من طبيعة هذا اللون الأدبي لون الرواية ليقدم للقارئ وصفاً مفصلاً لحياة مرغريت وجمالها وثيابها ، وفي تصوير المجتمع الباريسي عموماً وبنات الهوى خصوصاً . وثمة اختلافات جوهرية في مجرى الأحداث بين المسرحية والرواية ، وهناك شخصيات تظهر في المسرحية ولا تظهر في القصة وبالعكس . وتتركز أهم الاختلافات في الخاتمة .

في الرواية ، وبعد أن تهجر مرغريت أرمان نزولاً عند رغبة والده ، يعود كل منهما إلى الوسط الماجن نفسه ، ويعقد أرمان صلة بإحدى فتيات الهوى تسمى أوليمبيا ربما تكون أجمل من مرغريت خلُقاً ولكنها مختلفة عنها خلُقاً اختلافاً تاماً ، فلا يلبث أن يتفر منها ، وتحضر مرغريت إلى شقته لتتوسل إليه أن يرحمها ويكف عن توجيه

الإهانات إليها ، فيضعف كل منهما أمام الآخر ويعودان إلى حبهما رغم حمى الداء الذي ينخر في عظامها . وفي اليوم التالي نصر مرغريت على إعادة قطع العلاقة تسكاً منها بعهداها ، فيعود أرمان إلى إهانتها . تسافر مرغريت إلى إنجلترا بحثاً عن النسيان ، وكذلك يسافر أرمان في سفر طويل . ثم تسقط مرغريت أمام ضربات دائها المتواليّة ، وتتلقّى من والد أرمان غفراناً وصفحاً ومساعدة مالية . ولكنها تنتظر عودة أرمان دون جدوى وتموت وحيدة بائسة ، لا يحضر لحظة إسلامها الروح إلا صديقة واحدة - جوليا - وياع أثارها ومخلقاتها بعد ثلاثة أيام وفاء لديونها الكثيرة . يعود أرمان ويصعق لخبر وفاتها ويصرّ على نقل رفاتها إلى مقبرة أخرى ليتمكّن من رؤيتها ، وتؤدي أزمته النفسية إلى أزمة جشعانية ثم يشفى . وتختتم الرواية بمذكرات مرغريت المؤثرة .

ولا شك أنّ السبب الذي حدا بالمؤلف إلى ابتكار هذا الاختلاف البين بين الرواية والمسرحية ، ولا سيما في الطريقة التي ماتت بها مرغريت في كلتا الحالتين ، إنما يرجع قبل كل شيء إلى رغبته في التأثير في المشاهدين أو القراء . فلو أنه جعل مرغريت - في المسرحية - تموت دون رؤية حبيبها أرمان ، لاضطره الأمر إلى أن يخوض في تصوير مشهد الاحتضار الطويل أو الدخول في حوار بين مرغريت وصديقتها في جو جنائزيّ منفرّ . فلا بد إذاً أن يكون احتضار مرغريت قصيراً أو مؤثراً ، ولا يكون كذلك إلا بعودة أرمان في اللحظات الأخيرة . أمّا في الرواية فمجال الوصف شاسع أمام المؤلف ، كما أنه ينتج بصويره إلى خيال القارئ ومشاعره في وقت واحد ، فلهذا في هذه الحال فرصة للتأثير فيه وإسالة دموعه بوصف

الاحتضار الطويل والألام المبرّحة التي قاستها مرغريت على فراش الموت . ويقدم المؤلف من ثمّ للقارئ مذكرات مرغريت ليقرأها بترتّب ويكي ما شاءت له دموعه وأسعت عيناه .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤلف صادف صعاباً جمّة ليحصل على إذن بعرض مسرحيته . فقد كتبت المسرحية سنة ١٨٤٩ وقدمت إلى المسرح التاريخي الذي أغلق قبل العرض ، ولم تقبل في مسرح «الفودفيل» إلا بتدخل من الممثل هيبوليت دورمز ، ولم تعرض في هذا المسرح إلا في ٢ شباط/ فبراير ١٨٥٢ . وقد منعت الرقابة هذه المسرحية عاماً كاملاً في وزارة ليون فوشيه ، رغم المساعي الكبيرة التي بذلها المؤلف ووالده ، والتي وصلت إلى رئيس الجمهورية ، فقد كتب ثلاثة من الكتاب المعروفين هم : جول جانان وليون جوزلان وإميل أوجيه توصية بصلاحياتها للعرض ، وأرسلت هذه التوصية إلى الكونت دي مورني ، الذي كان يتولى حمايتها ، ثم إلى رئيس الجمهورية الذي حوّلها إلى رئيس الوزراء الذي رفض قبول هذه التوصية رفضاً باتاً . وتدخل ألكسندر دوم الأب فتلقى الجواب عنه ، وقيل له إنه طالما كان ليون فوشيه في الوزارة فلن تعرض المسرحية ، وكان على ألكسندر الابن أن ينتظر .

وفعللاً انتظر . . . وعيّن الكونت دي مورني ، الذي كان يرعى المؤلف ، في الوزارة محل فوشيه ، وكانت تلك مصادفة من مصادفات الحظ . وقد حدث ذلك في ٢ كانون الأول/ ديسمبر وحققت المسرحية نجاحاً هائلاً ، إلا أن الرقابة عادت فمنعتها ، ثم أجازتها ، ثم منعتها ثانية مشرطة إجراء بعض التعديل عليها ، وكان بعض هذه التعديلات تافهاً لا ضرورة منه وبعضها ذا فائدة . وبعد

التعديل أقرتها الرقابة وصارت منذ ذلك الوقت في حمي القانون ، وكانت أول من أدّى دور غادة الكاميليا المثلة مدام دوسن فأحسنت الأداء إلى درجة أن اسم غادة الكاميليا التصق بها بعد ذلك .

ولا بدّ من التوقف قليلاً لتتعرف على الفتاة التي أوحى للمؤلف بشخصية البطلة مرغريت جوتييه ، وفي أي ظروف عاشت تلك الفتاة ، وفي ذلك يقول ألكسندر في مقدمة روايته : «إن الشخصية التي كانت لي مثلاً في الرواية والمسرحية كان اسمها ألفونسين بليسي ، وهو اسم كوئت هي نفسها منه اسماً أكثر رقة وعذوبة هو ماري دي بليسي . كانت طويلة القامة نحيلة القوام ذات شعر أسود ، وكان لونها أبيض مشرباً بالحمرة ، وكانت رأسها صغيرة وعيناها لامعتين كميون اليابانيات ، ولكنها كانت مليئة بالحياة والرقّة ، وشفتاها في حمرة الكرز وأسنانها أجمل أسنان في العالم . وكان المرء إذا رآها يظنها مثلاً من «الساكس» . ولما رأيتها سنة ١٨٤٤ لأول مرة كانت في أوج عزها وجمالها . وماتت سنة ١٨٤٧ بمرض صدي وهي في الثالثة والعشرين من عمرها» .

«كانت واحدة من قلّة من بنات الهوى ، تتميز بقلب كبير ، ولا شك أنها ماتت في شرح شبابها لهذا السبب . كانت لا ينقصها لا الذكاء الأعمى ولا التعفّف . وقد انتهت فقيرة في شقة فاخرة حجز عليها الدانتون . كانت متميزة تنسج ملابسها بذوق رقيق ومثلي في رشاقة وربما كذلك في نبل . وكان الناس يظنونها أحياناً إحدى سيدات المجتمع ، ولو عاشت إلى اليوم لاستمر الناس يظنونها كذلك . كانت فلاحه من إحدى قرى غربي فرنسا ، وقد خصّتها تيوفيل جوتييه ببعض أبيات رثاء تصوّر هذه النفس الصغيرة الرفيعة

التي سوف تخلد الخطيئة» .

ولا شك أن ماري دي بليسي قد لفتت نظر كثير من الكتاب في ذلك الوقت ، فأفرد لها جول چاتان مقدمة طريفة للرواية دلّت على المجتمع الذي عاشت فيه تلك الفتاة ، والذي صورّه ألكسندر دوما الابن في روايته ومسرحيته على السواء . وقد أثارت ماري هذه عطف من عرفها ، وخصوصاً عطف المؤلف ألكسندر ، وانتقل هذا العطف إلى بقية بنات عالمها من بائعات الهوى ، فانبرى يدافع عنهن ويحاول معالجة الأسباب التي تدفعهن إلى الرذيلة ، فتراه يقول : «إن الضرر الذي تسببه بائعة الهوى ضرر لا سبق إصرار فيه ولا يغرق المرء فيه إلا إذا كان غراً ولا يعجب به إلا إذا كان فاسقاً . لكنه ضرر له عذره وهو الجوع والجهل والقدوة السيئة والوراثة التي لا حيلة فيها وأنانية المجتمع والمبالغة في الحضارة والمشكلة الأبدية : الحب . والمذنب هنا تدعو إلى المساندة والعطف ولا تستلزم العقاب ، وذنبها هو ذنبنا ولا يمكن أن نكون قضاة طبيين في الوقت نفسه الذي نكون فيه نصحاء سوء» .

والواقع أن المجتمع الفرنسي قد مرّ في الفترة التي عاشت فيها بائعة الهوى ، التي قدّر لها أن تخلد في رواية ألكسندر دوما الابن ، بمرحلة يسر مالي أدّى إلى تفشي الخطيئة ، بشكل دقّت له نواقيس الخطر . فقد كان من السهل إيقاع العاملات الفقيرات في الخطيئة ، كما كان من السهل عليهن بعد ذلك أن يعشن في حماية رجل ثري يرعاهن مع تركهن مستمرات في عملهن . وأحياناً كان هذا الثري يضع العاملة على رأس محل من محلات الأزياء ، وقد كانت تلك هي حالة ألفونسين بليسي ومرغريت جوتييه . ولما اخترعت السكة

الحديد أثرى بعض الناس ثراءً فاحشاً وامتلات باريس بطائفة كبيرة من الشبان الأثرياء من فرنسيين وأجانب ، وكان أغلبهم يخرج من أحط الطبقات ، وكان هؤلاء يخشون على سمعتهم من التورط مع هؤلاء الفتيات .

وما لبثت هذه النوبة العارمة من الثروة والبغاء أن اختفت ، وقد أحسن ألكسندر دوما الابن صنعاً بكتابة روايته في إبان الأزمة وهو متأثر بأحداثها وبشخصية البطلة ، ولو أنه ترك الأزمة تمر لما كان من اليسر له بعد ذلك أن يلقي ما لقي من نجاح ، وفي ذلك يقول بعد خمسة عشر عاماً من كتابة روايته : «إن غادة الكاميليا التي كتبها منذ خمسة عشر عاماً لا يمكن أن تعاد كتابتها اليوم لأنها لن تكون صادقة بل حتى لن تكون ممكنة ، فسوف لن يجد الناس حولهم مثلاً لهذا النوع من الحب والندم والتضحية» .

إن موضوع بانعة الهوى من الموضوعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعاً ، وقد انتقل إليهم من طريق روايتي من كتاب القرن الثامن عشر الذين يطلق عليهم اسم جبل ما قبل الرومانسية ألا وهو القس بريغوز (\*) في روايته الشهيرة «مانون ليسكو» . ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسي القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هوغو وألفريد دو موسيه وألكسندر دوما الأب . وكان بعض هؤلاء يعطف على العاهرة عطفاً شديداً ولا يجد فيها إلا ضحية من ضحايا المجتمع إذا أخذ بيدها فقد ترتفع إلى درجة القديسين ، ومنهم فيكتور هوغو حين صور شخصية «فانتين» في قصته المعروفة «البؤساء» .

وقد كتب هوغو «ماريون دي لورم» ، وموسيه «برنوريت»

(\*) أنطوان فرانسوا بريغوز (١٦٩٧ - ١٧٦٣) .

وألكسندر «فرناند» ، ومنح المفكرون والشعراء في جميع العصور العاهرة عطفهم ورحمتهم ، وحدث أحياناً أن ردّ لهنّ رجل ذو قلب كبير الاعتبار بحبه وأحياناً باسمه . كما اهتم كثير من الكتاب الفرنسيين ، من غير الروائيين في ذلك الوقت بموضوع «البيغي» فأفرد لها ج . ميشليه في كتابه «المرأة» ١٨٥٩ فصلاً عبّر فيه عن رأيه فيها ، وهو يرى أن الأمل ليس مفقوداً في إصلاحها ، كما أنه ليس مفقوداً في إصلاح حتى المرأة القاتلة ، وهو يسميها «شهودات وقديسات البغاء» ويفرق في ذلك بين المرأة بهيمية الشهوة وتلك التي تضطر إلى ذلك بدافع البتوة أو الأمومة .

ويعود روايتي فرنسي (رومان رولان في «النفس المسحورة» ١٩٥٠) محدث إلى هذا الموضوع في منتصف القرن العشرين فيلتمس الأعداء للمرأة الخاطئة ويفرق بين دنس الجسد ودنس الروح ، ويرى أن دنس الجسد من اليسر غسله ، أما دنس الروح فهو الذي لا يمكن تطهيره ، وفي ذلك تقول البطلة «آيت ريفير» : «لقد دنست جسدي ويدي وعيني ولذا أغسلهما في عنف ، ولكن قلبي طاهر لم يمس فإنّ الوحل لم يصل إليه» .

### غادة الكاميليا في الأدب العربي

كان لرواية «غادة الكاميليا» أثر كبير في الأدب العربي ، فقد عرّبت المسرحية في أوائل القرن الماضي ، ومثّلت فترة طويلة ، ومن الممثلات اللاتي تألّقن في هذا الدور السيدة زينب صدقي ، إلا أنه ليس ثمة ترجمة أدبية دقيقة لا للمسرحية ولا الرواية ، ولا يدخل في الحسبان «مذكرات مرغريت» للمنفلوطي رغم النجاح الذي حققته تلك المذكرات في القراء العرب في مطلع القرن العشرين ، إذ إن



غانية جميلة يخطب بعض رجال المجتمع ودّها، فيحبها شاب من أسرة نبيلة ما يشكل تهديداً لسمعة هذه الأسرة، ويدفع بها إلى اللجوء إلى المرأة، وأن تحطم حبها له فوق مذبح السمعة المهتدة، فيقتلها الحب والتضحية ومرض السل. وهذه الحكاية هي إحدى «الحواديت» المحببة بشكل غريب لدى صنّاع السينما في العالم، وفي مصر، حيث تم إخراجها خمس مرات لتصبح مرغريت جوتييه فتاة عربية تنطق بلغة الضاد.. وفي «ليلي» لتوجو مزراحي و«عهد الهوى» لبدرخان تصبح الغانية امرأة رقيقة يقع في غرامها طالب قادم من الريف ينتمي إلى أسرة إقطاعية ثرية، وعلى الأب أن يأتي خصيصاً من الريف حيث يعيش كي يقابل الفتاة ويخطب ودّها من أجل أن تهجر ابنه. وقد اعتمد كلا الفيلمين على الغناء، سواء من قبل ليلي مراد التي قامت بالدور في فيلم توجو مزراحي عام ١٩٤٢، ثم من قبل فريد الأطرش الذي جسّد دور الشاب الذي يرسل زهور الحب دائماً إلى حبيبته ويغني لها في عام ١٩٥٤.

في هذه الأفلام تموت الغانية بمرض السل، وهي أداة طيّعة لدى المجتمع الذي يتعامل معها، وتهب الأثرياء جسدها لمن يدفع ويقدّر، وتهب واحداً منهم التضحية. ولأنها غانية فهي خاطئة في نظر أبناء هذا المجتمع، ولذا عليها أن تموت بشكل دام مأساوي ما يزيد في حدة الإعجاب بها، فهي الضحية دوماً، وإذا كان السل لم يعد مرض العصر القاتل، فإنّ تعاطي المخدرات آفة تقتل «مرغريت جوتييه» في فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى عام ١٩٨٥. أما أحمد ضياء الدين مخرج فيلم «عاشق الروح» عام ١٩٧٢ المقتبس عن «غادة الكاميليا» فيقول: «ليست كل الأعمال صالحة

المنفلوطي لم يكن يجيد الفرنسية، وكان يعتمد في التعريب على صديق له يذكر له موضوع القصة ثم يتركة ينمقه بأسلوبه ويضيف إليه ما شاء مما تمّده به المحسنات البيانية والبديعية، ولذلك فإن صلة القرى بين الأصل الفرنسي ومذكرات مرغريت كما عربها المنفلوطي بعيدة كل البعد، ولا يقلل ذلك من أهمية تأثر القارئ العربي بهذا الموضوع، رغم بعده عمّا يألّفه العرف والتقاليد في مصر والشرق.

كما أن أحد كتّاب القصة العرب، هو نجيب الحداد، أراد الخوض في تجربة من نوع جديد لتقريب موضوع «العاهرة» التي يطهرها الحب من الذوق العربي، فكتب رواية «حواء الجديدة» أو إيشون مونار. ولكن كيف أمكنه جعل العاهرة بطلّة للرواية والذوق العربي يأبى حتى وجودها؟ كان لا بد له إذاً أن يجعل بطلّة روايته فرنسية لا عربية، وقد خلط الكاتب في شخص بطلته بين «فاتنين» بطلّة «البؤساء» لهوغو، التي اضطرت لاحتراف تلك المهنة لتربية ابنتها، وبين مرغريت جوتييه التي احترفت البغاء بدافع الضغط الاجتماعي وحب البلذخ والترف، ولذا جاءت شخصيتها متفككة غير مقنعة وغير مثيرة للشفقة كما قال جورجي زيدان في تعليقه على قصة الحداد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ رواية «غادة الكاميليا» المليئة بالأحزان والخطايا أصبحت الطفل المدلل لدى الكثير من مخرجي السينما في جميع أنحاء العالم، إلى درجة أنها ظهرت في مصر وحدها ست مرات بين عامي ١٩٣٥ و١٩٨٥ (فيلم «السكاكيني» لحسام الدين مصطفى الذي ظهر عام ١٩٨٥).

وغادة الكاميليا في هذه الأفلام حكاية وردية دامية بلا أمل عن

## الفصل الأول

من يوم امتشقت القلم لأكتب كان الرأي عندي أن على الإنسان ، لكي يتكرر شخصيات خيالية ، أن يتوفّر على دراسة طبائع البشر ، كما أن عليه ، لكي يتكلم إحدى اللغات ، أن يفقه أصول هذه اللغة وقواعدها .

ولمّا لم يكن لي من السن والتجارب ما يجعل في طوقني أن أبتكر الشخصيات الخيالية ، فإني أقتنع هنا بأن أكون مجرد رواية لا أكثر ، وأرجو القارئ أن يتصوّر بأن القصة التي أسردها فيما يلي حقيقية ، لا أثر فيها للصناعة والخيال ، وجميع شخصياتها - فيما عدا البطلة - لا يزالون على قيد الحياة ، وفي باريس شهود عديدون على أكثر الحوادث التي أسجلها هنا ، وعند هؤلاء الشهود ما يثبت القصة ويوضحها ، فيما إذا افتقرت روايتي حقاً إلى الإثبات والإيضاح .

وقد شاءت بعض المصادفات ، والظروف الخاصة ، أن أكون الشخص الوحيد الذي يملك جميع المقومات اللازمة لتسجيل هذه القصة ، لأنني الوحيد الذي عرف من التفاصيل النهائية ما يستحيل من دونه أن تكون القصة تامة ومثيرة للاهتمام . وأمّا كيف وقفت أنا إلى هذه التفاصيل فإليكم ما يلي :

حدث ذات يوم أنني كنت أسير في شارع لافيت فوق نظري على لوحة كبيرة تحمل إعلاناً عن بيع أثاث ثمين نادر بالمزاد العلني ، ولم يرد في الإعلان اسم صاحب الأثاث ، وإنما ذكر أن البيع سيبدأ في يوم ١٦ من ذلك الشهر ، بالمنزل رقم ٩ بشارع دانتان ، وأن في استطاعة الراغب في الشراء مشاهدة الأثاث في المنزل المذكور في

للاقتباس ، فالقصص الإنسانية قصص عالية من الممكن اقتباسها في أي بيئة وأي عصر ، أمّا القصص التي تعتمد على الأحداث فتكون على العكس من ذلك مقتصرة على العصر والظروف التي حدثت فيها وبالنسبة إلى رواية «غادة الكاميليا» فلا يمكن اقتباسها كما سبق القول كاملاً .

## قائمة بالأفلام المقتبسة عن «غادة الكاميليا» :

١٩٣٥ : «الغندورة»

(ماريو فولبي - عبد

السلام النابلسي) .

١٩٤٢ : «ليلي» توجو

مزراحي .

١٩٥٥ : «عهد الهوى»

علي بدرخان .

١٩٧٢ : «رجال بلا

ملامح» محمود ذو

الفقار .

١٩٧٣ : «عاشق

الروح» أحمد ضياء

الدين .

١٩٨٥ : «السكاكيني»

حسام الدين مصطفى .



غادة الكاميليا

بين غريتا غاريو وروبيرت تايلور



«عاشق الروح» للمخرج أحمد ضياء الدين

بين عماد حمدي وحسين فهمي

ولمّا كنت من هواة جمع الأثاث الثمين النادر ، فقد حزمت رأبي على انتهاز هذه الفرصة ، إن لم يكن للشراء ، فللمشاهدة على أقل تقدير . . وهكذا قصدت في صباح اليوم التالي المنزل رقم ٩ بشارع دانتان المذكور .

وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكراً . . فإبنتي وجدت المنزل عامراً بالزائرين والزائرات ..

كانت ثيابهم المخملية الثمينة ، ومظاهر النعمة التي تبدو عليهم ، والمركبات الفخمة التي تنتظرهم في الخارج . . كل ذلك كان يدل على أنهم من ذوي اليسار ، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون في كثير من الدهشة والإعجاب والاهتمام إلى ما يحيط بهم في ذلك المنزل من أثاث فخم ومن أسباب الرفاهة ومظاهر الترف .

ولم أعتّم أن اكتشفت سر هذه الدهشة وهذا الاهتمام ، فقد فطنت بعد جولة قصيرة بين الغرف إلى أن المنزل كان لإحدى الغانيات الغائبات ، ذوات المكاثة البارزة في عالم اللهو والعبث ، ثمّ يعشن في كنف واحد ، أو أكثر ، من النبلاء الأثرياء الذين ليست لهم صلة الزوج أو الأب أو الأخ بأولئك الغائبات .

ولا شك في أنه إذا كان في الوجود شيء تتحرق نساء الطبقة الراقية شوقاً إلى معرفته ، ومعابته ، فهو ذلك الجو الخاص والنظام الداخلي في منازل أولئك الغانيات اللاتي ينافسنهنّ في مظاهر الترف والرفاهية ، وينازعنهنّ الأسبقية في ميدان الأثرياء ، والأولوية في صدر المجتمع ، ويشغلن مثلهنّ المقصورات البارزة في دار الأوبرا وسائر

المسارح ، ويبهرن باريس بجمالهنّ الجريء ، وحديث فتنهنّ ومكائدهنّ ومغامراتهنّ .

وكانت الغاية التي نحن في منزلها الآن قد توفيت ، فلا جناح إذاً على المرأة الشريفة أن تدخل بينها ، وتنفذ من ثمّ إلى صميم مخدعها دون خوف أو وجل ، لأنّ الموت طهر ذلك المخدع الذي كان عساً للغرام ووكراً للرديلة والإثم . وإذا كان لا بد من مسوغ آخر لوجود النييلات الشريفات في ذلك الوكر فهو ذلك الأثاث الثمين الذي يباع بالمزاد العلني ، والذي يستطيع كل إنسان أن يراه ويستاعه دون أن يكون لزاماً عليه أن يعرف صاحبه .

وهكذا لم يكن عجيباً أن تمتلئ غرف المنزل بسيدات الطبقة الراقية ، فبدهي أنهنّ قرآن الإعلان ، وطبيعي أنهنّ أردن شهود قطع الأثاث واختيار ما يروقهنّ منها تمهيداً لاقتباها . كل ذلك في الواقع طبيعي لا بدع فيه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع أولئك النييلات الشريفات من إشباع غريزة الفضول التي تعتمل في نفوسهنّ ، والبحث هنا وهناك ، وسط مظاهر الشرف والتعظيم التي يرينها حولهنّ ، عن سرّ من أسرار فتنة تلك الغانية التي سمعن عنها كثيراً وتخيّلن عنها أكثر ممّا سمعن .

ولكن من سوء حظهنّ أن هذه الأسرار قد ذهبت بذهاب ربة الهيكل ، ولم يبق مائلاً إلا ما قضى الموت بعرضه للبيع والشراء وما أندر وما أئمن ما كان معروضاً من أثاث وثير منقطع النظير ، وآنية من أبداع ما صنع الصانعون ، وتماثيل صغيرة وملابس وحلي .

رُحْتُ أَتَنقُلُ بَيْنَ الْغُرُفِ فِي أَثَرِ النَّبِيلَاتِ الْفَضُولِيَّاتِ اللَّاتِيَّ  
سَبَقْتَنِي إِلَيْهَا .

ودخلت السيدات إلى غرفة ينسدل على بابها ستار ثمين ،  
فهممت بالدخول في أثرهن ، ولكنهنَّ خرجن فجأة وعلى شفاههنَّ  
ابتسامة غامضة ، وكأنَّ ما شهدته في تلك الغرفة قد خدش ما  
يزعمنه لأنفسهنَّ من الحياء والاحتشام .  
وأثار ذلك فضولي ، فدخلت الغرفة .

كانت غرفة ثياب الغانية التي اخترمها الموت . . . وكلُّ ما فيها  
يشهد بالنعيم الذي كانت ترفل فيه صاحبها .

رأيت بالقرب من أحد الجدران منضدة كبيرة قد رتَّب فوقها كنز  
من أدوات الزينة . . . وكلها من الذهب والفضة .

وكان من الواضح أنَّ هذه الأدوات قد جُمعت تدريجاً ، فهي  
ليست هدية عاشق واحد دون ريب . ولعاً لم يكن ثمة غضاضة في  
أن أفحص أدوات امرأة ذات سمعة معينة ، فإنني ما لبثت أن  
اكتشفت أن كل أداة من هذه الأدوات النفيسة تحمل اسماً وشعاراً  
مختلفين .

نظرت إلى هذه الأدوات التي تمثِّل كل منها إحدى مغلفرات تلك  
الغانية المنكودة ، وقلت لنفسي إنَّ السماء ولا شك قد ترفقت بهذه  
الفتاة المسكينة ، فلم تمد في أجلها وتبسط في أيامها حتى تستوفي  
العقوبة العادية التي يفرضها الإثم على الخاطئات أمثالها . . بل هي  
سمحت لها أن تموت وسط مظاهر النعيم ، وفي ذروة مجدها

وجمالها وشبابها . . قبل أن تدركها الشيخوخة التي هي الموتة المريرة  
الأولى لجميع الغانيات .

والحقَّ أنه ليس هناك ما يدعو إلى الرثاء والإسفاق كشيخوخة  
الإثم . . ولا سيما في النساء . . فالخاطنة المتقدمة في السن لا تفخر  
بكرامة . . ولا تثير اهتماماً . . فهي فيما بقي من أيامها نهية الحسرة  
والندم على ما فرط من اعوجاجها وفساد تقديرها وسوء تصرفها  
فيما انتهى إليها من مال من طريق الإثم والخطيئة .

وقد عرفت في وقت مضى عجزاً من هذا الطراز لم يبق لها من  
ماضيها غير ابنة تستمتع بمثل ما كان لها من جمال وفتنة وإغراء .

ولم تقل العجوز للفتاة «أنت ابنتي» إلا لتلمس لشيخوختها مثل  
المساعدة التي بذلتها للفتاة في طفولتها . .

وكانت الفتاة المسكينة - واسمها لوزا - طيعة لأمها ، فانقادت  
لحياة البغاء التي راضتها عليها ، كما كان يمكن أن تنقاد لو روضت  
على أية حياة أخرى .

واغتالت حياة الإثم في نفس الفتاة فضيلة التمييز بين الطيب  
والخبيث ، ولست أنسى ما حييت منظر هذه المسكينة وهي تتجوك في  
الشوارع في ساعات معينة ، وأما ترافقها . . كما ترافق الأم الشريفة  
ابتتها . . ولكن مع اختلاف في الغرض .

كنت في ذلك العهد في ريعان الصبا ، وعلى استعداد لقبول  
نواميس المجتمع على ما هي عليه ، ولكنني أذكر أنني لم أمالك من  
الشعور بالامتناع والاشمئزاز لهذا الاستغلال الأثيم لأقدس الصلات

أضف إلى ذلك أنني لم أر قط على وجه أطهر فتاة عذراء ما كنت أرى على وجه هذه الفتاة التسعة من مظاهر السذاجة والبساطة وشفة الاحتمال والجلد .

ويبدو أن العناية الإلهية كانت لا تزال تضمر لهذه الخاطئة المسكينة نوعاً من السعادة ، فقد اكتشفت الفتاة في أحد الأيام أنها ستصبح أما . . واستحال كل ما بقي نبيلاً وطاهراً في طبيعتها إلى غبطة لا توصف ، وأصبح الجنين الذي يتحرك في أحشائها الملجأ الوحيد الذي تغرز إليه روحها المعذبة ، وتجد فيه السلوى والعزاء . وكشفت الفتاة عن سرها لأمها .

\*

والذي حدث بعد ذلك يخجل سرده ، وربما كان من الأفضل ألا نسرده ، لولا أننا نعتقد بأنه من الخير في بعض الأحيان أن نميط اللثام عن ضروب الشقاء والتعاسة التي تعانيها هذه المخلوقات البائسات ، اللاتي نحكم عليهن دون أن نسمع دفاعهن ، ونحتقرهن دون أن نتغلغل في شؤون وشجون حياتهن .

قالت الأم لابنتها مُعْتَفَةً كلاماً يحمّر له وجه الأمومة ، قالت لها إنهما لا يجدان قوت يومهما ، فكيف إذا جاءهما ثالث؟ وبعد ، فما فائدة الأطفال؟ أفليس الاحتفاظ بالجنين مضيعة للوقت؟

وفي اليوم التالي جاءت بها بعجوز تعرفها ، فقضت العجوز مع لويزا ساعة أو بعض ساعة .

ولزمت لويزا بعد ذلك فراشها بضعة أيام . . ثم عادت تجوب الشوارع ضعيفة شاحبة . .

وبعد ثلاثة شهور على وجه التقريب ، عرف بعض الخيرين بهذه القصة المحرزنة ، فأخذته الشفقة بالفتاة ، وقرّر أن يُعنى بها وأن يعيد إليها الصحة ، ويردّها إلى سواء السبيل ، ولكن ما استهدفت له الفتاة قبل ثلاثة شهور كان قد أثر في صحتها . . فلزمت الفراش لأسابيع ، ثم قضت نحبها .

أما الأم فلا تزال حية ترزق ! ولكن كيف تحيا وترزق؟  
ذلك ما لا يعلمه إلا الله خالقها .

\*

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي وأنا أتأمل أدوات الزينة . . ولا بد أنني استغرقت في التفكير وقتاً طويلاً . . لأنني عندما أفقت من ذهولي وجددتني وحيداً في الغرفة . . وليس معي إلا أحد الرجال المكلفين بحراسة الأثاث النفيس .

وكان الرجل ينظر إليّ خلسة . . ويرمقني بين الفينة والفينة بعين الحذر والريبة . . فدنوت منه وسألته :

- هل لك يا سيدي أن تذكر لي اسم الشخص الذي كان يقيم في هذا المنزل؟

فأجاب :

- هذا بيت الأيسة مرغريت جوتيه .

وكنت قد رأيت هذه الفتاة مراراً فهتفت :

- ماذا تقول؟! هل ماتت مرغريت جوتيه؟

- نعم . . منذ ثلاثة أسابيع .

- ولماذا فتح بيتها لكل عابر سبيل؟

- ذلك أنّ الدائنين يعتقدون أن هذه هي أفضل وسيلة للحصول

على أعلى ثمن لامتعتها ومخلقاتها . والواقع أن عرض الامتعة في مكائنها الطبيعي ، وسط هذه المظاهر الخلابية ، من شأنه أن يضاعف إقبال المشترين .

- الدانتون؟ إذا فقد كانت مدينة؟

- نعم . . كانت مدينة بمبالغ طائلة .

- وهل يكفي ثمن امتعتها لسداد ديونها؟

- بل يكفي ويرى على قيمة الديون جميعها .

- وإلى من تؤول الزيادة؟

- إلى أسرته .

- فلها أسرة إذا؟

- أظن ذلك .

فشكرت الرجل لمعلوماته وأدبه . . وزالت شكوكه في نوابي فحياني باحترام وانصرفت .

مسكينة تلك الفتاة!! لا بد أنها ماتت ميتة محزنة . . فإن مثلاتها لا يستمتعن بصداقة الأصدقاء إلا بشروط أهمها وقرة الصحة والجمال!

ولم أتمالك من الشعور بالشفقة على مرغريت جوتيه . وقد يبدو ذلك غريباً وشاذاً في نظر الكثيرين ، ولكني في الواقع أشفق على هذا الطراز من النساء ، ولا أحاول كتمان هذا الإشفاق .

حدث ذات يوم أنني رأيت شرطيين يقودان فتاة إلى دائرة الشرطة .

لم أعلم ماذا جنت هذه الفتاة . . كل ما أعلمه أنني رأيتها نيكي

بدموع غزيرة . . وتقبل طفلة صغيرة يوشك اعتقالها أن يفرق بينهما . ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة اقترفت إنعماً . . ولكن بما لا شك فيه أنها كانت تتعلم في أعماق نفسها أنبل عواطف الأمومة .

ومن ذلك اليوم وأنا أربأ بنفسني عن أن أصدر حكمي على أولئك النساء بمجرد الظواهر دون معرفة الجواهر .

## الفصل الثاني

عُين يوم ١٦ آذار/ مارس لبيع الأثاث .

وحدث في ذلك العهد أنني كنت قد عدت للتو من رحلة طويلة ، فلم أعلم بموت مرغريت جوتيه ، وكان من الطبيعي ألا يذكر لي أصدقائي نبأ موتها ضمن الأبياء الهامة التي يسارع الأصدقاء إلى ذكرها للإنسان بعد عودته من سفرة طويلة الأمد .

كانت مرغريت جميلة حقاً . . ولكن على الرغم من الشهرة التي يستمتع بها أولئك النساء في حياتهن . . فإن الإنسان لا يسمع عنهن إلا النذر اليسير بعد موتهن . . فهن في الواقع شمس تغيب كما تشرق . . فلا يفتن إليهن أحد . . إلا وهن في كبد السماء .

ولو ماتت إحدى أولئك النسوة في مقتبل العمر لذاع نبأ موتها بين عشاقها جميعاً في وقت واحد . . لأن نوعاً من الصداقة ينشأ عادة بين عشاق المرأة الواحدة . . وهم عندئذ يتبادلون عنها بعض الذكريات . . ثم يستأنفون حياة لا تنغصها عبء واحدة . . على المرأة التمسعة التي كانت تربطهم بها تلك الصلة الوثيقة .

والواقع . . أنه في مدينة لاهية كباريس تصبح الدموع عزيزة على أصحابها ، فلا يسكبونها في كل مناسبة . . إذ يكفي أباءنا - الذين يدفعون ثمن حزننا - أن ينالوا من دموعنا ما يعادل الثمن الذي يدفعونه إلينا في شكل تركة موروثه .

أما أنا شخصياً . . فعلى الرغم من أن الحروف الأولى من اسمي لم تكن منقوشة على شيء من أدوات الزينة في غرفة مرغريت جوتييه . . فإن شفقتي الغريزية على هذا الطراز من النساء دفعتني إلى التفكير في أمرها أكثر مما تستحق .

تذكرت أنني رأيتها مراراً في حدائق الشانزليزيه ، حيث كانت تذهب كل يوم في مركبة فخمة يجرها جوادان بديعان . . وتذكرت أنني كنت أميزها بمسحة من الأثافة والنبل تفرّدت بها عن نساء طبقته .

وقد جرت عادة أولئك النساء أنهن . . إذا خرجن للتنزه . . اصطحبن معهن كاتناً من كان .

ولمّا كان كل رجل يضمن بكرامته أن تلوّكها الألسنة . . وبمغامراته الليلية أن تصبح مدار حديث الناس في كل مجتمع . . وكانت أولئك النسوة يفرعن من الوحدة . . فانهنّ اعتدن أن يسطحن في مركباتهنّ زميلة من طبقتهن لا تملك مركبة مثلهنّ . . أو عجوزاً شمطاء لا تخشى منافستها ويستطيع المتبذكون من الرجال أن يلجأوا إليها في طلب المعلومات من كل نوع . . عن الحسناء صاحبة المركبة .

ولكنّ مرغريت شدّت على هذه القاعدة . . فكانت تذهب إلى الشانزليزيه بمفردها . . وتكتمش في ركن مركبتها . . كانت وكأنها لا

تريد أن يشعر بوجودها أحد . . فإذا حلّ الشتاء التفت في معطف كبير يحجب فنتها ، وإذا أقبل الصيف برزت في ثوب بسيط لا يلفت إليها الأنظار . . وإذا وقع بصرها على واحد من أصدقائها العديدين ابتمت له ابتسامة لا يراها أحد سواه . . كابتسامة أبة امرأة شريفة نبيلة في مثل هذه الظروف .

كذلك لم تكن مرغريت تتلصقاً بمركبتها في ميدان الشانزليزيه كما تفعل مثيلاتها . . بل كانت تقصد توّاً إلى الغابة . . وهناك تهبط من مركبتها . . وتسير بين الأشجار تترتّب ساعة أو بعض ساعة . . ثم تعود إلى بيتها بأقصى سرعة جوادها الكريمين .

تذكرت كل ذلك عن مرغريت جوتييه . . وأسفت لموتها كما يأسف الإنسان على فناء عمل فني منقطع النظير .

والواقع أنه يصعب . . بل يكاد يستحيل . . أن يصادف الإنسان امرأة أكثر جمالاً من مرغريت . .

كانت عمشوقة القامة صغيرة الجسم . . تعرف إلى درجة الإثقان كيف تخفي نحافتها البارزة . . بل وتعرف - بمهارتها في اختيار ثيابها - كيف تجعل من هذه النحافة جسداً فائتاً تحسدها عليه أترابها .  
وكان رأسها أعجوبة في ذاته . . فهو صغير جداً بقدر ما هو متناسب التقاطيع . .

وإذا أردت الاحتفاظ بصورة وجهها لتناول القلم وارسم وجهها بيضياً منتظماً . . وخطّ فيه عينه تتألفان نالفاً غير عادي . . ثم ارسم بالقلم فوق العينين قوسين رقيقين . . وظلال العينين بأهداب طويلة يترامى ظلها إلى الخدين . . وارسم بعد ذلك أنفاً دقيقاً مستقيماً وقمّاً

رقيقاً يفتر عن أسنان بيضاء كالثلج .. واصبغ الحديد بلون ناعم  
كلون الخوخة الناضجة التي لم تمسها يد إنسان .. فترى أمام  
باصرتيك وجه مرغريت جوتيه .

أما كيف احتفظ هذا الوجه - رغم إصراف صاحبه في اللهو  
والعبث - بتلك النضارة والدعة اللتين تحتكهما وجوه العذارى  
والأطفال فذلك ما أسجّله هنا .. دون أن أحاول تعليله وتعليله .

كانت مرغريت شديدة الحرص على حضور العرض الأول في  
جميع المسارح ، فهي تقضي معظم أمسياتها تقريباً في المسارح  
والمراقص .. وحيثما تعرض إحدى المسرحيات ، للمرة الأولى ، تجد  
مرغريت جوتيه صحبة ثلاثة أشياء لا تفارقها : المنظار الكبير ، وحزمة  
من الحلوى ، وياقة من زهور الكاميليا .

ولم يعرف عن مرغريت أنها استعاضت يوماً عن الكاميليا بزهور  
أخرى .. فكان أن اشتهرت في كل باريس باسم «غادة الكاميليا» .  
وقد علمت عنها حقائق أخرى يعرفها سائر المترددين على  
مجالس معروفة .

علمت .. مثلاً .. أنها كانت في وقت ما عشيقة شاب في مقتبل  
العمر من شباب الأوساط الراقية ، وأنها كانت تعترف بذلك في  
صراحة .

وعلمت أنها رحلت إلى بانير منذ ثلاثة أعوام .. وقيل وقتئذ إنها  
تعاشر هناك دوقاً أجنبياً متقدماً في السن ولكنه واسع الثراء .. وإن  
هذا الدوق حاول أن يردها عن حياة اللهو والعبث وإنه آسن فيها  
مياً وارتياحاً إلى تحقيق هذه الرغبة .

وفيما يلي خلاصة ما أشيع في هذا الصدد :

حدث في ذاك الربيع - منذ ثلاثة أعوام - أن طراً على سحنة  
مرغريت من الانقلاب ، وعلى صحتها من الضعف ، ما حمل الأطباء  
على أن ينصحوا لها بالاستشفاء في بانير .

وكانت ابنة الدوق الذي أشرت إليه تستوفي في ذلك المكان ..  
ولم تكن مصابة بمثل داء مرغريت فحسب .. بل كان لها كذلك  
مثل قوامها وسحتها .. وبلغ من دقة الشبه بينهما أن كان الناظر  
إليهما يتوهم أنهما توأمان !

وكانت ابنة الدوق مصابة بالسل في طوره الأخير فما لبثت أن  
توفيت عقب وصول مرغريت إلى بانير .

وقضى الدوق العجوز بضعة أيام منسكماً في بانير كما يتسكع  
الإنسان حول القبر الذي يضم أعز أحلامه وآماله . وحدث ذات يوم  
أن صادف الدوق مرغريت .. فشبّه إليه أنه رأى ابنته التي انتزعها  
الموت من أحضانه .. فذهب إليها والدموع تترقرق في عينيه ..  
وضم يدها بين يديه .. وطبع قبلة على جبينها .. وتوسّل إليها -  
دون أن يعرف شيئاً عنها - أن تسمح له بزيارتها وأن يحبها كما  
يحب أمودجاً حياً لابنته العزيزة المتوفاة .

وكانت مرغريت وحيدة في بانير .. ولم يكن هناك ما يهدد  
سمعتها إذا صادقت ذلك الدوق المسن .. فلم تتردد في إجابة  
المسكين إلى رجائه .

ولكن كان في بانير أناس يعرفون مرغريت .. فجعل هؤلاء  
همهم أن يكشفوا للدوق عن حقيقتها .. وكانت صدمة محزنة  
للشيخ المسكين .. فقد أمّحت عند ذلك وجوه الشبه بين ابنته  
ومرغريت ..



كان من أظهر المشاعر الأبوية وأنبئها . . فلم يسمعها قط كلمة تخجل ابنته من سماعها .

وليس في نيتي أن أجعل من بطلة هذه القصة غير من هي ، فأقول إنها لم تير بوعدها للدوق إلا ريثما انقضت أيام الهدوء والسكينة والاستجمام في بانير ، فلماً عادت إلى باريس أحست - وهي التي ألفت أجواء العيب واللهو والحياة الطرورية الصاخبة - بأن الوحدة والسكينة ستقتلها سامة وملاة . . ثم هبت عليها أنفاس الحياة السابقة . . فلغمت وجهها وقلبيها . . وأيقظت مشاعرها المكتونة .

أضف إلى ذلك أنها عادت إلى باريس أكثر جمالاً وأشد فتنة . . وأنها كانت لا تزال في العشرين من عمرها . . وأن داءها الذي هجع ولم يستأصل . . كان لا يزال يحرك في أعماقها تلك الغرائز الجامحة التي تلازم أمراض الرثة فلا تفارقها .

لكل هذا وذلك . . تعذّر على مرغریت أن تخذل إلى الوحدة أو العزلة والسكينة في باريس .

وحديث في أحد الأيام أن علم الدوق المسكين من بعض أصدقائه . . أو على الأصح . . من أصدقاء ثروته تمن بهمهم إقصاؤه عن مرغریت . . أن الفتاة قد عادت سيرتها الأولى . . وأنها تستقبل الزائرين في بيتها في ساعات معينة بعد انصرافه . . وأن بعض هؤلاء الزائرين يطيلون إقامتهم إلى تبشير الصباح .

وسأل الشيخ المتناع الفتاة . . وكانت هي من الصراحة والشجاعة بحيث اعترفت له بكل شيء ونصحت له ألا يزعج نفسه من أجلها . . لأنها لا تقوى على حياة الجمود والعزلة والزهد وإنكار

ولكن تحذير الناس جاء متأخراً بعد أن عرف الدوق التعس في صحبة مرغریت راحة النفس وهناء القلب . . وأصبحت الفتاة بالنسبة إليه من ضروريات الحياة . .

لم يعتب عليها . . إذ لم يكن من حقه أن يعتب . . ولكنه سألها إن كانت ترضى عن حياتها الأولى بديلاً . . وعرض عليها ما تشاء لقاء هذه التضحية . . فوعدت بتحقيق رغبته .

وتجدد الملاحظة هنا أن مرغریت كانت في هذه الفترة عيلة سقيمة وكانت قد بدأت تشعر بأن حياة اللهو والعيب والرذيلة هي أساس علتها وسقمها .

واستولى عليها مع هذا العرض نوع من الوهم جعلها ترجو أن ترد العناية الإلهية صحتها عليها . . وأن تحفظ لها جمالها . . جزاء ندمها وتوبتها . . إذا هي ندمت وتابت . .

والواقع . . أن المياه المعدنية في بانير والرياضة المنتظمة . . والحياة الهادئة الوادعة . . والراحة المستمرة . . كل ذلك ما لبث أن ردّ عليها صحتها . . وقوتها .

ثم عادت مرغریت من بعد إلى باريس برفقة الدوق ترفل بالعافية . . وراح الدوق يزورها كل يوم كما كان يفعل في بانير .

•  
ولاحظ الناس الصلة بينهما . . ولم يعرفوا أصلها أو طبيعتها . . ولكنهم جميعهم لم يختلفوا في تأويلها وتعليلها . . وكان الدوق مشهوراً بسعة ثروته . . فأصبح مشهوراً بنفسه وبذلك .

والواقع . . أن الناس ظنوا في هذه القصة كل الظنون . . إلا الحقيقة . . والحقيقة هي أن شعور الشيخ التاكل نحو الغانية المعشوقة

الذات كما وعدت .. وبالتالي لا تستطيع المضي في قبول الهبات  
والعطايا التي يسبغها عليها لقاء وعد عجزت عن الوفاء به .  
راح الدوق في سبيله .. ومرّ أسبوع لم يرها في خلاله .. ولكن  
هذا الأسبوع كان مبلغ قدرته على إنكار ذاته .. لأنه عاد إليها في  
الأسبوع الثاني متوسلاً أن تسمح له بزيارتها .. راضياً بها كما هي ..  
واعداً بالألّا يعود إلى إزعاجها ولومها مهما بدا من أفعالها .

### الفصل الثالث

قصدت إلى شارع دانتان في اليوم المحدد للبيع .. وما كدت أعبّر  
الباب الخارجي .. حتى سمعت صوت (الدلاك) واضحاً جلياً .  
كان المنزل غاصاً بالناس .. وبينهم بطبيعة الحال الغانيات المبرزات  
في ميدان الرذيلة (الراقية) .. وعدد كبير من نساء الطبقة الممتازة  
جنن في الظاهر للشراء .. وفي الحقيقة لانتهاز هذه الفرصة الفريدة  
والاجتماع عن قرب بأولئك الغانيات اللاتي يتظاهرن باحتقارهن ..  
وهنّ في الواقع يحسدنهنّ سراً على ما هنّ عليه من ترف .  
رأيت الدوقة (ف) تخطو جنباً إلى جنب مع الأنسة (أ) التي  
أصبح بيتها موئلاً للعشاق .. ورأيت المريكيزة (ت) تتردد في ابتياع  
أداة من أدوات الزينة تنافسها فيها مدام (د) .. أشهر الزوجات  
الحائزات في باريس .

ورأيت الدوق (س) .. الذي يعتقد الناس في باريس أنه يتفق كل  
ثروته على غانيات مدريد .. ويعتقد الناس في مدريد أنه يعثر  
أمواله على غانيات باريس .. وهو في الواقع لا يتفق معشار إيراده

هنا أو هناك .. رأيت هذا الدوق واقفاً يتحدث إلى السيدة (ه)  
الكاتبة المشهورة .. ويختلس النظرات في الوقت نفسه إلى السيدة  
(ن) تلك المرأة الأثيقة التي اختارت لثيابها اللون الأزرق السماوي .

ورأيت الأنسة (ر) .. الموسيقية المبدعة التي احتلت بمواهبها مكانة  
دونها المكانة التي نالتها أولئك النييلات بوفرة أموالهنّ .. أو نالتها  
أولئك الغانيات بكثرة مغامراتهنّ .. وقد جاءت بدورها - رغم شدة  
البرد - لابتياع متاع من مخلفات مرغريت جوتيه .

وكان هناك غير هؤلاء وأولئك ممن لا يتسع المقام لذكرهم ..  
وقد اجتذبتهم جميعاً رغم تباين مراكزهم في الهيئة الاجتماعية شهرة  
المرأة التي يباع أثنائها اليوم بالزاد العلني .

كانوا جميعاً مرحين ممثلين نشاطاً وحيوية .. وعلى الرغم من أن  
البعض منهم كانوا يعرفون مرغريت حق المعرفة .. فإن أحداً منهم  
لم يأت على ذكرها بكلمة واحدة .

وارتفع من هنا وهناك زنب الضحكات .. ودوى صوت (الدلاك)  
فوق جميع الأصوات .. وعيشاً حاول التجار الذين جاءوا بقصد  
الشراء حمل الحاضرين على التزام الهدوء والسكينة .

وفي الواقع التي لم أشهد في حياتي اجتماعاً متباين العناصر شديد  
الجلبة كذلك الاجتماع ، لم أمالك معه من الشعور بالأسى والحزن  
عندما سمعت صخب الضحكات في الغرفة عينها التي لفظت فيها  
تلك المخلوقة المسكينة أنفاسها الأخيرة منذ أيام معدودة .

كان غرضي من الحضور مجرد التسلية لا الشراء .. فذهبت أتأمل  
وجوه الدائنين الذين يبيع الأثاث لحسابهم .. والذين كانت أساريهم

تنبسط كلما يبعث إحدى القطع بثمن أعلى من الثمن الذي ختمته لها .

كانوا جميعاً من التجار الشرفاء الذين استثمروا أموالهم في بغاء تلك المرأة العسة . . . وريحوا من التعامل معها أكثر من مائة في المائة . . . ثم أزعجوها في ساعاتها الأخيرة بالمطالبة بديونهم المزعومة . . . وقد جاءوا الساعة بعد موتها لجني ثمار مضارباتهم الشريفة وتحصيل فائدة أموالهم التي استردوا قيمتها مراراً وتكراراً ! فما أحكم أولئك الأقدمين الذين كانوا ينسبون طغمة التجار إلى فصيلة اللصوص !!

يبيع الثياب والحلي وأدوات الزينة بسرعة مدهشة . . . ولم يكن في هذه الأشياء ما يهمني الحصول عليه . . . فانتظرت صابراً . . . إلى أن صاح الدلال :

- ها هي نسخة من كتاب «مانون ليسكو» مجلدة تجليداً فاخراً أتياً . . . وفي صفحته الأولى بضع كلمات . . . والثمن الأساسي المحدد عشرة فرنكات . . .

فقال قائل بعد صمت طويل :

- اثنا عشر فرنكاً .

فقلت :

- خمسة عشر فرنكاً .

ولا أدري لماذا أردت الحصول على هذا الكتاب . . . ربما كانت الكلمات التي في صفحته الأولى هي ما أغرائني بشرائه .  
وصاح الدلال :

- خمسة عشر فرنكاً . . .

فقال الرجل الذي تقدم أولاً لشرائه :

- ثلاثون فرنكاً .

وكان صوته ينم عن التحدي فصحت :

- أربعون . . .

- خمسون .

- ستون . . .

- سبعون .

فصرخت بعزم :

- مائة فرنك .

وساد صمت عميق . . . ونظر إليّ القوم في فضول . . . ولا ريب أن لهجتي قد أقتعت منافسي بأنني عازم على الحصول على هذا الكتاب مهما كان الثمن . . . فأحني قامته باحترام وقال :

- إنه لك يا سيدي .

وهكذا أصبح الكتاب من حقي .

ثم أشفقت أن تسوقني حرارة المناقسة على شراء سواء إلى مثل هذا الإسراف . . . فتركت عنواني للدلال وانصرف . . . دون أن ألقى نظرة أخرى على القوم لمعرفة مدى التأثير الذي تركه في نفوسهم إقدامي على دفع مائة فرنك ثمناً لكتاب أستطيع إتياعه من أية مكتبة بمئثار هذا الثمن الباهظ .

وبعد ساعتين أرسلت في طلب الكتاب . . . وتصفحته . . . ووقع بصري في الصفحة الأولى على هذا الإهداء مكتوباً بخط أنيق :

«مانون تقدم خضوعها لمرغريت»

التوقيع  
أرمان ديقال

وسألت نفسي .. ما معنى كلمة «خضوعها» !!

هل رأى السيد أرمان ديقال أن مرغريت تفوق مانون في وجوه  
الغواية والعبث حتى لتتقدم إليها مانون فروض الخضوع؟!  
أم رأى أنها تفوقها في شدة الحساسية .. ونيل العاطفة ..  
فاستحقت منها هذا الخضوع تقدمه إليها؟  
كان الافتراض الثاني أقرب إلى الاحتمال .. أما الافتراض الأول  
فإنه لؤم لا يمكن أن تكون مرغريت قد سمحت به .

وشغلتنني شؤوني الخاصة بعد ذلك عن الخوض في هذا  
الموضوع . ورحلت عن باريس .

ولكنني قرأت كتاب «مانون ليسكو» للمرة الثانية ، حتى صار  
يخيّل إليّ أنني قابلت هذه المرأة شخصياً ، وعرفت حق المعرفة ،  
وشعرت بما هنالك من وجوه الشبه بين مصير مانون وخاتمة  
مرغريت ، وأحسست عندها بالشفقة ، بل وبالعطف على الفتاة  
التعبة التي أخذت هذا الكتاب من مخلفاتها .

وقصة مانون - كما وصفها الأب بريغو - هي قصة خالدة لفتاة  
حسنة أحببت شاباً يدعى الشيفالييه دي جريو ، ثم كان من ولع  
الفتاة بمظاهر الترف والتنعيم ، وإدقاع الشاب وفقره ، ما حمل  
العاشقين على ابتزاز المال من نبيل فاسق وقع في حبالل مانون ، ثم

شعر النبيل بما دبراه فاستخدم نفوذه حتى أبعد مانون إلى أميركا ،  
حيث كانت ترسل البغايا والساقطات ، وهناك ماتت الفتاة التعبة في  
الصحراء من شدة البرد والتعب ..

قرأت هذه القصة مراراً كما أسلفت .. ولم أتمالك من المقارنة بين  
مصير مانون تلك ونهاية مرغريت هذه .

لقد ماتت مانون في الصحراء حقاً .. غير أنها ماتت بين ذراعي  
الرجل الذي أحبها بكل جوارحه .. فحفر يوم قضت قبرها بيديه ..  
وأرواه بدموعه .. ثم دفنها .. ودفن قلبه معها .

أما مرغريت .. وهي خاطنة ضالة مثل مانون - ولعلها اهتدت  
أخيراً كما اهتدت مانون - فإنها ماتت وسط التنعيم .. وفي مثل  
الغرفة نفسها التي كانت هيكلًا لفجورها .. ولكنها ماتت وقلبيها في  
صحراء أشد خواءً وإجذاباً من الصحراء التي ضمت جثمان مانون .

والواقع أن مرغريت - كما علمت ممن يعرفونها - لم تجد من  
يسمعها كلمة عزاء أو سلوان طيلة الشهرين اللذين قضتهما في  
فراش المرض قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وتحوّكت أفكارها وتأمّلاتها عن مانون .. وعن مرغريت .. إلى  
فتيات أعرفهن .. وما زلت أراهن مسرعات دون اكرتات .. وهنّ  
مغمضات العيون .. وعلى شفاههن ابتسامة - أو أغنية - في الطريق  
إلى موت محقق محفوظ بالنعاسة والوحدة .

فما أشقى أولئك المخلوقات؟! إنهنّ محرومات من الحب والعطف  
على السواء .

إننا نشفق على الأعمى الذي لم ير ضوء النهار قط .. ونشفق على الأصم الذي لم يسمع أنغام الطبيعة مطلقاً .. ونشفق على الأبكم الذي لم يعبر عن إحساساته ومشاعره لحظةً .. ولكتنا ممنوعون - بحكم التقاليد الجائرة الجوفاء - من أن نشفق على عمى القلب .. وصمم الروح .. وجمود الضمير .. تلك العاهات التي تذهب بالباب هذه المخلوقات التعسة .. وتعمي بصائرهن عن الفضائل الإنسانية .. وتصم آذانهن عن سماع كلام الله .. وتعقل ألسنتهن عن النطق باللغة الطاهرة الثقية .. لغة الإيمان والحب الصحيح .

لقد ابتكر فكتور هوغو شخصية «ماريون ديلورم» .. وصوّر دو موسه شخصية بورنويت .. وتكلم دوما عن «فرناندا» .. ولم يبخل المفكرون والشعراء في الأجيال السابقة بالعطف على هذه الطبقة التعسة من النساء . وحدث في كل زمان ومكان أن بعض العظماء ردوا بعضهن إلى سواء السبيل .. وذلك بأن أوقفوا عليهن عطفهم ورعايتهن .. بل وأعطوهن كذلك أسماءهم وألقابهم .

وإذا كنت أطيل الكتابة في هذا الموضوع .. فلأن كثيرين .. ممن سيقع هذا الكتاب بين أيديهم .. سوف يقرأون صفحاته الأولى ثم لا يترددون في إلقائه بعيداً على اعتبار أنه كتاب يشجع على الرذيلة .. ويسوغ البغاء .. ولكن ما أبعد ظنونهم عن الصواب .. فليمض هؤلاء في القراءة دون خوف أو وجل .

إنني على اعتقاد تام بأن المرأة التي لا يفتح التعليم عينها إلى

الطريق القويم .. تدفع بها الأمدار في غالب الأحيان إلى طريقين .. طريق الحب وطريق الألم .. وهما طريقان شديداً الوعورة تسلكهما السالكات بأقدام دامية .. وأبد جريحة .. ولكنهن يتركن أوسمة الرذيلة على أشواك الطريق .. ويصلن إلى نهاية الرحلة في حالة من العري لا تخجلهن في نظر خالق الأنوان .

فعلی الذين يصادفون أولئك السالكات المقدمات أن يسطوا إليهن يد المساعدة .. وأن يذيعوا على الملأ أنهم صادفوهن .. فإنهم بإذاعة هذه الحقيقة يرشدون الأخريات إلى الصراط المستقيم .

وهل يكفي أن نضع على طريقي الحياة لوحتين مكتوب عليهما «هذا طريق الخير» و«هذا طريق الشر» .. ثم نقول لعابر السبيل «اختر لنفسك ما يحلو لك»؟ لا .. بل يجب أن نهدي العابرين الذين ضلوا وانخدعوا إلى المسالك التي توصل من الطريق الثاني إلى الطريق الأول .. وأن نعمل خصيصاً على تيسير هذه المسالك وإزالة العقبات منها وإليها .

لقد كان السيد المسيح يعطف أشد العطف على النفوس التي أدمتها الشهوات الدنيوية .. وكان يشفي هذه الجروح بيلسم من صديدها .. أفلم يقل لمريم المجدلية «سيغفر لك الكثير لأنك أحببت كثيراً»؟ فلماذا نأخذ بتقاليد هذا المجتمع الذي يشتد ويقسو لكي يبدو قوياً؟ ولماذا نتنكر لهذه النفوس الدامية التي يمكن تطهيرها من صديد الماضي ولا تحتاج جراحها إلا إلى لمسة واحدة من يد كريمة فتبراً وتندمل؟!

إن جهود المفكرين جميعاً تمضي إلى هدف واحد .. وأفذاذ العقول جميعاً يهتدون بمبدأ واحد .. ويسعون إلى غرض واحد ..

فهم يقولون : لناخذ بأسباب الفضيلة .. ولكن صادقين .. وأهم من ذلك كله .. يجب ألا نياس من النوع البشري .. ولنكتف عن احتقار المرأة التي ليست أمًا ولا أختًا .. ولا ابنة ولا زوجة .. ثم دعونا لا نوقف كل احترامنا على عائلتنا .. أو نستمد عطفنا من أنانيتنا .. ولنترك في طريق الحياة آثار رفقتنا بأولئك الذين ضلوا سواء السبيل .

ولا شك أنه من الجراة أن أنتظر من هذا الكتاب الصغير أن يحيي كل هذه الفضائل .. ولكني من أولئك الذين يعتقدون بأن الشيء الصغير يحمل نطفة الشيء الكبير : فالطفل صغير .. ولكنه نواة الرجل .. والعين كرة صغيرة .. ولكنها تحيط بفضاء الكون الشاسع .

#### الفصل الرابع

دام البيع يومين وحصل مبلغاً لا يقل عن مائة وخمسين ألف فرنك اقتسم الدائنون ثلثيها .. وانتهى الثلث الباقي إلى أخت مرغريت بصفتها وريثتها الوحيدة .

وقد فتحت الأخت عينيها في دهشة حين كتب إليها مسجّل العقود ينبتها بأنها ورثت خمسين ألف فرنك .

وكانت مضت سبعة أعوام لم تسمع هذه الأخت شيئاً عن مرغريت التي اختفت فجأة في أحد الأيام وانقطعت أخبارها عن أهلها وعن سائر معارفها فلم يبلغهم شيء عن حياتها منذ اختفت .

ودُعيت الأخت إلى باريس لتسلم الميراث ، ولشدّ ما كانت دهشة أصدقائه مرغريت حين أبصروا في أختها فتاة ريفية ساذجة بدينة

الجسم موردة الوجنتين .. لم يسبق لها قط أن برحت مسقط رأسها . وقد عادت هذه الأخت إلى قريتها على الأثر .. ولم يخف من حزنها على شقيقتها إلا شعورها بالمبلغ الطائل الذي يملأ جيوبها .

وردت باريس - عاصمة الفضايح - هذه الحقائق الأخيرة عن مرغريت وأختها .. ثم بدأت تسدل ستار النسيان على الغاية التي كانت في وقت ما ملء العيون .. وكان اسمها ملء الأفواه .. وسمعتها ملء الأسماع .

وأوشكت بدوري أن أنسى .. ولكن حدث فجأة حادث جديد حمل إليّ تاريخ مرغريت كله .. بما فيه من تفصيلات مؤثرة أوجت إليّ أن أسجّل قصتها المؤلمة بتمامها فسجلتها .

في صباح أحد الأيام .. سمعت طرقة على باب شقتي . فذهب الخادم إلى الباب .. وعاد يحمل إليّ بطاقة ويقول إن صاحبها يرغب في التحدث إليّ .

نظرت إلى البطاقة فوجدت فيها هذا الاسم :

أرمان ديفال

وحاولت أن أذكر أين قرأت هذا الاسم من قبل .. وسرعان ما تذكرت الصفحة الأولى من كتاب «ماتون ليبكرو» .

وتساءلت .. ترى ماذا يريد مني هذا الرجل الذي أهدى نسخة الكتاب إلى مرغريت؟

وأمرت الخادم أن يدعوه للدخول .

وما هي إلا لحظة حتى دخل عليّ شاب طويل القامة شديد

امتقاع الوجه ، يرتدي ثوب سفر أدركت من الغبار الذي يعلوه أن صاحبه لم يستبدله منذ بضعة أيام ، بل ولم يفكر في رفع الغبار عنه منذ وصوله إلى باريس .

ولم يحاول السيد ديهال إخفاء تأثره وانفعاله ، فقال والدموع تملأ عينيه :

- سيدي .. أرجو المعذرة عن تطفلي بزيارتك في هذه الشيايب الرثة .. فإنَّ رغبتني في مقابلتك بأسرع ما يمكن جعلتني أضن بقضاء بعض الوقت في الفندق الذي احتجزت فيه غرفة لإقامتي في باريس .. وقد جئت إلى هنا مباشرة .. لألحق بك قبل أن تبرح بيتك .

فرجوته أن يجلس بالقرب من الموقد .. فجلس . وأخرج من جيبه مندبلاً جفَّف به عينيه .

قال وهو يتشم بأسي :

- لا شك أنك لا تستطيع أن تدرك لماذا يأتي رجل غريب فيطلب مقابلتك في مثل هذه الساعة المبكرة .. وهو يرتدي مثل هذا الشوب .. ويبيكي بكاء الأطفال . ولكنني رجل سحفة الحزن يا سيدي .. وقد جئت أطلب خدمة عظيمة على يديك .

- تكلم بحق السماء يا سيدي ! واعلم أنني سأكون سعيداً إذا استطعت أن أخدمك .

- أعتقد أنك شهدت بيع مخلفات مرغريت جوتيه . واشتدَّ به التأثر والانفعال عندما ذكر هذا الاسم .. فأخفى وجهه بين كفيه وانفجر باكياً .

ثمَّ استطرد :

- أخشى أن يبدو سلوكي في عينيك مدعاة للسخرية .. ولكنني أرجو معذرتك .. وأؤكد لك أنني لن أنسى ما حييت سعة صدرك وعنايتك بالإصغاء إليّ .

فأجبت وأنا أشعر بإشفاق حقيقي على هذا الشاب الحزين :

- سيدي .. إذا كان من شأن الخدمة التي تعتقد أنني أستطيع تقديمها أن تخفِّف من حزنك وألمك .. فأرجو أن تذكرها في الحال .. وسيكون من دواعي سروري أن أجيبك إلى ما تطلب .

فسأل :

- هل ابتعت شيئاً من مخلفات مرغريت جوتيه؟

- نعم .. لقد ابتعت كتاباً .

- كتاب «مانون ليسكو»؟

- هو ذاك .

- وهل ما زلت تحتفظ بهذا الكتاب؟

- إنه في غرفة نومي .

فبدت على وجهه أمارات الارتياح .. وراح يشكرني كما لو كان احتفاظي بهذا الكتاب هو الخدمة التي جاء يطلبها .

ونهدت إلى مخدعي .. وجئت بالكتاب ووضعت بين يديه . فقال بعد أن ألقى نظرة على الصفحة الأولى :

- نعم .. نعم هذا هو الكتاب .

وانحدرت من عينيه دمعتان كبيرتان سقطتا على تلك الصفحة . ثم رفع رأسه .. وقال دون أن يحاول إخفاء الدمع الذي يترقرق في عينيه :

- أرجو أن تبنيني يا سيدي .. هل تعلق أهمية خاصة على هذا الكتاب؟!

من التفریط فيه .

وفهمت من هذه العبارة الأخيرة أنه يخشى أن أكون قد عرفت  
مرغريت كما كان هو يعرفها . فأجبت لكي أزيل شكوكه :

- أنا لم أعرف الأتسة جوتييه إلا شكلاً . . واسماً . . وقد ترك  
موتها في نفسي الأثر الذي يتركه عادة موت الصبية الحسنة في نفس  
شاب اعتاد أن يعجب بجمالها وفتنتها . . ولذلك رغبت في شراء  
شيء من أمتعتها . . ووقع اختياري - ولا أعلم السبب - على هذا  
الكتاب . . ودفعت فيه هذا الثمن على سبيل العناد تحدياً لمنافس كان  
يريد الحصول عليه أيضاً .

والكتاب - كما قلت - تحت تصرفك . . فأرجوك في قبوله عربوناً  
لصداقة أتمنى أن تتوثق أواصرها بيننا في المستقبل .

فأجاب أرمان وهو يشدّ على يدي :

- فليكن ذلك يا سيدي . . إنني أقبل هذا العربون . . وسأذكر  
فضلك وكرمك ما حييت .

وكنتُ وددت لو ألقي عليه بضعة أسئلة عن مرغريت . . لأنّ  
الكتاب الذي أهدها إليها . . واهتمامه بالحصول على شيء من  
مخلفاتها . . كل ذلك أثار فضولي . ولكنني خفت أن ألحف عليه  
في السؤال فيعتقد أنني رفضت ثمن الكتاب لأستبيح لنفسني الحق في  
التفكّل على شؤونه اعتماداً على وفائه وامتنانه لي .

وأكبر ظني أنه أدرك ما يدور بخلدني ، لأنه قال :

- هل قرأت هذا الكتاب يا سيدي؟

- بل قرأته أكثر من مرّة .

- ولم هذا السؤال؟

- لأنني أريد أن أرجوك في أن تسمح لي به .

فأجبت بهش :

- معذرة عن فضولي يا سيدي . . ولكن هل أنت الذي أهديت  
هذا الكتاب إلى مرغريت جوتييه؟  
- نعم .

- إذاً فالكتاب لك يا سيدي . . فخذهُ وأنا سعيد بأن أردّه إليك .

فقال في شيء من الحيرة :

- ولكن يجب أن تسمح لي على الأقل بأن أرد إليك الثمن الذي  
دفعته للحصول عليه .

- أرجوك أن تقبل الكتاب مني يا سيدي . . أمّا ثمنه فكان من  
النفاهة بحيث لا أستطيع الآن أن أذكره .

- إنك دفعت مائة من الفرنكات ثمناً يا سيدي .

فملكنتي الحيرة بدوري وأجبت :

- هذا صحيح . . ولكن كيف علمت؟!

- الأمر بسيط ، فإنتي كنت أرجو الوصول إلى باريس في الوقت  
المناسب قبل المزاد العلني . . ولكنني في الواقع لم أصل إلا هذا  
الصباح . . ولما كنت مصمماً على الحصول على شيء من  
مخلفاتها . . فإنتي أسرعت إلى الدلاك وطلبت إليه أن يسمح لي  
بالاطلاع على قائمة الأشياء التي يبيعت وأسماء الأشخاص التي  
ابتاعوها . . ووجدت أنك الذي اشتريت هذا الكتاب . فقررت أن  
أرجوك في النزول عن لي . . وإن يكن الثمن الذي دفعته قد أوقع  
في روعي أنك لا بد تعلق على الكتاب أهمية شخصية قد يتمتع



- وما قولك حقاً في الكلمات التي كتبتها في الصفحة الأولى؟

- إنني فهمت لأول وهلة أنك لمست في تلك الفتاة التعمسة ما يرقى بها فوق مستوى طبقتها .. ولم يخطر ببالي قط أنك قصدت بهذه العبارة شيئاً من الهزاء والسخرية بها .

- أصبت يا سيدي .. هو ذاك .. فقد كانت هذه الفتاة ملاكاً كريماً .. إليك هذه الرسالة فاقراها .

وقدم إليّ رسالة تدل أطرافها على أنها نشرت وطويت آلاف المرات .. فبسطت الرسالة بين يدي .. وقرأت فيها ما يلي :

«عزيزي أرمان .

«تسلمت رسالتك .. وأحمد الله على أنك لا تزال كريماً كمهدي بك من اهتمامك بأمرى .. يرقه كثيراً من آلامي .. ولكم أود لو يمتد بي الأجل حتى أسعد مرة أخرى بضغط اليد الكريمة التي كتبت الرسالة التي تسلمتها في الترو واللحظة .. وكتبتها بلغة تكفي في ذاتها لشغاتي .. إن كان لعلتي دواء يشفيها .

«ولكن لا أمل لي في لقائك مرة أخرى .. لأنني أقرب ما أكون إلى حتفي .. وبينك وبينك مئات المراحل .

«يا صديقي المسكين .. إن مرغريت التي عرفتها في ما مضى قد تبدلت تبدلاً محزناً .. وربما كان من الخير ألا تراها أبداً .. فذلك أفضل من أن تراها كما هي عليه الآن .

«تسألني أن أصفح عنك .. وإني لأصفح عن طيب خاطر .. فإنّ ما أصابني من عسفك لم يكن إلاّ دليلاً على فرط حبك .

«إنني ألزم الغراش منذ شهر .. وأستقطع بعض الوقت في كل يوم على كتابة يومياتي منذ افترقا، وسأواصل الكتابة حتى أعجز

عن حمل القلم .

«فإذا كان يهمنك أمري حقاً يا أرمان ، فاقصد إلى جوليا دينيار عقب عودتك إلى باريس .. فتقدّم إليك هذه اليوميات ومنها تعلم سرّ تحوّلتي عنك وأسبابه .

«ومتى انتهت إليك يومياتي فلا تشكرني عليها .. فإنّ كتابتها كانت تذكّرني يوماً بأهنا ساعات حياتي ، فترقه الذكرى من آلامي ، وبحسبك أن تجد فيها ما يسوغ سلوكي ، وبحسبي أنني وجدت في كتابتها ترفيحاً وسلوى .

«ولقد كنت أود أن أترك لك شيئاً من متاعي تذكّرني به .. ولكن كل أمتعتي قد حجزت .. وأصبحت لا أملك شيئاً حتى الثياب التي أرثديها .

«هل تفهمني يا صديقي؟؟

«إنني أذنو من الموت ، وأسمع وأنا طريحة الفراش وقع خطوات الرجل الذي أقامه الدائنون في بيتي لحراسة أمتعتي حتى لا يُنقل منها شيء ، وحتى لا يبقى لي شيء إذا حدث ونجوت من الموت .

«على أنّ كل ما أرجوه هو أن يرجنوا البيع قليلاً حتى يقضي الله فيّ بقضائه ..

«إنّ هؤلاء الناس لا رحمة في قلوبهم .. ولكن لا .. هذه عدالة السماء التي لا تُمهّل ولا تهمل ..

«وإذا ، لم يبق لك يا صديقي ، إلا أن تشهد البيع وتشترى بنفسك شيئاً من متاعي .. فإنني إذا خيأت لك شيئاً مهما كان تافهاً ثم اكتشف فقد لا يتردد القوم في اتهامك بالاستيلاء على شيء محجوز .

«أواه .. ما أتعن هذه الحياة التي أوشك على الخروج منها !

كم أود لو ترفق السماء فتسمح لي بأن أراك مرة أخرى قبل أن  
أموت! ولكنني أرجح أنه يتوجب عليّ الآن أن أودعك.. فعضواً يا  
صديقي إذا كنت لا أطيل الكتابة إليك.. فإن المرض هدد قواي..  
وأصابعي عاجزة عن توجيه القلم.

مرغريت جوتيه

والواقع.. أن الكلمات الأخيرة من الرسالة كانت مضطربة لا  
تكاد تقرأ..

ورددت الرسالة إلى أرمان.. ولا شك أنه كان يستعيد مضمونها  
في ذاكرته بينما كنت أقرأها.. لأنه قال وهو يستردّها:

- من ذا الذي يصدق أنّ كاتبه هذه الرسالة تنتمي إلى تلك الطبقة  
من النساء؟؟

وأمصّته مرارة الذكرى.. فنظر إلى الرسالة طويلاً.. ثم رفعها  
إلى شفّتيه.

واستطرد:

- كلّما فكّرت في أنها ماتت دون أن أراها.. وفي أنني لن أراها  
أبدأ مرة أخرى.. وكلّما فكّرت في أنها قد فعلت من أجلي أكثر مما  
تفعل الأخت من أجل أخيها.. كلّما فكّرت في ذلك شعرت بأنني  
لن أغفر لنفسي أنني تركتها تموت هكذا..

نعم.. لقد ماتت.. ماتت وهي تفكّر في.. وتكتب إليّ..  
وتردّد اسمي.. فيا لها من فتاة مسكينة!

ودفن وجهه بين يديه وبقي كذلك لحظة ثم استطرد:

- قد يعيب عليّ الناس أن أندب موت فتاة كمرغريت.. ولكن  
الناس لا يعلمون كم تألمت لأجلي.. وكم فسوتُ عليها  
فصفت.. وظلمتها فأذعنت.

كنت أظن أنني الذي يجب أن يغفر ويصفح.. أمّا الآن فأرى  
أنني لست جديراً بعفوها وصفحها.

أواه.. إنني أنزل عن عشرة أعوام من حياتي لأبكي ساعة تحت  
قدميها.

شعرت بالشفقة والعطف على هذا الشاب الذي كشف لي آلامه  
وأحزانه بهذه الصراحة.. فقلت له:

- ليس لك أقارب أو أصدقاء؟ اذهب لزيارتهم يا صديقي فقد  
يلطف لقاؤهم بعض ما بك.. أمّا أنا فلا أستطيع إلا الرثاء لك  
والإشفاق عليك لما أنت فيه.

فقال وهو ينهض واقفاً ويسير في الغرفة جيئة وذهاباً:

- صدقت.. إنني أضايك.. فمعذرة إذا كنت قد تسيت أن  
الأمي وأحزاني لا تهتمك إلا قليلاً يا سيدي.

- أنت تسيء فهم كلامي.. فما أردت منه إلا التعبير عن أسفي  
لعجزتي عن تلطيف حزنك ومواساتك.

ولكن إذا كانت صحبتي.. أو صحبة أصدقائي.. ترفقه من  
آلامك.. أو كان في استطاعتي أن أقدم إليك أية خدمة من أي  
نوع.. فثق أنه يسرني أن أفعل من أجلك ما تريد.

فأجاب بعينين حزبتين:

- إنّ الحزن المبرح يرهف الشعور ويضعف الحساسية.. فاسمح

## الفصل الخامس

انقضت فترة من الزمن لم أسمع في خلالها شيئاً عن أرمأن ..  
في حين سمعت الكثير عن مرغريت .. والواقع أنه يحدث في  
بعض الأحيان أنك لا تكاد تسمع اسم شخص لا تعرفه أو لا يهتمك  
أمره حتى تبدأ المعلومات تتجمع من تلقاء نفسها حول هذا الاسم ..  
وحتى تجد فجأة أن أصدقاءك يردّدون هذا الاسم ويتحدثون عن  
صاحبه .. وهم الذين لم يتحدثوا عنه ولم يذكروه على مسمع منك  
من قبل .. وحينئذ تدرك أنه سبق لك أن رأيت صاحب الاسم  
واجتمعت به مراراً دون أن تلاحظ ذلك .

على أن ذلك لم يكن شأني فيما يختص بمرغريت .. فقد سبق  
أن رأيت هذه الفتاة وقابلتها . غير أن اسمها طرق مسمعي مراراً منذ  
يوم بيع أثاث بيتها .. وكان في بعض الأحيان - كما حدث في  
المناسبة التي سردتها في الفصل السابق - ممزوجاً بكثير من اللوعة  
والأسى ، فشارت دهشتي .. وشعرت بفضول شديد إلى معرفة المزيد  
من أمر هذه المرأة التي خيّل إليّ أنها ليست كسائر النساء في  
طبقتها .

وكانت النتيجة أنني قابلت واحداً من أصدقائي الذين لم أتحدث  
إليهم قط عن مرغريت .. ودار بيني وبينه الحديث التالي :

- هل كنت تعرف مرغريت جوتيه؟ !

- غادة الكاميليا؟ !

- نعم هي من أقصد .

- كنت أعرفها حق المعرفة .

لي بالبقاء هنا بضع دقائق حتى تحمف دموعي .. لكيلا يقول  
الفضوليون في الطريق إنهم شاهدوا طفلاً كبيراً يبكي .

لقد أديت لي خدمة جلييلة بإعطائي هذا الكتاب .. ولست أعرف  
كيف أستطيع أن أعبر لك عن خالص شكري وامتناني .  
فأجبت :

- بل تستطيع ذلك ، بأن تشرّفني بصدقتك وتحديثني بأسباب  
حزنك والملك .. فالإنسان يجد كثيراً من العزاء في البوح بالآلامه  
ومتاعبه .

قال :

- هذا صحيح .. ولكني الآن متعب خائر القوى .. وأخشى ألا  
تسمع مني كلاماً مفهوماً .. على أنك ستعرف قصتي في أحد  
الأيام .. وترى إن كان يحق لي أن أحزن على تلك الفتاة المسكينة .  
أمّا الآن .. فأرجوك أن تقول لي إنني لم أثقل عليك .. وإنك  
تسمح لي بزيارتك مرة ثانية .

قال ذلك وفي عينيه نظرة رقيقة حبيته إليّ .

ثم تلبّدت عيناه بسحب الدموع وأشاح بوجهه .

قلت له بصوت خافت :

- تشجّع يا صديقي .. وخفّف عنك .

فودّعني ومشى إلى الباب .. وانسلّ منه على عجل .

وحركت ستار نافذتي .. ونظرت إلى الشارع .. فرأيت يثب إلى  
مركبة كانت في انتظاره .. وما كادت المركبة تتحرك به .. حتى دفن  
وجهه في منديله .. وانفجر باكياً .

وكانت عبارة «حق المعرفة» تقترون دائماً بابتساماة لا يخفى مغزاها ..

- حسناً .. وماذا تعرف عنها؟

- كانت من بنات الهوى

- هل هذا كل ما تعرفه؟!

- يا إلهي .. نعم .. وأعرف كذلك أنها تختلف عن مشيلاتها بخفة روحها وشدّة حساسيتها .

- ألا تعرف عنها شيئاً تختصّ به عن غيرها؟؟

- نعم .. أعرف أنها كانت سبباً في إفلاس البارون دي جـ ... فقط؟!

- وكانت عشيقه شيخ هرم هو الدوق دي بـ ...

- هل كانت عشيقته حقاً؟

- قيل هذا .. ومهما يكن من أمر فقد نفحها مبالغ جسيمة .

وهكذا لم أكن أسمع دائماً غير الحقايق المطلقة بصفة خاصة ..

والمعلومات الشائعة التي تلوكمها الألسن عن المستهترات بصفة عامة .

بيد أنني كنت أتوق إلى معرفة شيء محقق عن الفصلة بين مرغريت

وأرمان ديغال . وذات يوم قابلت رجلاً يعرف الكثير من أمور النساء

ذوات المكانة البارزة في أوساط اللهو والعبث .. فسألته إن كان قد

عرف مرغريت جوتيه فأجاب «حق المعرفة» .

وسألته :

- من أي نوع من النساء كانت مرغريت؟؟

أجاب :

- كانت حسناء طيبة القلب .. وقد أسفنت لموتها أشد الأسف .

- هل كان لها عشيق يدعى أرمان ديغال؟

- أهو شاب طويل أشقر؟

- نعم .

- كان عشيقها حقاً .

- وماذا تعرف عن هذا الشاب؟

- أظن أن هذا الشاب قد أنفق على مرغريت كل ثروته الضئيلة

ثم اضطر إلى هجرها .. ويقال إنه كان يحبها حب جنون .

- وهي .. هل كانت تحبه؟

- الظاهر أنها كانت تعطف عليه .. ولكنك تعرف معنى العطف

عند هذا الطراز من النساء .

- وماذا صار إليه أمر أرمان؟

- لا أعلم بالضبط .. فقد كانت معرفتي به محدودة .. واعتقد

أنه قضى مع مرغريت خمسة أو ستة شهور في الضواحي ..

ولكنهما افترقا عندما عادت إلى باريس .

- ألم تره منذ ذلك العهد؟

- كلاً .

وأنا بدوري لم أر هذا الشاب بعد زيارته لي .. فقلت لنفسي إنه

جاء لزيارتي مباشرة بعد أن علم بنيت موت مرغريت .. أفلا يمكن أن

يكون هذا النبأ قد أحيا غرامه القديم .. وأثار بالتالي حزنه ويأسه؟!

فلما مرّت الفورة الأولى خمد غرامه وتلاشى حزنه وانمحت صورة

مرغريت من قلبه فنتسيها ونسي تيبعاً لذلك وعده بأن يأتي لزيارتي

مرة ثانية!؟

كان هذا الافتراض محتملاً بصفة عامة .. ولكني لم أستطع أن أنكر أنني لمست في حزنه شيئاً كثيراً من الإخلاص والصدق .. حتى خطر لي أن يأسه وحزنه ربما انقلبا إلى مرض .. وأن انقطاع أخباره ربما كان دليلاً على شدة مرضه .. أو هلاكه .

وشعرت على الرغم مني بأن أمر هذا الشاب يهمني .. ولعله اهتمام لا يخلو من الخشعية والفضول إلى معرفة سرّ صمته واختفائه .

وأخيراً .. ولعماً لم يأت أرمان ديفال لزيارتي .. قرّرت أن أذهب أنا لزيارته .. ولم يكن من المتعذر عليّ التماس سبب لهذه الزيارة .. ولكن من سوء حظي أنني لم أكن أعرف عنوانه ولم أجد بين أصدقائي من يرشدني إلى مكان إقامته .

قصدت إلى بيت مرغريت في شارع دانتان .. فقد يعرف بواب البيت هناك عنوان أرمان .. ولكني وجدت هناك بواباً جديداً لم يسمع قط باسم أرمان ديفال .

واستفسرت عن المكان الذي يوجد فيه قبر مرغريت .. فعلمت أنها دفنت في مونغارتر .

كنا وقتئذ في شهر نيسان/ أبريل .. والجو بديع .. وقد خلعت المقابر عنها وحشة الشتاء .. وصار الدفء يغري الأحياء بزيارة الأموات . فقصدت إلى مدافن مونغارتر وأنا مقتنع بأن نظرة واحدة إلى قبر مرغريت تكفي للدلالة على مبلغ أسى أرمان .. لأنني قد أعرف من حارس المقبرة ما صار إليه أمر هذا الشاب .

ودخلت غرفة الحارس وسألته عما إذا كانت فتاة تدعى مرغريت

جوتيبه قد دفنت في تلك المقبرة في يوم ٢٢ شباط/ فبراير .. فبحث الحارس في دفتر كبير يتضمن أسماء أولئك الذين انتهى بهم المطاف إلى مدافن مونغارتر .. ثم أجابني بأن هناك حقاً صبية بهذا الاسم قد ووريت الثرى في مونغارتر في ذلك اليوم .

ورجوته أن يرشدني إلى قبرها .. لأن الإنسان لا يستطيع بغير دليل أن يعرف طريقه في مدينة الموتى .. وإن تكن لها مسالك وشوارع كمدن الأحياء .

دعا الحارس بستاني المدفن .. وذكر له مكان القبر .. وأمره أن يذهب بي إليه ..

قال البستاني وهو يرافقني :

- ليس أسهل من الاهتداء إلى هذا القبر ..  
- لماذا؟

- لأنه مزين بأزهار تختلف عن أزهار سائر القبور .

- لعلك أنت الذي تعنى بأزهاره؟

- نعم يا سيدي .. وكم أود أن يعنى الناس بموتاهم كما يعنى الشاب الذي عهد إليّ العناية بهذا القبر .

وبعد أن اجتاز بي بعض المسالك .. وقف وقال :

- هو ذا القبر يا سيدي .

ورأيت أمامي تلاً من الزهور البيضاء لا يظنه الإنسان قبراً لولا الشاهد الرخامي الذي يحمل اسم صاحبة القبر .

كانت جميع الزهور من نوع الكاميليا .

قال البستاني :

- ما قولك في هذه الزهور؟

- هذا بديع حقاً .

- وقد صدرت إليّ الأوامر بأن أستبدل زهور الكاميليا بسواها كلما ذبلت . .

- ومن ذا الذي أصدر إليك هذه الأوامر؟

- شاب بكى بكاء مرأً عندما جاء إلى هنا لأول مرة . . ولعله كان من عشاق صاحبة القبر . . فقد قبل لي إنها كانت من بنات الهوى . . وكانت علي جانب عظيم من الجمال والفتنة .

هل كنت تعرفها يا سيدي؟

- نعم . .

- هل كانت لك بها صلة مثل صلة ذلك الشاب؟

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى .

أجبت :

- كلاً . . إنني لم أتحدث إليها قط .

- ومع ذلك تزور قبرها؟ ! ذلك منك غاية الكرم ونبل الخلق . .

فإن زائري قبر هذه المخلوقة المسكينة لا يملأون المدفن !

- هل تعني أن أحداً لا يزور هذا القبر؟

- لا أحد غير ذلك الشاب الذي حدثتك عنه ! وقد زاره مرة

واحدة لا غير .

- مرة واحدة فقط؟ !

- مرة واحدة فقط .

- ألم يأت بعد ذلك؟ !

- كلاً . . ولكنني واثق أنه سيأتي متى عاد .

- لقد سافر إذاً؟ ! هل تعلم إلى أين ذهب؟

- أعتقد أنه ذهب لزيارة شقيقة الأنتة مرغريت جوتيه .

- ولماذا بحق السماء؟ !

- ليرجوها أن ترخص له في إخراج الجثة ونقلها من هذا القبر .

- ولماذا يريد أن يفعل ذلك؟ !

- آه . . أنت تعلم يا سيدي أن للناس في الموتى عقائد عجيبة

غريبة . . ونحن هنا نشهد ذلك كل يوم . . وهذا القبر هنا استؤجر

لمدة خمسة أعوام فقط . . ولكن الشاب الذي حدثتك عنه يريد

لصاحبه قبراً يخلد فيه جثمانها . . ويريد أن يكون القبر في مكان

فسيح بالمدفن الجديد .

- أي مدفن جديد تعني؟

- ذاك الذي يُبنى الآن لصق هذا المدفن . . أضف إلى ذلك أن

لبعض الناس عقائد شاذة تحفز مثل هذا الشاب إلى نقل جثمان

صاحبه من هذا المكان .

- ماذا تعني؟ !

- أعني أن بعض الناس لا يتركون صلفهم وكبرياءهم بيباب

المدفن . . ولعلك تعلم أن هذه الأنتة مرغريت جوتيه كانت من

أولئك النسوة اللاتي يعشن عيشة سريعة . . ويفترفن أكبر قدر من

لذات الحياة في أقل فترة من الوقت . . والآن ، ها قد ماتت هذه

المسكينة . . ولم يبق منها غير ما بقي من سواها ممن لا تتألم الأنتة

بالقيل والقال . . ولكن بعض الناس بل أكثر الناس يرمون بوجود

جدنهما بمقبرة من موتاهم . . ويقولون إن من عاش عيشتها يجب أن

يدفن بمقبرة خاصة . . بعيداً عن مقابر الشرفاء . فهل سمعت في

حياتك بمثل هذا يا سيدي؟ ! غير أنني ألقى عليهم درساً لن

ينسوه .. أولئك المنافقون الذين يسجلون على قبور موتاهم دموعاً لم يذرفوها .. ويزعمون العطف على موتاهم وهم لا يزورون قبورهم إلا مرة واحدة في كل عام .

صدقني يا سيدي أنني لم أعرف هذه الفتاة .. ولا أعرف ماذا فعلت في حياتها .. ولكنني مع ذلك أحبها وأعطف عليها وأعني بقبورها وأجلب لها أبداع زهور الكاميليا بأقل ثمن ممكن .

إن قبرها أحب القبور إليّ .. ونحن خدام المدافن مرغمون على أن نحب الموتى لأنهم يملأون فراغنا .. وليس لدينا متسع من الوقت لكي نحب أحداً آخر .

وأحسب أنني لست بحاجة إلى وصف الشعور الذي كان يعتمل في نفسي وأنا أصغي إلى حديث هذا البستاني المحبّ الأمين .. ولا شك أن الرجل لاحظ انفعالي لأنه مضى يقول :

- يقولون إن كثيرين من الشباب جلبوا على أنفسهم العار والدمار من أجل هذه الفتاة ، وإن بعض عشاقها كانوا يحبونها حب جنون ، ولكنني لا أتمالك من الشعور بالأسى والإشفاق كلما فكرت في أن أحداً من هؤلاء العشاق الكثيرين لم يأت لزيارتها .. أو ليضع على قبرها زهرة واحدة !

ولكن لا .. إنها ليست بحاجة إلى الشفقة والثناء من أحد .. بحسبها ذلك الشاب ، فإن حزنه عليها يزيد على حزن سائر عشاقها مجتمعين ، وأجدر منها بالشفقة والثناء فتيات على شاكلتها وفي مثل سنّها يُلقين هنا في المقبرة العامة مع المجهولين والمجرمين ولا يفكر فيهنّ إنسان بعد دفنهنّ .

لبي مهنتنا ليست من المهن السارة يا سيدي .. ولا سيما لرجل مثلي يعرف معنى الحنان .

إن لي ابنة حسناء في العشرين من عمرها .. وكلّما جيء بفتاة ميتة في مثل سنّها كلّما انصرف ذهني إلى ابنتي وحزنت على الميتة مهما تكن مكائنتها في المجتمع .

وصمت الرجل لحظة ثم استطرد :

- أرى أنّي أدخلت السأم على نفسك يا سيدي .. فإنك لم تأت بغير شك لكي تصغي إلى حديث رجل مثلي .

لقد طلب إليّ أن أرشدك إلى قبر الأيسة مرغريت جوتيه .. ها هوذا القبر .. فهل أستطيع أن أقدم إليك خدمة أخرى؟ فسألته :

- هل تعرف عنوان السيد أرمان ديفال الشاب الذي زار قبر مرغريت؟

- نعم يا سيدي .. إنني أعرف بيته .. أو على الأقل البيت الذي أذهب إليه للحصول على ثمن هذه الزهور التي تراها .

وذكر لي العنوان فشكرته .. وألقيت نظرة أخيرة على ذلك القبر الصغير المغطى بالزهور البيضاء .. ووددت لو أستطيع أن أنفذ ببصري إلى أعماقه لأرى ماذا فعل القبر البارد بالخلوقة الحسنة التي أودعت جوفه .

سألني البستاني :

- هل يرغب سيدي في مقابلة أرمان ديفال؟

- نعم .

- لكنني واثق أنه لم يعد .. ولو عاد لبادر إلى مقابلتي .

- أنت مقتنع إذاً بأنه لم ينس مرغريت؟ !

- إنني لست مقتنعاً فحسب .. بل إنني واثق كذلك من أنه لا يريد تغيير مكان قبرها إلا لأنه يريد أن يراها للمرة الأخيرة .  
- وكيف ذلك؟!

- لقد كانت أول عبارة قالها لي عندما دخل هذا المدفن أنه سألني «كيف أستطيع أن أراها مرة أخرى؟!» والإنسان يا سيدي لا يستطيع أن يرى الميت بعد دفنه إلا إذا نقل جثته من قبر إلى آخر .. وقد قلت له ذلك .. وأرشدته إلى ما يجب عمله .. ولمّا كان من الضروري التحقق من الجثة قبل نقلها ، وكان لأسرة الميت وحدها حق المطالبة بنقل جثته ، فقد قصد السيد ديفال شقيقة الأكنة مرغريت جوتيه لكي يحصل منها على الترخيص اللازم .. ويرجوها أن تنبيه عنها في الإشراف على نقل الجثة .. ومتى تم له ذلك فإن أول شيء يفعله دون شك هو أن يأتي إلى هنا .

بلغنا في هذه اللحظة باب المدفن .. فكررت شكري للبستاني ونفحته قطعة من النقود وقصدت إلى العنوان الذي ذكره لي .

هناك علمت أن أرمان لم يعد من رحلته بعد . فتركت له بطاقة رجوته فيها ألا يتخلف عن زيارتي عند عودته .. أو أن يذكر لي على الأقل أين أستطيع مقابله ..

وبعد يومين تسلّمت رسالة منه يبنّيني فيها بعودته .. ويرجوني أن أذهب لزيارته لأنه متعب إلى أقصى حد .. ولا يقوى على مغادرة فراشه .

## الفصل السادس

وجدت أرمان كما ذكر لي في فراشه .. فبسط يده إليّ

مصافحاً .. وشعرت بيده تكاد تلتهب .  
قلت له :

- أنت محموم يا صديقي !

فأجاب :

- ليس بي من شيء .. إلا التعب جرّاء رحلتي السريعة .

- هل قابلت أخت مرغريت؟

- نعم .. ولكن من أتباك بذلك؟

- إنني أعلم .. وهل حصلت منها على الترخيص المطلوب؟

- نعم .. ولكن أسألك مرة أخرى : من ذا الذي أتباك بأمر

رحلتي والغرض منها؟

- بستاني المدفن .

- هل رأيت القبر؟

فلم أجسر على الإجابة .

كانت نبرات صوته تدل على أنه لا يزال نُهبة الحزن الذي رأيت أعراضه عندما قابلته أول مرة .. فكل حديث في هذا الموضوع الحزن من شأنه أن يزيد ألمه ووجده .. لذلك فنعت بأن أحثت رأسي علامة الإيجاب .

سألني :

- هل اعتنى البستاني بالقبر؟

- كل العناية .

وهنا اتحدت على خده دمعتان كبيرتان .. فأشاح بوجهه ليخفيهما .. وتظاهرت من ناحيتي بأنني لم أر دمه .. وحاولت أن أغتير مجرى الحديث .. قلت :



- لقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ رحيلك .

فأجاب :

- نعم ثلاثة أسابيع كاملة .

- هل كانت الرحلة طويلة؟

- أنا لم أفض الوقت كله في السفر .. فقد أقعدتني المرض  
أسبوعين .. ولولا ذلك لعدت منذ وقت طويل .. ولكنني في الواقع  
ما كدت أصل إلى نهاية الرحلة حتى انتابتنني الحمى فلزمت فراشي .

- وقلقت راجعاً قبل أن تبلّ من مرضك؟!!

- لو أنني مكثت أسبوعاً آخر في ذلك المكان لهلكت دون شك .

- أما وقد عدت الآن فيجب أن تُعنى بنفسك كل العناية .

- بل سأبرح الفراش بعد ساعتين .

- تلك هي الحماقة بعينها .

- لا بد أن أفعل ذلك .

- وماذا يرغموك؟!!

- يجب أن أقابل ضابط الشرطة للاتفاق على موعد نقل الجثة .

- ولماذا لا تتدب شخصاً آخر في هذه المهمة التي قد تضاعف

مرضك؟

- هذه المهمة هي الشفاء الوحيد لسقمي .. إنني أريد أن أراها ..

ويجب أن أراها ..

منذ وصل إليّ نبأ موتها .. أو على الأصح .. منذ رأيت قبرها ..

وأنا لا يغمض لي جفن .. ولا أستطيع أن أصدق أن هذه الصبية

التي تركتها مملكة جمالاً ونشاطاً قد ماتت . يجب أن أراها لأتحقق

بنفسي .. ويجب أن أرى كيف أصبحت هذه مخلوقة الحسنة التي

أحببتها بكل كياني .. فلعلّ هول منظرها يرفه من آلام الذكرى .

سترافقني .. أليس كذلك؟ أعني إن لم يكن في ذلك ما

يشمك .

- وماذا قالت أختها؟

- لا شيء .. فقط أدهشها كثيراً أن يهتم غريب مثلي بشراء قطعة

أرض وبناء قبر لمرغريت .. ولكنها أمدتني بالترخيص الذي طلبته

بغير تردد .

- أصغ إلي يا صديقي .. إنني أنصح لك بتأجيل نقل الجثة إلى

أنت تبرا من سقمك وتسترّد عافيتك .

- صدقتني أنني سأتمكن من إنفاذ هذه المهمة إلى النهاية .. بل

إنني قد أجن إن لم أفرغ منها بأسرع ما يمكن .. وقد قلت لك إنني

لن أهدأ بالاً وأطمئن نفساً حتى أرى مرغريت .. وربما كانت هذه

الرغبة وليدة الحمى التي تسري في عروقي .. أو ضرباً من الجنون

والهذيان .. ولكنني مصمم على تحقيقها مهما كانت الأعباء .

فقلت :

- إنني أفهم شعورك .. وسأضع نفسي في خدمتك .. هل قابلت

جوليا ديبار؟

- نعم .. قابلتها بعد عودتي .

- وهل أعطتك يوميات مرغريت؟

- نعم .. ها هي ..

وأخرج من تحت وسادته حزمة من الأوراق .. ثم ردها إلي

مكانها في الحال وهو يقول :

- لقد حفظت محتويات هذه الأوراق عن ظهر قلب .. لأنني

قرأتها عشر مرات في كل يوم من أيام الأسابيع الثلاثة الأخيرة . .  
وستقرأها أنت كذلك . . ولكن فيما بعد . . عندما أسترده هديتي  
وسكيتي . . ويصبح في مقدوري أن أوضح لك ما تضمنته من حب  
والم . أما الآن . . فإنني أسألك أن تسدي إليّ خدمة .

- أفصح عما تريد .

- هل مركبتك في انتظارك؟

- نعم . .

- هل لك إذاً في أن تأخذ جواز سفري وتنطلق به إلى مكتب  
البريد لتأنيبي بما قد يكون لي فيه من رسائل؟ لقد كنت أنتظر رسائل  
من أبي وأختي . . ولكنني رحلت عن باريس فجأة كما تعلم قبل أن  
أستفسر عن هذه الرسائل . .

ومتى عدت من مهمتك ذهبنا سوياً إلى مركز الشرطة لتتفق مع  
الضابط على موعد نقل اللجنة غداً .

قال ذلك وقدم لي جواز سفره . . فانطلقت به إلى مركز البريد  
في شارع جان جاك روسو . . وهناك وجدت رسالتين باسمه  
فحملتهما إليه .

ولمّا عدت وجدته قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج .

قال وهو يتناول الرسالتين من يدي :

- إنني عاجز عن شكرك .

ونظر إلى الرسالتين وأردف :

- نعم . . إنهما من أبي وأختي . . ولا بد أن يكون صمتي قد  
أدهشهما وأقلقهما .

وفضّ الرسالتين . . وألقى عليهما لمحة سريعة . . ألمّ فيها بالقليل

من مضمونهما . . ثم طواهما وقال :

- دعنا نذهب . . سأرد على هاتين الرسالتين غداً .

وقصدنا إلى مركز الشرطة . . ووضع أرمان بين يدي الضابط  
التفويض الذي حصل عليه من شقيقة مرغريت .

وأعطاه الضابط بدوره رسالة إلى حارس المقبرة . . وتم الاتفاق  
على أن يكون نقل الجثة في الساعة العاشرة من صباح اليوم  
التالي . . وطلب إليّ أرمان أن أقابله قبل هذا الموعد لكي أرافقه إلى  
المدفن .

\*

أعترف بأنني أمضيت تلك الليلة يتنازعي الفضول والقلق . .  
ونفاد الصبر . . فلم أنم إلا شطراً قليلاً . . وقياساً على ما أصابني من  
الأرق والانفعال لا بد أن تكون تلك الليلة من أطول الليالي التي  
مرّت بأرمان .

ولمّا ذهبت إلى أرمان في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي  
وجدته شاحب الوجه شحوباً مخيفاً . . ولكنّه كان بادي الهدوء  
والسكينة . . فابتسم لي وشدّ على يدي بحرارة . .

وحانت مني التفاتة فرأيت أثر الشموع الذائبة المحترقة . . فأدرت  
أن الشاب لم يغمض له جفن طوال الليل .

وقبل أن ننصرف أرسل أرمان خادمه إلى صندوق البريد برسالة  
طويلة إلى أبيه . . ضمنها ولا شك خواطره وتأملاته والانفعالات التي  
عصفت بكياته في تلك الليلة المسهدة الطويلة في باريس .

ويعد نصف ساعة . . كنّا في مونغارتر .

هناك وجدنا ضابط البوليس في انتظارنا . . فمشينا ببطء إلى قبر

مرغريت .. والضابط في المقدمة ونحن في أثره .

كنت أتأبط ساعد أرمان .. فشعرت به يرتجف بشدة من وقت إلى آخر . ولما نظرت إليه في قلق .. فهمت مئزى نظراتي .. وابتسم لي مطمئناً ..

ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة .

وقبل أن نصل إلى القبر تمهل أرمان قليلاً .. ومرّ بمنديله على وجهه .. وعندئذ فقط رأيت العرق يتصبّب على جبينه غزيراً ..  
وانتهزت هذه الفرصة وتنفّست ملء رثتي .. فقد خيّل إليّ بدوري كأنّ أصابع حديدية تضغط قلبي ..  
وإني لأعجب حقاً .. عن أية عاطفة يصدر الفضول الذي يشعر به الإنسان إلى رؤية أمثال هذه المشاهد .

عندما وصلنا إلى القبر .. كان البستاني قد رفع أواني الزهور ..  
وأزال حاجز القضبان الحديدية التي تحيط بالقبر .. وشرع اثنان من الرجال في حفر التربة .

واستند أرمان إلى إحدى الأشجار .. وراح ينظر أمامه .. وخيّل إليّ أن روحه تطل من عينيه ..

وفجأة .. ارتطم معول أحد الرجلين بحجر .. وسمع أرمان صوت الارتطام فانتفض كأنه مس سلكاً مشحوناً بالكهرباء ..  
وضغط على ساعدي بقوة ألتني ..

وأخذ الرجلان في إزالة الأحجار التي تغطي التابوت .

وهنا اعترف أنني لم أحول بصري عن أرمان .. فقد خفت في

هذه اللحظة أن يغلبه الانفعال الذي ظل يغالبه حتى ذلك الوقت ..  
ولكنه ظل ينظر نحو القبر بعينين واسعتين ثابتتين لا تتحركان في محجريهما كأنهما عينتا مجنون .. ولم أر من دلائل انفعاله وآلامه غير رجفة بسيطة هزّت شفثيه الرقيقتين .

أما أنا .. فلا أقول عن نفسي إلا كلمة واحدة : هي أنني وددت في تلك اللحظة لو أنني لم أحضر ..

وما إن أزيلت الأحجار عن التابوت حتى قال الضابط لأحد الرجلين :  
- افتح التابوت .

كان التابوت مصنوعاً من خشب السنديان .. فشرع الرجلان في رفع غطاءه .. وكان الصدأ قد علا المسامير بفعل الرطوبة .. فوجد الرجلان عناء شديداً في انتزاعها من مكانها .

ورفع الغطاء .. وانبعثت من التابوت رائحة ننته رغم أريج الأعشاب العطرية التي أحيطت بها الجثة ..  
وغمغم أرمان وقد اشتدّ شحوبه :  
- يا إلهي .. يا إلهي .

وانقبض الحاضرون جميعاً .. فقد كان الكفن الأبيض الرقيق يكشف أكثر تقاطيع الجثة .. وقد تطرّق العطب والتلف إلى أحد أطراف هذا الكفن فأطلّت منه قدما الميتة .

خارت قواي أمام هذا المنظر .. ولا أزال حتى الساعة أرتجف فزعاً وذعراً كلما تذكرت تفاصيله الخفيفة .

وصاح الضابط بالرجلين :

- أسرعاً .

فمدُّ أحد الرجلين يده ورفع طرف الكفن .. وكشف عن وجه الميتة المسجاة .

كان منظرًا يهول الإنسان أن يراه .. ويهوله أن يصفه ..

لم يبق من العينين غير تقيين فارغين .. واختفت الشفتان .. وبرزت الأسنان البيضاء بروزاً مخيفاً .. وأسذلت خصل الشعر على عظام الفكين فأخفت بعضها .. وعلى الرغم من كل ذلك .. فإنني تبينت في تلك العظام النخرة أثر تكوين ذلك الوجه الوردى الجميل الذي طالما أعجبت به .



ورفع أرمان منديله إلى فمه .. وراح يقضمه .. دون أن يقوى على تحويل عينيه عن ذلك المنظر المخيف .

أما أنا فقد خيل إليّ كأن كلابيب من فولاذ تضغط جبهتي .. وأن سحابة قاتمة تظلل عيني .. ودويًا صاحباً يكاد يصم أذني .. وكل ما استطعته في تلك الحالة أنني وضعت على أنفي قنينة صغيرة تحتوي على مادة منعشة كنت حملتها معي ..

وفي أثناء هذه الغيبوبة السريعة التي عبرت بي سمعت ضابط الشرطة يسأل أرمان :

- هل تحققت من أن هذه هي الجثة التي تريد نقلها؟

فأجاب الشاب بصوت هامس لا يكاد يسمع :

- نعم .

فقال الضابط للرجلين :

- إذا فأغلقا التابوت .. وانقلاه من هذه الحفرة ..

فأسدل الرجلان الكفن على وجه الميتة .. وأغلقا التابوت .. وحملاه إلى المكان الجديد الذي سيدفن فيه .

لم يتحرك أرمان من مكانه .. ولم تتحرك عيناه عن القبر الفارغ . كان أشد امتقاعاً من الجثة التي رآها في التو واللحظة .. وكان الرعب قد شلّ حركته .. وأمسك أنفاسه ..

وتوقّعت ما سوف يحدث متى بلغ انفعاله غايته فاقتربت من الضابط وسألته :

- هل لا يزال وجود الشاب ضرورياً؟

فأجاب :

- كلاً .. وإني أنصح لك أن تذهب به .. فإن حالته على ما أرى ليست على ما يرام .

فقلت وأنا أتأبط ساعد أرمان :

- هيا بنا ..

- فهتف وهو يحملني في وجهي كأنه لا يعرفني :

- ماذا؟!

قلت :

- لقد انتهى كل شيء .. ويجب أن تعود إلى منزلك يا صديقي فإنك تمتنع الوجه مثلج الأطراف .. وستقتل نفسك إذا استمررت هذه الانفعالات العنيفة !!

فأجاب بلهجة آلية :

- صدقت .. هيا بنا ..

ولكنه لم يتزحزح من مكانه فأمسكت بساعده واجتذبتني معي . وسمح لي أن أقتاده كما يقاد الطفل .. وهو يغمغم بين القينة

والفينة كمن يتحدث إلى نفسه :

- هل رأيت تينك العينين؟

ثم أشاح بوجهه .. كأنما ليطرد عن ناظره ذلك المشهد المغيث .

وأبطأ في مشيته تدريجاً .. واصطلكت أسنانه .. وعثرته هزة عصبية اضطرب لها كل جسده .

تحدثت إليه ولكنه لم يجب .. وكل ما فعله أنه سمح لي أن أقتاده بعيداً عن القبر .

كانت المركبة تنتظرنا بباب المدفن .. وقد وصلنا إليها في الوقت المناسب .. لأنني ما كدت أجلسه فيها حتى اشتد ارتجاجه .. ولعله أشفق عليّ من الانزعاج فغمغم وهو يضغط على يدي :

- ليس بي من شيء .. ليس بي من شيء .. فقط أود لو أستطيع البكاء .

ورأيت صدره يعلو ويهبط بعنف .. واحمررت عيناه .. ولكن دموعه أبت أن تنهمر .

مضت المركبة قدماً ووصلنا أخيراً إلى بيته وهو لا يزال يرتجف بعنف .. فاستعنت بخادمه على نقله إلى فراشه .. وأمرته أن يشعل النار في الموقد ثم انطلقت في البحث عن طبيب .. وسردت على الطبيب في أثناء الطريق ما حدث في المدفن .

ولسماً عدت إلى أرمان وجدته محتقن الوجه .. وهو يهذي بكلام غير مفهوم .. تبيّنت فيه مراراً اسم مرغريت .  
سألت الطبيب بعد أن فرغ من فحصه .

- ماذا وجدت؟

فأجاب :

- لقد أصيب بحمى مخيئة ... وهذا من حسن حظك .. ولولا ذلك لفقد عقله .. أما الآن فإنّ المرض الجشmani سوف يستأصل المرض العقلي ولا ينقضي شهر حتى يبرأ من الداهين معاً .

### الفصل السابع

لهذه الأمراض الشبيهة بمرض أرمان فضيلة واحدة .. وهي أنها تقتل بسرعة .. أو تمر بسرعة .. فهي لا تمهل .. ولا تتمهل .

وهكذا لم يمض أسبوعان على الحوادث التي سردتها .. حتى كان أرمان قد دخل في دور النقاهة .. وحتى كانت عرى الصداقة قد توثقت بيني وبينه .

ذلك لأنني لم أبرح غرفته طيلة فترة مرضه .

وكان الربيع قد بدأ يخطر بأوراقه وزهوره .. وغرفة صديقي تطل على حديقة بديعة .. ترفل في الورود والزهور .. وتبعث إلينا عيبرها الزكي .. وشذاها العطر .

وقد سمح الطبيب لأرمان بالجلوس .. فأخذنا نقضي أكثر أوقات الدفء في تجاذب أطراف الحديث بالقرب من النافذة .

وعنيت أشد العناية بالأأ أذكر اسم مرغريت في حديثي .. حتى لا يشير هذا الاسم في صدر أمان عاصفة من الحزن والألم يُخشى عليه معها من الانتكاس .. بيد أنه راح يتكلم عنها من تلقاء نفسه ..

وخيل إليّ أنه كان يجد في ذلك لذة وارتياحاً .

صار ينطق باسمها نطقاً مقروناً بأهة رقيقة . . بعد أن كان فيما مضى يرويه بدموعه . . ما طمأنني إلى استقرار قواه العقلية .

وقد لاحظت بعد زيارتنا المدفن . . وبعد المنظر الذي أحدث في نفسه تلك الأزمة العاطفية العنيفة . . أن مرضه الجشmani قد رفته من آلامه النفسانية . . وأنه شعر بنوع من العزاء والسلى بعد أن تحمق من موت مرغريت كما كان يأمل . . وأنه يحاول دائماً أن يطرد ذكرياته الحديثة الحيفة بإحياء ذكرى الماضي البعيد .

وقد رفض بإصرار أن ينسئ أسرته بالخطر الذي كان يهدد حياته . . حتى إنه أبلى من مرضه قبل أن يعلم أبوه بأنه كان مريضاً .

وذات يوم طالت جلستنا بقرب النافذة أكثر من المعتاد . .

وكان الجو بديعاً والشمس تنحدر نحو الأفق وسط شفق أزرق موشى بالذهب . . ونحن بفضل أشجار الحديقة كأننا في واد بعيد عن باريس وضجتها وصخبها . . فقال أرمان وهو منصرف إلى أفكاره وتأملاته :

- في مثل هذا الوقت من السنة وفي مساء كهذا المساء عرفت مرغريت لأول مرة .

فلم أجيء . .

ولزم هو الصمت لحظة ثم تحوّل إليّ وقال :

- يجب أن أقصّ عليك ما كان بيني وبين مرغريت . . فربما استطعت أن تسجله في قصة قد لا يصدقها أحد . . ولكنك ستجد لا شك لذة في كتابتها . .

فأجبت :

- حدثني بهذه القصة فيما بعد يا صديقي . . أمّا الآن فإن ضعفك لا يعينك على بذل هذا الجهد !

فقال وهو يتسم :

- إن الجسد دافئ . . وقد أكلت جناح دجاجة . . ولست محموماً . . وليس لدينا ما نصنعه . . فسأسرد عليك القصة .

فأجبت :

- ما دمت مصراً فعلى مهلك . . وهأنذا مصغ إليك .

قال :

- إنها قصة بسيطة . . ولكن يجب أن أسردها عليك بترتيب حوادثها . . ولك أن تصوغها في القالب الذي تريد .

وفيما يلي قصته المؤثرة كما سردها عليّ . . دون أن أغير فيها كلمة واحدة . .

قال أرمان وهو يضطجع في مقعده :

- نعم إنني عرفتها في مثل هذا المساء . .

كنت قد قضيت النهار في الضواحي مع صديق لي يدعى غاستون . . وفي المساء عدنا معاً إلى باريس . . ولم ندر ماذا نصنع فقصدت إلى مسرح «ليه فاريتيه» .

وبين الفصول . . خرجنا إلى أروقة المسرح . . وهناك مرّت بنا سيدة طويلة القامة حياها صديقي بإحناء قامته . . فسألته :

- لمن أحيت قامتك في هذه اللحظة؟! !

فأجاب :

- لمرغريت جوتييه .

فأجبت بانفعال ساذكر سببه فيما يلي :

- يُخَيَّل إلي أنها تغيّرت كثيراً .. لأنني لم أعرفها !

- لقد كانت مريضة .. مسكينة هذه الفتاة .. إنها لن تعمّر طويلاً .

وما زلت أذكر هذه الكلمات كأنها قلت لي بالأمس القريب .

قبل ذلك بعامين كنت إذا قابلت هذه الفتاة انقلبت رأساً على عقب دون أن أعرف السبب . وقد سوّغ هذه الظاهرة أحد أصدقائي الذين يزعمون معرفة العلوم الروحانية فقال إنها ضرب من الجاذبية المغنطيسية .. أما أنا فأعتقد بأنه كان مقدراً لي منذ البداية أن أقع في غرام مرغريت .. وأن هذه الظاهرة لم تكن إلا النذير .

ولا شك أن تأثيرها فيّ كان شديداً وواضحاً .. بحيث لاحظت بعض أصدقائي .. فكان مصدرراً لضحكاتهم وسخرتهم .

وقد رأيت مرغريت لأول مرة في ميدان البورصة .. إذ وقفت إحدى المركبات الفخمة بباب محل للأزياء هناك .. وهبطت منها غانية ترتدي ثوباً أبيض .. ودخلت المحل تشيعها عبارات الإعجاب من أفواه المائة الذين وقعت أبصارهم عليها .

وكنت بين الذين أبصروا بها .. فبهرتني جمالها .. وجمدت في مكاني ولم أنزحزح خطوة واحدة حتى رأيتها تخرج من المحل وتعود إلى مركبتها .

كانت ترتدي ثوباً أبيضاً كثيراً التلايف .. وتلقي على منكبيها

منديلاً من الحرير الهندي موثى بالفضة والذهب .. وتضع على رأسها قبعة عريضة من القش الإيطالي .. وتزين معصمها بسوار واحد .. صيغ في شكل سلسلة ضخمة من الذهب الخالص .. كانت هي «الموضة» الشائعة في ذلك الوقت .

وانطلقت المركبة .. فشيّعتها بصري حتى غابت .. ثم حانت مني التفاتة فرأيت أحد عمال محل الأزياء واقفاً بيباه . دنوت منه وسألته عن اسم عميلته الحسنة - فأجاب :

- إنها الأسة مرغريت جوتييه .

وأردت أن أسأله عن عنوانها .. ثم تردّدت وخجلت .. وانصرف .

ولم يتلاش هذا الحلم الجميل من مخيلتي كما تتلاشى سائر الأحلام المائلة .. فذهبت أبحث في كل مكان عن هذه السيدة البيضاء ذات الجمال الملائكي .. إلى أن ذهبت إلى مسرح «الأوبرا كوميك» في أحد الأيام .. فكان أول شخص استقر عليه بصري في إحدى المقصورات هو مرغريت جوتييه .

كان برفقتي صديق لي يدعى إرنست .. فرأها بدوره وعرفها .. وقال وهو يومي نحوها :

- انظر إلى هذه الحسنة .. إنها مرغريت جوتييه .

وفي هذه اللحظة .. حوكت مرغريت منظارها نحونا ورأت صديقي وابتسمت له .. وأشارت إليه تدعوه إلى مقصورتها .

قال :

يتبع صاحبته أنه على استعداد لأن يضحى بكل شيء لقاء قبلة واحدة يطبعها على يد الفتاة .. ويبلغ من رقة شعوره أن أحس بأن مجرد اختلاس النظرات إلى عقيب الفتاة وهي تسير أمامه وترفع طرف ثوبها اتقاء الأرواح هو فسق وانتهاك لطيهاره الفتاة .

وبينا هو يفكر في المستحيلات التي يعتزم الإقدام عليها للحصول على الفتاة .. إذ بالفتاة تقف فجأة في أحد أركان الشارع .. وما إن دنا منها حتى ابتسمت له .. ودعتة إلى غرفتها .

وعندئذ دار الفتى على عقيقه .. واجتاز الشارع .. وعاد إلى بيته كاسف البال حزينا .

تذكرت هذه القصة .. وخفت أن تنتهي تجربتي كما انتهت تجربة ذلك الشاب فتخفت مرعرت إلى الترحيب بي .. وتعطيني من نفسها في غير مجتمع ما كنت على استعداد لبذل كل تضحية في سبيله .

وذلك هو شأننا دائماً نحن الرجال .. وإنه لمن حسن الحظ أن ترقى خيالنا بمشاعرنا بهذه الصفة فتضعها فوق مستوى شهواتنا البهيمية . وفي الحق لو قال لي قائل «ستال هذه المرأة الليلة وستقتل غداً» لما ترددت في القبول .. ولو قيل لي «ادفع مائة من الفرنكات فتصبح عشيق هذه المرأة» لرفضت وحزنت كما يحزن الطفل إذ ينهار قصره الرملي الذي شيده .

ومهما يكن من الأمر فقد أردت أن أجمع بمرعرت .. وأن أتحدث إليها .. فتلك هي الوسيلة الوحيدة لاختبارها .. وتكوين

- سأذهب لتحتيتها .. وأعود في الحال .

فلم أتمالك أن قلت له :

- أنت سعيد الحظ .

- لماذا؟

- لأنك تعرفها .

- هل تحبها؟

- كلاً .. طبعاً .

- ولكنني شعرت في تلك اللحظة بالدم يصعد إلى وجهي .

كنت أود لو يقدمني إليها .. ولكنني لم أصارحه بهذه الرغبة . قال :

- تعال معي فأقدمك إليها .

- ألا يجب أن تستأذنها أولاً؟

- كلاً .. كلاً .. لا ضرورة لهذه التقاليد مع فتاة من هذا

الطراز .. هيا بنا .

ألمني هذه العبارة واللمحة التي قبلت بها .

نعم .. تألمت على الرغم مني .. فقد كان يشق عليّ أن أسمع ما يؤكد لي أن مرعرت ليست جديرة بالشعور الذي أيقظته في أعماق نفسي .

في قصة من وضع «الفونس كار» - صاحب رواية ماجدولين الشهيرة - أن البطل - وهو شاب في مقتبل العمر - تعقب ذات مساء فتاة حسناء وقع في غرامها من أول نظرة .. وخيل إلى الفتى وهو



الرأي الصحيح عنها .

ولكنني ألحقت مع ذلك على صاحبي في أن يستأذنها أولاً قبل أن أرافقه إلى مقصورتها . وأخذت أسير في ردهة المسرح جيئة وذهاباً وأعد الكلام الذي سوف أقوله في حضرتها .

فانظر إلى أي حد من سذاجة الطفولة يرتد العاشق؟؟

وعاد صديقي بعد لحظة وهو يقول :

- إنها تنتظرنا ..

فسألته :

- وهل هي وحدها؟

- إنَّ معها سيدة أخرى .

- أليس هناك رجال؟

- كلاً .

- هياً بنا إذاً .

وسار بي صديقي إلى باب المسرح .. فصحت به :

- إلى أين أنت ذاهب؟ إنَّك ضللت الطريق .

فأجاب :

- كلاً .. سأبتاع لها بعض الحلوى .. فقد طلبت إليّ ذلك .

وقصدنا إلى حانوت للحلوى في ميدان الأوبرا .. وكنت على

استعداد لشراء محتويات الحانوت كله .. ولكن صديقي اقتصر على

شراء رطل من الأعناب المحمّقة .. فسألته :

- هل أنت واثق من أنها تحب هذا النوع؟

- من المشهور عنها أنها لا تمس نوعاً آخر من الحلوى .

ثم استطرد ونحن في طريقنا إلى المسرح :

- هل تعلم إلى أية فتاة سأقدمك الليلة؟ لا تتوهم أنني سأقدمك إلى إحدى المرميزات أو الدوقات .. فما مرغريت إلا فتاة عابثة تعيش في أكتاف عشاقها .. وما أكثرهم .. فلا تحرّ بين يديها .. ولا تضطرب أو تتلثم في حضرتها .. بل قل كل ما يتبادر إلى ذهنك . فأطرقت براسي موافقاً .. وتبعته .. وأنا أقول لنفسي إنني أوشك أن أبرأ من غرامي .

ولمّا دخلنا المقصورة .. كانت مرغريت غارقة في الضحك . وكان أحبّ إليّ أن أراها واجمة حزينة .

وقدمني صديقي إليها .. فحيّني بإحناة بسيطة من رأسها وسألت :

- أين الحلوى؟

- ها هي .

وتناولت الحلوى .. ونظرت إليّ .. فغضضت بصري على الرغم مني .. وصعد الدم إلى وجهي .

واتحت مرغريت على زميلتها .. وهمست في أذنها بضع كلمات وانفجرتنا ضاحكتين .

ولا شك أنني كنت موضوع هذا الضحك .. فتضاعفت حيرتي .. وزاد اضطرابي .

وكانت لي في ذلك الوقت عشيقة .. هي فتاة في ريمان الصبا تشتغل في أحد المتاجر .. وتمتاز بركة شعورها .. وشدة حساسيتها .. وطالما أضحكنتي مشاعرها ورسائلها .. فأدركت - قياساً على شعوري - كم كانت هذه الفتاة تتألم من ضحكاني

وسخريتي .. ومررت بي بضع دقائق شعرت في خلالها بأنني أحب  
هذه الفتاة المسكينة كما لن يحب رجل امرأة ..

\*

وراحت مرغريت تأكل حلواها .. دون أن تعبرني أدنى التفات .

ولم يشأ صديقي أن يتركني في ذلك الموقف المحجل فقال :

- لا يدهشك يا مرغريت أن يقف صديقي بين يديك صامتاً  
واجماً .. فقد ملكت عليه مشاعره فأصبح لا يقوى على الكلام .

فأجابت :

- بل أكبر الظن أنه جاء برفقتك لأني خفت أن يشتمك الحضور  
بمفردك .

فقلت :

- لو صحّ ذلك ما رجوت صديقي إرنست أن يستأذنيك في  
قدومي عليك .

- فأجابت :

- لعلّ ذلك لم يكن إلا وسيلة لإرجاء سامه وملائته بعض  
الوقت .

\*

وكل إنسان يعرف القليل من أخلاق هذه الطبقة من النساء يعلم  
أنهنّ يشعرن بلذة خاصة في الهزء بالفتيان الذين يقابلونهنّ للمرة  
الأولى .. ولا شك أن ذلك نوع من الانتقام لما يلقيان من مذلة  
واحتقار على أيدي الرجال الذين يعرفونهنّ حق المعرفة .. ولذلك  
يتعيّن على الإنسان كي يوفق في إجاباته وأحاديثه معهنّ أن يعرف  
من أمورهنّ أكثر مما كنت أعرف في ذلك الوقت .

أضف إلى ذلك أنني كنت أحلّ مرغريت في مخيلتي محلاً ربيعاً  
ما ضاعف وقع سخريتها في نفسي .. فنهضت واقفاً .. وقلت  
بصوت ينم عن الامتعاض :

- إذا كان ذلك هو رأيك فيّ يا سيدتي .. فإنه لا يبقى لي إلا أن  
اعتذر عن تطلقلي .. وأنصرف في الحال ..

وأحيت قامتي وانصرفت ..

وما كدت أغلق باب المقصورة حتى دوت في أذني تهقها  
صاخبة .

وقصدت إلى مقعدي .. واستؤنف التمثيل .. فعاد إرنست إلى  
مكانه بجانبي .. وقال وهو يجلس :

- ما أعجب سلوكك ! لقد ظنت المراتان أنّ بك مساً من الجنون .

- وماذا قالت مرغريت بعد انصرافي؟

- لقد ضحكت وقالت إنها لم تر في حياتها إنساناً أعجب  
منك .. والواقع أنك تولي أولئك النسوة شرفاً لسن أهلاً له إذا

نظرت بعين الجد والأهمية إلى كل أقوالهنّ .. إنهنّ لا يعرفن معنى  
اللياقة والمعاملة .. بل إنهنّ أشبه بالكلاب التي تُفصّخ بالعمود

فتزعجها الرائحة الزكية وتتمرّع في التراب للتخلّص منها .  
فقلت متظاهراً بقلة الاكترات .

- لقد كان ما كان وانتهى الأمر ولن أراها بعد الآن .

كنت أعجب بها قبل أن أعرفها .. فلما عرفتھا استحال الإعجاب  
احتقاراً .

- ومع ذلك فلن يدهشني أن أراك في مقصورتها في أحد  
الأيام .. وأن يبلغني أنك تورد نفسك موارد الخراب والدمار من

أجلها .

إنها سينة الطباخ حقاً .. ولكنها مع ذلك امرأة يتمنى كل رجل أن يتخذها لنفسه عشيقه .

ومن حسن الحظ أن الستار رفع في تلك اللحظة وبدأ التمثيل فصمت إرنست .

ويستحيل عليّ أن أذكر شيئاً من المسرحية التي كانت تمثل .. ولكنني أذكر فقط أنني لم أكف عن التطلع بين الغيئة والغيئة إلى مقصورة مرغريت .. وأن الزائرين الذين رأيتهم يتعاقبون على هذه المقصورة كانوا كثيرين .

كان من الصعب عليّ أن أقصي مرغريت من ذهني . ولكن شعوري نحوها تبدل .. وأصبح كل همّي أن أنتقم لما نالني على يديها من هزء وسخرية .. وإن كلّفني ذلك كل ما أملك .. وأن يكون الانتقام بقهرها .. والسيطرة عليها وإذلالها .

وقبيل انتهاء التمثيل .. غادرت مرغريت وصاحبيتها مقصورتها .. فنهضت واقفاً وتأهبت للحاق بهما .

ودهش إرنست وسألني :

- هل أنت ذاهب؟

- نعم .. لماذا؟

ولاحظ في هذه اللحظة خلو مقصورة مرغريت فهتف :

- اذهب .. اذهب بحق السماء .. إنني أتمنى لك كل توفيق .

فخرجت .. وسمعت على السلم جلبة وحفيف أثواب فانتحيت ناحية .. ورأيت المرأتين تنصرفان بصحبة رجلين .. فتبعتهن عن كثب

وسمعت مرغريت تقول لأحد غلمان المسرح :

- اذهب وقل للحوذي أن يتظرنا بباب المطعم الإنجليزي فإنا سندهب إلى هناك سيراً على الأقدام .

بعد بضعة دقائق كنت أسير أمام هذا المطعم جيئة وذهاباً .. فرأيت مرغريت واقفة في مقصورة إحدى الغرف الخاصة .. وهي تهشم بأصابعها إحدى زهور الكاميليا .. ورأيت أحد الرجلين مستنداً إلى كتفها .. وهو يهمس في أذنها كلاماً ..

فقصدت إلى مقهى أمام المطعم وجلست هناك أقرب تلك المقصورة ولا أحول بصري عنها .

إلى أن كانت الساعة الواحدة صباحاً .. فخرجت مرغريت من المطعم .. وصعدت إلى مركبتها .. وتبعها رفاقها الثلاثة . فاستأجرت إحدى المركبات وانطلقت بها في أثرهم .

ووقفت المركبة أخيراً أمام المنزل رقم ٩ بشارع دانتان .. وهبطت منها مرغريت .. ودخلت المنزل بمفردها .

والعجيب أنني شعرت بارتياح عظيم عندما رأيتها تدخل المنزل بمفردها .

وقد قابلتها مراراً بعد ذلك في المسارح وحدائق الشانزليزيه . وفي كل مرة كنت أشعر بوجودها قبل أن أراها .. وفي كل مرة كنت أضطرب ظهراً لبطن .

ثم حدث أن انقضى أسبوعان لم أرها خلالهما .. ثم قابلت صديقي غاستون وسألته عن نبئها فأجاب :

## الفصل الثامن

شعرت إذاً بأنني ما زلت أحبها .. واقترن هذا الإحساس برغبة جامحة في الاتصال بها .. وذهبت أخدم نفسي فأسوّغ هذه الرغبة بأنها مجرد الانتقام .. وإظهارى لهذه الغائبة على أنني أصبحت رجلاً لا يرقى إليه هزؤها وإغراؤها . فيأله ما أغرب أساليب القلب .. وما أعجب الأعدار التي يتلمسها للوصول إلى رغباته؟!

عقبَ أن مرّت بي مرغريت وتوارت في أروقة المسرح .. قصدت توأ إلى مقعدي في الصالة وأرسلت بصري نحو الشرفات لأرى في أية مقصورة تجلس . رأيتها ...

حقاً .. كانت قد تغيّرت كثيراً فلم أعد أرى على شفيتها ابتسامتها العادية .. تلك التي تجمع بين السخرية وقلة الاكتراث ... كان من الواضح أنها عانت كثيراً .. بل ولا تزال تعاني! وعلى الرغم من أننا كنا في شهر نيسان/ أبريل .. فإنها كانت لا تزال ترتدي ثياب الشتاء .. وتضم جسمها الصغير في معطف من القليفة .

أخذت أرنو نحوها .. حتى استرعت انتباهها .. فرمقتني بنظرة فاحصة .. ثم حوكت منظارها نحوي .. وظنّت أنها عرفتي .. لأنها عندما رفعت المنظار عن عينيها .. كانت تتلاعب على شفيتها ابتسامة رقيقة .. ولكنني لم أجب هذه التحية بمثلها رغبة في التظاهر بأنني نسيت ما تذكّرتة هي .

- إن الفتاة المسكينة في أشد حالات المرض .

- وممّ تشكو؟

- إنها مريضة بذات الرئة .. ولمّا كانت طبيعة حياتها لا تساعد على شفائها .. فقد اشتدت بها العلة حتى ألزمتها الفراش .. ويقال إنّ موتها أصبح مؤكداً .

يا إلهي ما أعجب القلب ..

لقد كنت أحب الفتاة .. ومع ذلك لم أكره لها أن تموت .

وبالرغم من كل ذلك .. فإنني رحمت أتردد على بيتها كل يوم دون أن أذكر اسمي .. للاستفسار عن صحتها .. إلى أن علمت يوماً برحيلها إلى بانير .

ومرت الأسابيع والشهور .. وشغلّنتي الأسفار والمغامرات ومهام الحياة عن التفكير فيها .. وبدأت أنظر إلى ما كان بيني وبينها على أنه ضرب من الطيش ونزق الشباب .. إلى أن صادفتها - كما قلت لك - وأنا أسير مع صديقي غاستون في أروقة مسرح «ليه فاريتيه» .. وعندئذ وجدت أن غيابها عن عيني عامين كاملين لم يكن كافياً لمنع قلبي من الوثوب بين جنبي لمجرد شعوري بأنها على مقربة مني ..

وعندئذ بدا لها أنها أخطأت الظن فأشاحت بوجهها عني ..  
ورفع الستار .

كنت قد رأيت مرغريت في المسرح مراراً .. ولحظت في كل هذه  
المرات أنها لا تقيم أي وزن لما يجري على خشبة المسرح ..  
أما أنا .. فلم أعبأ كذلك بالمسرحية التي تمثل أمامي .. وانصرف  
كل اهتمامي إلى مرغريت وحدها .. ولكنني حرصت أشد الحرص  
على ألا أدعها تشعر بذلك ..

واستطعت وأنا أرقبها أن لاحظ بأنها تتبادل النظرات من وقت  
إلى آخر مع سيدة تشغل المقصورة المقابلة لمقصورتها .. فأرسلت  
بصري إلى تلك السيدة .. ووجدت أنني أعرفها حق المعرفة .

كانت هذه السيدة قد حاولت احتراف التمثيل وفشلت .. ثم  
اشتغلت بصنع الأزياء اعتماداً على صلتها الوثيقة بفتيات المسارح  
ومطارح اللهو والعبث .

وقد بدا لي في هذه الحال أن أتخذها وساطة لمقابلة مرغريت ..  
فانتهزت فرصة وقوع بصرها عليّ بطريق المصادفة وأحيت لها رأسي  
محيياً .

وحدث ما توقعت .. فإنها أومأت إليّ تدعوني إلى مقصورتها ..  
كان اسمها «برودنس دولفونوي» وهي امرأة بديئة تناهز الأربعين ..  
ومن أولئك النساء اللاتي لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الدهاء  
لحملهن على الإقضاء إليه بما يريد .. فذهبت إلى مقصورتها ..  
وانتهزت إحدى الفرص .. حين رأيتها تتبادل النظرات مع  
مرغريت .. وسألتها :

- إلى من تنظرين؟

فأجابت :

- إلى مرغريت جوتيه .

- هل تعرفينها؟

- إنني أخطط لها ثيابها .. ثم إنني جاريتها .

- إذا فأنت تقيمين بشارع دانتان؟

- نعم .. بالمنزل رقم ٧ ، وغرفة ملابس جارتي مرغريت تطل  
على غرفتي .

- يقولون إنها فتاة ظريفة .

- ألا تعرفها؟

- كلاً .. ولكنني أتوق إلى التعرف بها .

- هل تريدني أن أدعوها إلى هذه المقصورة؟

- كلاً .. إنني أفضل أن تقدميني إليها أولاً .

- في بيتها؟

- نعم ..

- هذا الأمر صعب جداً .

- لماذا؟!

- لأنها تعيش في كنف ورعاية دوق عجوز يغار عليها أشد  
الغيرة .

- تعيش في رعايته !! هذا تعبير ظريف ..

- نعم .. ولكنه ينطبق على الواقع .. فذلك العجوز المسكين يجد  
من المتعذر عليه أن يصبح عشيقها .

وهنا قصت عليّ برودنس كيف قابلت مرغريت هذا الدوق في  
باتير .. ونوع الصلة الحميمة التي قامت بينهما .

وبدأت مرغريت تتحدث إلى الدوق . . فذهبت إلى صديقي غاستون وحدثته بما أعددت له ولي . . فوافق . . وقصدنا معاً إلى مقصورة بروونس . ولكننا ما كدنا نتوسط الطريق حتى صادفتنا مرغريت وهي مستندة إلى ساعد الدوق . . فأفسحنا في الطريق لمرورهما . وشعرت في تلك اللحظة أنني على استعداد للنزول عن عامين من عمري في مقابل أن أحل محل ذلك الدوق العجوز .

بعد انتهاء الفصل . . استأجرنا مركبة ذهبت بنا إلى منزل بروونس في شارع داتان . . فلماً وصلنا دعتنا بروونس إلى الدخول لشهود ما عندها من أزياء مبتكرة كانت دون شك موضع فخرها . . ولست بحاجة إلى القول بأننا رحبنا بهذه الدعوة .

خُيِّل إليّ . . وأنا أدخل بيت بروونس . . أنني أذنو من مرغريت بخطوات سريعة ثابتة . . فشرعت في توجيه الحديث نحو الهدف الذي أرمي إليه . .

قلت محدثاً بروونس :

- أظن أن الدوق العجوز يقضي سهرته الآن مع جارتك الحسنة؟!

فأجابت :

- بل أكبر الظن أنها الآن بمفردها .

فقال غاستون :

- لا بد أن حياتها تدعو إلى السأم والضجر إذا!

فأجابت بروونس :

- إننا نقضي أكثر سهراتنا معاً . . وهي لا تكاد تعود من الخارج

وسألتها :

- إذا فهذا هو سبب وجودها في المقصورة بمفردها؟

- نعم .

- ولكن من ذا الذي سيرافقها إلى بيتها؟

- الدوق .

- إنه سيحضر لاصطحابها إذا؟

- نعم . .

- وأنت من ذا الذي سيرافقك إلى بيتك؟

- لا أحد .

- إنني أضع نفسي في خدمتك .

- ولكنني أرى معك أحد أصدقائك .

- كلانا يضع نفسه في خدمتك .

- ولكن من هو صديقك هذا؟!

- إنه شاب دمئ الخلق . . حاضر البديهة . . سوف يسره كثيراً أن

يتعرف بك .

- هذا بديع . . . اتفقنا . . ولنبرح المسرح عقب هذا الفصل .

- ليكون ذلك . . وسأذهب لإخطار صديقي .

فقلت :

- هيا اذهب . .

ثم هتفت على الأثر :

- آه . . انظر . . ها هو الدوق يدخل مقصورة مرغريت .

فنظرت . . ورأيت شيخاً في نحو السبعين من عمره يجلس خلف

الفتاة ويقدم إليها علبة حلوى . .

حتى تظل عليّ من نافذتها وتدعوني لأنها لا تستطيع النوم مبكراً .  
- لماذا؟

- لأنها مريضة بذات الصدر . . وهي دائماً تحت وطأة الحمى .  
فسألت :

- أليس لها عشاق إذاً؟

- لم ألاحظ قط أن أحد زائريها بقي في بيتها بعد انصرافي . .  
ولكنني لا أستطيع أن أعرف ما يحدث بعد أن أتركها . . وكثيراً ما  
أقابل عندها الكونت (ن) . . الذي يعتقد أنه يستطيع تحقيق أحلامه  
بزيارتها في الساعة الحادية عشرة . . وغمرها بما تريد وما لا تريد من  
الحلوى والمجوهرات . . ولكنها لا تميل إليه ولا تنيله من نفسها ما  
يريد . . وأظن أنها جد مخطئة . . لأن الكونت شاب واسع الغنى . .  
وقد قلت لها المرة تلو المرة : « هذا هو الشاب الذي يصلح لك يا  
بنتي العزيزة » . . ولكنها كانت توليني ظهرها وتقول بلهجة احتقار :  
« إنه على جانب عظيم من الغباوة » .

وإني أعترف بأنه غبي حقاً . . ولكن ما أهمية غباوته ما دام  
يستطيع بماله وجاهه أن يحلها المحل الذي تريد . . بينما هذا الدوق  
العجوز يحتمل أن يموت في أي يوم . .

إنّ الشيوخ من الرجال يمتازون دائماً بأنانيتهم . . يضاف إلى ذلك  
أنّ أسرة هذا الدوق العجوز تلومه على الدوام . . . وتعييب عليه  
صلته بمرغريت . . وهما سببان يحتمل معهما أن يترك الدوق شيئاً  
لمرغريت عند وفاته . وقد ذكرت لها كل ذلك . . فأجابتي « إن  
الكونت رهن إشارتي . . وفي استطاعتي أن أتخذة عشيقاً في أي يوم  
بعد موت الدوق » .

ومهما يكن من أمر . . فإنّ حياتها الآن تفتقر إلى كل أسباب  
اللهم والتسلية . . ولو كنت مكانها لطردت الدوق العجوز بين يوم  
وليلة .

إنّ هذا الشيخ المتصابي يدعوها ابنته . . ويعاملها كما لو كانت  
كذلك . . ويتعقبها إلى كل مكان تذهب إليه ! وإني واثقة من أن أحد  
أتباعه يجول الآن في الشارع أمام بيت مرغريت لمراقبة الخارجين . .  
أو على الأصح . . لمراقبة الداخلين .

فقال غاستون وهو يجلس إلى البيانو وينثر عليه بأصابعه :  
- مسكينة مرغريت . . لم أكن أعرف عنها كل ذلك . . وإن كنت  
قد لاحظت عليها أنها أقل فرحاً من ذي قبل .

فهتفت بروونس فجأة :

- اسكت .

فكف غاستون عن العزف .

قالت بروونس :

- أظن أنها تناديني .

فأصغينا .

كان هناك حقاً من ينادي بروونس . .

قالت بروونس :

- يجب أن تنصرفا الآن أيها السيدان الكريمان .

فأجاب غاستون ضاحكاً :

- هل هكذا تفهمين معنى الكرم وحسن الضيافة يا سيديتي؟

وقلت :

- لماذا يجب أن تنصرف الآن؟

- عندي هنا شابان يرفضان الانصراف .
- قولي لهما إنك يجب أن تخرجني لحاجة ملحة .
- لقد قلت لهما ذلك .
- حسناً .. اتركيهما .. ومتى وجدنا أنك خرجت فإنهما لا ييطان في الانصراف .
- نعم .. إنهما ينصرفان لا شك ولكن بعد أن يقلبا كل شيء هنا رأساً على عقب .
- ولكن ماذا يريدان؟
- إنهما يرغبان في مقابلتك .
- من هما؟
- إنك تعرفين أحدهما .. وهو السيد غاستون دي ر .
- آه .. نعم .. إنني أعرفه .. والثاني؟
- إنه السيد أرمان ديغال .. فهل تعرفينه؟
- كلاً .. ولكن لا بأس . جيئني بهما .. أي إنسان إلا هذا الكونت .. إنني في انتظاركم .. فتعالوا حالاً .

\*

- وأغلقت المرأتان نافذتيهما .
- لقد تذكرت مرغريت وجهي .. ولكنها لم تذكر اسمي .. وقد كنت أؤثر أن تذكرني بالامتعاض على أن تساني كلية .
- قال غاستون :
- كنت أعلم أنها سترتاح إلى مقابلتك .
- فأجابت بروندس :
- إن الارتياح لا محل له في بالها .. فهي لا تستقبلكما إلا لتطرد

- فأجابت :
- لأنني سأذهب إلى بيت مرغريت .
- سنتظر عودتك إذا .
- هذا مستحيل .
- سنذهب معك .
- هذا أسوأ وأسوأ ..
- فقال غاستون :
- إنني أعرف مرغريت .. ومن حقي أن أزورها !
- ولكن السيد ديغال لا يعرفها .
- سأقدمه إليها .
- لا .. هذا ليس ممكناً .
- وهنا سمعنا صوت مرغريت وهي تنادي مرة أخرى : «بروندس؟»
- فأسرعت هذه إلى غرفة مجاورة وفتحت نافذتها .. فتبعناها ووقفنا خلفها بحيث لا ترائنا مرغريت .
- قالت مرغريت بلهجة الغضب :
- إنني أدعوك منذ عشر دقائق !
- ماذا تريد مني؟
- أريدك أن تأتي إلي في الحال .
- لماذا؟
- لأن الكونت (ن) لا يزال هنا .. وهو يضرني حتى الموت .
- ولكني لا أستطيع الذهاب إليك الآن .
- ماذا يمكنك؟



الكونت .. فكونا أكثر منه لياقة ولطفاً .. وإلا جلبتما عليّ نعمة  
مرغريت ولومها .

•

وغادرت برودنس بيتها فتبعناها .  
كنت أرغفجف .. وقد خيّل إليّ أن سيكون لهذه الزيارة أثرها  
العميق في مستقبل حياتي .  
اضطريت أشدّ مما كنت مضطرباً يوم قدمني إليها إرنست في  
مسرح «الأوبرا كوميك» .

ودقت برودنس جرس الباب .. فوثب قلبي بعنف .  
وفتحت إحدى الخادومات الباب .. ورافقتنا إلى مخدع سيدتها ..  
وهناك رأيت شاباً معتمداً بمرفقيه على الموقد .. ورأيت مرغريت  
جالسة تداعب البيانو بأناملها .. وشعرت بالملالة والضجر اللذين  
يخيما على جو الغرفة .  
كان الشاب متضجراً لتفاهة شأنه في عين الغانية .. والغانية  
متضجرة من وجود الشاب .

وسمعت مرغريت صوت برودنس .. فنهضت من جلستها واقفة  
ورمقتها بنظرة شكر لأنها أسعفتها بالنجدة .. وقالت لنا :  
- تفضلاً بالدخول .. أهلاً وسهلاً بكما .

## الفصل التاسع

وتحوكت مرغريت إلى صديقي قائلة :  
- طاب مساؤك يا عزيزي غاستون .. يسرني جداً أن أراك .. لماذا  
لم تأت إلى مقصورتى هذا المساء؟

- لقد خفت أن أبدو متفلاً .

فقالت مرغريت :

- إن الأصدقاء لا يكونون قط متفلاًين .

قالت ذلك بهدوء .. وتمهّلت بعد كلمة (أصدقاء) كأنما لتؤكد  
للسامعين أن غاستون لم يكن إلا صديقاً .. وليس أكثر من صديق .  
قال غاستون :

- إذا هل تسمحين لي .. كصديق .. أن أقدم إليك السيد أرمان  
ديغال؟

- لقد سمحت لبرودنس بذلك فعلاً .

- فقلت وأنا أحنى قامتي باحترام :

- وفضلاً عن هذا فقد سبق لي التشرف بمعرفتك يا سيدتي ...

فرفعت مرغريت حاجبيها البديعين .. وحاولت أن تذكر أين  
قابلتني قبل الآن .. ولكنها لم توفق ولم تذكر شيئاً .  
قلت :

- وعلى كل حال فإنني أشكر لك أنك نسيت مقابلتنا الأولى ..

فقد كان سلوكي ليلتذ مدعاة للهزء والسخرية من جانبك .

إننا تقابلنا في مسرح الأوبرا كوميك منذ عامين يا سيدتي ..  
حيث قدمني إليك صديقي إرنست دي ..

فقاطعتني وعلى شفيتها ابتسامة :

- آه .. تذكرت الآن .. ولكن سلوكك لم يكن يدعو إلى

السخرية يا سيدي .. ولكن الذنب ذنبي .. لأنني قابلتك بشيء من

الخشونة التي ما زلت أعيبها في نفسي .. ولكنك غفرت لي دون

شك يا سيدي ..

ومدت إليّ يدها فقبلتها .

قالت :

- حقاً .. إن من أسوأ صفاتي أنني أميل دائماً إلى السخرية من أقابلهم لأول مرة .. وهي عادة سيئة سببها - كما يقول أطبائي - توتر أعصابي وشدة الآمي .. فأرجوك أن تصدق كلام الأطباء يا سيدي .

- ولكن يخيل إليّ أنك الآن في خير حال .

- ربّما .. ولكنني كنت في أشد حالات المرض .

- أعلم ذلك .

- ومن أنباك؟

- كل إنسان كان يعلم بمرضك .. وقد تردّدت مراراً على منزلك للاستفسار عن صحتك .. وسرّني كثيراً أن أعلم نياً شفائك .

- ولكنني لم أتلق قط بطاقة باسمك !

- ذلك لأنني لم أكن أترك بطاقتي .

- إذأ ، فلعلك ذلك الشاب الذي اعتاد التردّد على منزلي كل يوم

للسؤال عني .. والذي كان يرفض دائماً أن يذكر اسمه للخادم .

- نعم .. إنني الشاب الذي تعين .

- لقد كان ذلك منك في غاية اللطف .. بل كان غاية الكرم .

- ورمقتني بإحدى تلك النظرات الفاحصة التي تكوّن بها المرأة رأيها في الرجل .. ثم تحوكت إلى الكونت وقالت :

- مثل هذا الكرم لم يصدر عنك أنت أيها الكونت .

فأجاب الكونت :

- ولكنني لم أعرفك إلا منذ شهرين !

فقالت :

- وهذا السيد لم يعرفني إلا منذ خمس دقائق .. فما أغيب

أجوبتك !

وهكذا المرأة لا تعرف للرحمة معنى .. مع الرجل الذي لا يصيب

هوى من نفسها .

فاحمرّ وجه الكونت .. وعض شفته .

وشعرت نحوه بشيء من الشفقة .. فقد خيّل إليّ أنه يحبها كما

أحبها .. وأن صراحة مرغريت - ولا سيما على مسمع من الغرباء -

قد خدشت كرامته وأذلت كبريائه .

قلت لأغير مجرى الحديث :

- إنك كنت تعزفين على البيانو ساعة دخولنا .. فهل لك أن

تعتبريني صديقاً قديماً وتواصلني العزف بلا حرج؟

فقالت وهي تدعونا إلى الجلوس وتتهالك على مقعد وثير :

- إن غاستون يعرف نوع الموسيقى التي أعزفها .. وهي تروق

لرجل مثل الكونت .. ولكنني لا أريد أن أنزل بك عقوبة سماعها .

فقال الكونت وعلى شفته ابتسامة حاول أن يكسبها معنى

التهكم :

- إذأ فأنت تحتكرين لي هذا الكرم؟

- إنه كل ما أستطيع أن أقدفه عليك .

كان واضحاً أن الكونت المسكين غير موفق في أحاديثه معها ..

فنظر إليها ضارحاً أن تقلّل من قسوتها عليه ..

قالت مرغريت :

- وأنت يا برودنس .. هل فعلت ما طلبت إليك؟

كان ذلك منتهى القسوة منها .. ولكن من حسن الحظ أن الكونت كان شاباً مؤدباً واسع الصدر .. ففزع بأن قبّل اليد التي قدّمها إليه مرغريت .. وسار إلى الباب بعد أن حيّاناً .. وهناك رمق برودنس بنظرة ذات معنى .. ولكنها هزّت كتفيها .. كمن يريد أن يقول :

- وما حيلتي؟! لقد فعلت كل ما أستطيع فعله .

وصاحت مرغريت بوصيبتها :

- نانين .. رافقي الكونت إلى الباب الخارجي .

ثم سمعنا الباب الخارجي يفتح ويغلق .. فتفتحت مرغريت الصعداء وهفت :

- لقد ذهب أخيراً .. هذا الفتى يحطم أعصابي .

فقالت برودنس :

- يا ابنتي العزيزة .. إنك في الحق شديدة القسوة عليه .. وهو الذي يعاملك بمتتهى اللطف والكرم .. وما زلت أرى على الموقد الساعة الشمعية التي أهداها إليك والتي لا يمكن أن يقل ثمنها عن ألف من الفرنكات !

قالت ذلك .. وتناولت الساعة .. ونظرت إليها بعينين يتألق فيهما بريق الجشع ..

وأجابت مرغريت :

- يا عزيزتي .. إنني إذا وضعت هداياه في كفة ميزان .. ووضعت أحاديثه معي في كفة أخرى .. وجدت أنني الخاسرة في هذه الصفقة ..

- نعم .

- هذا حسن .. ستسردين عليّ التفاصيل فيما بعد .. فلا تصرفني قبل أن أدخلوك بك فإن عندي ما أقوله لك .

فقلت :

- أخشى أن يكون وجودنا غير مرغوب فيه يا سيديتي .. وما دمت قد تعرفت بك للمرة الثانية لأزيل الأثر الذي تركته في نفسك المقابلة الأولى .. فلإني وصديقي نستأذنك الآن في الانصراف .

فقالت :

- كلاً .. كلاً .. فلست أعنيكما بكلامي .. بل على العكس إنني أرغب في بقائكما .

وهنا أخرج الكونت من جيبه ساعة ثعينة نظر فيها وقال :

- لقد حان موعد ذهابي إلى المتدى .

فلم تجب مرغريت .

وتحرّك الكونت من مكانه بجانب الموقد وقال :

- إلى اللقاء يا سيديتي ..

فنهضت مرغريت واقفة وهي تقول :

- إلى اللقاء ..

- نعم .. أخشى أن يكون وجودي مدعاة لضجرك ..

- إنك لا تضجرتني أكثر من المعتاد .. ولكن متى سنراك مرة

أخرى؟

- متى سمحت ..

- إذا فالوداع ..

- إن هذا الفتى المسكين يحبك ..

- إذا كان يتوجّب عليّ أن أصغي إلى جميع الذين يحبونني ..  
فلأنني لن أجد متسعاً من الوقت لتناول الطعام عندئذ .

ونقرت بأناملها على البيانو .. ثم تحوكت إلينا وسألت :

- هل لكم في شيء من الشراب؟ ! إنني أريد قليلاً من النبيذ .  
فقلت بروندس :

- أما أنا فأريد قليلاً من الطعام ..  
فقال غاستون :

- هذا رأي حسن .. فهلموا بنا لتناول العشاء في أحد المطاعم .  
فقالت مرغريت :

- كلاً .. ستعشى هنا في منزلي ..

ودقت الجرس فأقبلت نائين .. قالت لها :

- أرسلني في طلب طعام للعشاء يا نائين .

- أي طعام تريد يا سيدتي؟

- أي طعام يروقك .. فقط أسرع ..

وانصرفت نائين .. وقالت مرغريت بسرور الأطفال :

- نعم .. هذا رأي حسن .. سنتناول طعام العشاء هنا .. يا

إلهي .. ما أنقل هذا الكونت الغبي !!

\*

كان كل ما أراه من هذه الفتاة .. لا يزيدني إلا شغفاً بها ..

كانت ساحرة بكل ما في هذه الكلمة من معنى .. حتى نحافتها

كانت في ذاتها فتنة للناظرين ..

\*

استغرقت في التفكير .. وليس في استطاعتي الآن أن أعلل  
المشاعر التي اعتملت في نفسي في ذلك المساء .. فقد امتلأت عطفاً  
عليها .. وإعجاباً بها .. وكان ما بدا من استقلالها الروحي  
وصدوقها عن المادة بتجهّمها لذلك الكونت الغني الرشيق الشاب ..  
الذي جاء يخطب ودها .. وهو على استعداد لأن يضع ثروته وشرفه  
تحت موطنٍ نعليها .. كان ذلك كافيّاً في نظري لأن يحمو ما فرط  
من آثامها .. وفجورها .. وعيها .

كان واضحاً أنها لا تزال تندفع في حياة الفسق والرذيلة .. فإن  
خطواتها الثابتة .. ومرونة قامتها .. وليونة جسدها .. واتساع  
عينها .. كل ذلك كان ينم عن غريزة ملتبهة تملأ الجو حولها بعبير  
الجاذبية الجنسية .. كما تملأ الجو بشذاها قارورة العطور التي لم  
يحكم غلقها .

باختصار .. إنّ الإنسان كان يرى في مرغريت عذراء شامت  
إحدى المصادفات أن تجعلها بغياً .. وبغياً قد تردها إحدى المصادفات  
أيضاً عذراء طاهرة .. تملأ الدنيا حولها حباً وطهارة .. ومرحاً .

كانت لا تزال تحتفظ بكبريائها واستقلالها .. وهما شعوران إذا  
خُدشا كانا جديرين بإثارة الانفعال الذي يولد الاحتشام .

لزمّت الصمت وأنا أفكر في هذا وأمشاله .. إلى أن تحوكت إليّ  
مرغريت فجأة وقالت :

- إذا فأنت الشاب الذي ذهبت تستفسر عني وأنا طريحة  
الفرش؟ !

- نعم ..

- هل تعرف أن عملك هذا كان كرمياً ونبيلاً؟ ! بماذا أستطيع أن

أعبر لك عن شكري؟

- بالسماح لي برؤيتك في بعض الأحيان .

- تستطيع أن تراني كلما أردت .. بين الخامسة والسادسة مساءً ..  
وبين الحادية عشرة ومتتصف الليل .

•

ثم راحت تعزف على البيانو وترنم بإحدى الأغاني المبتذلة ..  
وكان غاستون يعرف تلك الأغنية فاشترك معها في الترنم بها .

قلت لمرغريت في غير مجاملة .. وبلهجة التوسل :

- لا تغني بالله عليك هذه الأغنية المبتذلة .

- فقالت وهي تبسم :

- ما أشد حرصك على الفضيلة !!

وهنا قالت برودنس فجأة :

- ما هذا التمثال البديع؟

وتناولت من أحد الأركان تمثالاً صغيراً يمثل راعياً .. وتاملته

بإعجاب وجشع . فقالت مرغريت :

- خذيه إذا كان يروقك .

- ولكنني أخشى أن أحرمك من هذه التحفة الجميلة يا ابنتي !

- إنني أبغض هذا التمثال .. وكنت أوشك أن أنزل عنه لوصيفتي

ناتين .. فخذيه إذا شئت .

فوضعت برودنس التمثال جانباً وقالت لي :

- دعهما يعزفان ويرنمان .. وتعال معي لنشاهد المنزل .

ولا حاجة بي هنا إلى وصف وكر مرغريت وما كان فيه من

النفائس وأسباب الترف .. فإنك رأيت كل شيء يوم يبيع أثاثها بالمزاد .

ولكننا عندما دخلنا غرفة الاستقبال .. أشارت برودنس إلى صورة

مثبتة بالجدار وقالت لي :

- انظر .. هذه صورة (الكونت دي جـ ..) . لقد كان يحب

مرغريت حب جنون .. وهو الذي رفعها بماله ونفوذته إلى هذه

المكانة بين الغانيات .. فهل تعرفه؟

فأجبت :

- كلاً .. ولكن صورة من هذه؟

وأومأت إلى صورة أخرى .. فأجبت :

- هذا هو (الفيكونت دي د ..) وقد اضطر لاحقاً أن يهجر

مرغريت !

- لماذا؟

- لقد أنفق عليها كل ثروته .. حتى أفلس ..

- لا شك أنها كانت تحبه .

- لا أعلم .. إنها فتاة غريبة الأطوار .. وقد كانت في المسرح

ساعة رحيله ..

•

وفي هذه اللحظة أقبلت ناتين ودعتنا إلى المائدة .

لما دخلت غرفة الطعام .. رأيت مرغريت مستندة إلى أحد

الجدران وغاستون ممسك بكلتا يديها .. وهو يقول لها كلاماً بصوت

خافت لم أسمع منه شيئاً .

ولكنني سمعت صوتها حين أجابته :

- إنك مجنون ! أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أجيبك بشيء ..

أتعرفني منذ عامين .. ثم تطلب إلي الآن أن أكون لك ؟ نحن

النساء نسلّم أنفسنا منذ البداية .. أو لا نسلّمها مطلقاً .

هلموا بنا لتناول الطعام .

وأفلتت من يد غاستون .. واتخذت مكانها إلى المائدة بيني وبينه .  
وقالت لناين :

- إذا طرق الباب طارق فقولي له إنني لا أستقبل الليلة أحداً ..  
وكان صدور هذا الأمر في الساعة الواحدة صباحاً !!

أكلنا .. وشربنا .. وضحكنا .. وبلغ مرحنا مدهاء .. وانفلتت  
مرغريت من عقال الاحتشام .. فتبودلت بعض النكات المبتذلة التي  
كنت أرى في الظروف العادية أنها تدنس شفاه قائلها .. ولكنها  
قوبلت متناً بعاصفة من الضحك والتصفيق .

وقد أردت في البداية أن ألقى بنفسي في تيار هذا المرح ..  
وأندمج في ذلك العبث .. ثم وجدت تدرجاً أنني أصبحت بمعزل  
عن الضجيج وأن قدحي لا يزال مليئاً .. وشعرت بالحزن والألم ..  
عندما رأيت تلك المخلوقة الحسنة التي لا تتجاوز العشرين من  
عمرها .. وهي تحتسي الخمر بغير حساب .. وتمعن في الضحك ..  
كلما بعدت الدعابة عن الأدب واللياقة .

على أن هذا المرح .. وهذا الأسلوب الوضعي من أساليب الكلام  
والدعابة .. وإن يكن في العادة مظهرراً من مظاهر الاستهتار  
والفجور .. إلا أنني رأيت فيه - فيما يختص بمرغريت - نتيجة  
محتومة لرغبتها الشديدة في أن تنسى .. أو عرضاً لا مفر منه .. من  
أعراض اضطرابها العصبي .

كانت كلما احتستت كأساً .. كلما احمرت وجتأها بوهج

الحمى .. واستبد بها السعال حتى أرغمها على إسناد رأسها إلى  
مقعدها .. وضغطت صدرها بيديها .

وتنهّدت عندما فكرت في فتك هذا الإسراف في ذلك الجسد  
النحيل ..

وأخيراً جاءت الأزمة التي كنت أتوقعها وأحشاها ..

فقد أصيبت مرغريت بنوبة سعال خجيل إليّ معها أن صدرها  
يتمزق .. وضغطت مندبها على شفتيها ..

ولمّا رفعت المندبيل عن فمها .. كان ملطخاً ببقع من الدم .

فنهضت واقفة .. ووثبت إلى غرفتها .

وهتف غاستون :

- يا إلهي .. ما الذي أصاب مرغريت ؟!

فأجابت برودنس :

- لقد أسرفت في الضحك حتى تفجر الدم من رثتها .. ولكن

لا خوف عليها .. فذلك يحدث لها كل يوم .. اتركها وشأنها ..  
فإنها تفضل الوحدة في مثل هذه الحالة .

ولكنني لم أر هذا الرأي .. فانطلقت في أثر مرغريت رغم رجاء

برودنس وناين .

## الفصل العاشر

كانت الغرفة التي لاذت بها مرغريت مضاعة بشمعة واحدة

موضوعة على إحدى المناضد .

وعلى ضوء هذه الشمعة .. رأيت مرغريت عمدة على أريكة

كبيرة .. وقد حلت أزرار ثوبها .. ووضعت إحدى يديها على صدرها وتدلّت يدها الأخرى بجانبها .  
ورأيت على المنضدة بجانب الشمعة وعاء فضياً مليئاً بالماء إلى منتصفه وقد تلوث الماء بخيوط من الدم ..

كانت مرغريت شديدة الشحوب .. وهي تلهث .. وتلتقط أنفاسها بعناء شديد .. فجلست بجانبها .. وتناولت يدها المتدلية .. فهمت وهي تبسم :  
- آه ... أهذا أنت !

ولا بد أن وجهي كان ينم عن حزني وألمي لأنها سألت على الأمر :

- هل أنت مريض كذلك ؟ !  
- كلاً .. ولكن أنت .. ألا زلت تتألين ؟  
- قليلاً .

وجففت الدموع التي أطلقها السعال من عينيها .. وقالت :  
- لقد ألقت هذا الالم .

فقلت لها بصوت يرتجف من الانفعال :  
- إنك تقتلين نفسك يا سيديتي .. لستني كنت واحداً من أصدقائك أو أقاربك .. إذأ لحظرت عليك أن توردي نفسك موارد الهلكة .

فأجابت بشيء من المرارة :  
- آه .. أؤكد أنه ليس ثمة ما يستوجب اهتمامك إلى هذا الحد .. انظر كيف يهتم الآخرون بي ! إنهم يعلمون أنه لا يمكن عمل شيء

من أجلي .. لا شيء .

ثم نهضت .. وتناولت الشمعة ووضعتها على حافة الموقد .. ونظرت إلى نفسها في المرآة ..

قالت وهي تمرر أصابعها في شعرها المضطرب :  
- ما أشد شحوبي .. ولكن لا بأس .. فلنعد إلى المائدة أيها الصديق .. ألا تأتي ؟

ولكني لم أتحرك من مكاني .. ولا بد أنها شعرت بشدة تأثري بعد هذا المنظر الذي شهدته .. لأنها اقتربت مني .. وسطت إليّ يدها وهي تقول :  
- تعال .. هلم بنا .

فتناولت يدها .. ورفعتها إلى شفتي .  
وعندئذ سقطت على يدها - بالرغم مني - دمعة حبستها طويلاً .  
فهتفت وهي تجلس بجانبني :

- ماذا؟ هل أنت طفل ! إنك تبكي .. فماذا حدث ؟ !  
- قد أبدو في نظرك غرماً ساذجاً .. ولكن الواقع .. أن ما رأيته الآن أحزنني وألمني .

- ما أكرم خلقك ! ولكن ماذا تنتظر مني ؟ إنني لا أستطيع أن أنام .. ويجب أن أرقه عن نفسي بطريقة ما .. وبعد .. فإن حياة أو موت فتاة من طرازي لا يقدم ولا يؤخر .

يقول الأطباء إنّ الدم الذي ينبثق من فمي .. مصدره الخلق .. وأنا أتظاهر بتصديقهم .. وذلك كل ما أستطيع فعله .  
فقلت لها بحدة :

- أصغني إليّ يا مرغريت .. إنني لا أعلم أي دور تُدّر لك أن

تلعبه في حياتي ومستقبلي . . ولكني أعلم فقط أنه لا يوجد في هذه اللحظة إنسان - حتى ولا أختي - يهتمني أمره كما أهتم بأمرك . . وقد كان ذلك هو الحال منذ وقع بصري عليك أول مرة . . لذلك أضرع إليك أن تعني بنفسك . . وألا تثابري على هذه الحياة التي تحببها . .

- إذا عنيت بنفسي كما تقول فإنني أموت . . والواقع أن هذه الحياة المضطربة المحمومة هي وحدها ما يمك رمقي . . أضف إلى ذلك أن «عناية المرأة بنفسها» أمر لا يتيسر إلا للنساء الشريفات اللاتي يستمتعن بحياة الأسرة . . وبصداقة الأصدقاء . . أما نحن فإننا لا نكاد نعجز عن إرضاء عشاقنا وإشباع صلفهم . . وإرضاء شهواتهم . . حتى ينفضوا من حولنا . . وتتعاقب علينا الليالي الطويلة بعد الأيام الطويلة .

إنني أعرف كل ذلك . . لأنني لزمتم الفراش شهرين . . فلم يزرني خلالهما أحد بعد الأسبوع الثالث .

فأجبت :

- صحيح أنني لا تربطني بك إحدى الروابط أو الصلات . . ولكن إذا سمحت لي بأن أسهر عليك . . كما يسهر الأخ على أخته . . فإنني لا أتركك حتى تشفي من سقمك .

ومتى استرددت قواك . . فلك - إذا شئت - أن تعودني إلى الحياة التي تحببها الآن . . ولكنني موقن من أنك سوف تؤثرين الحياة الهادئة الوداعة لأنها الحياة التي ترد عليك سعادتك . . وتحفظ لك جمالك .

- هذه هي خواطرك الليلية فقط . . لأن الخمر أدخلت الكآبة على

نفسك . . ولكن سوف يفرغ صبرك ويضيق صدرك قبل أن تفعل شيئاً مما تقول .

- اسمحي لي أن أذكرك يا مرغريت بأنك لزمتم الفراش شهرين . . وأنتي كنت أتردد على بيتك يومياً طيلة هذين الشهرين للاستفسار عنك والاطمئنان على صحتك .

- هذا صحيح . . ولكن لماذا لم تصعد إلى غرفتي؟

- لأنني لم أكن قد تعرفت بك بعد .

- وهل مع فتاة من طرازتي يحصر الناس على مثل هذه التقاليد؟

- من واجب الرجل دائماً أن يحترم المرأة . . أو أن هذا الاحترام

على الأقل من أولى مبادئي .

- إذا فأنت على استعداد للعناية بي والسهر علي؟

- نعم . .

- وهل تقضي النهار كله بجاني؟

- نعم . .

- والليل أيضاً؟

- إذا لم يكن في بقائي ما يضايقك .

- وماذا تسمي هذا؟

- أسميه إخلاصاً .

- وعن أية عاطفة يصدر هذا الإخلاص؟!

- يصدر عما أشعر به من العطف عليك .

- فأنت تحبني إذأ؟ قل ذلك في الحال . . فذلك أبسط من اللفت

والدوران .

- ربما كنت أحبك . . ولكن إذا كان مقدراً لي أن أصارحك بذلك



يوماً ما . . فإني لن أفعل ذلك الآن .

- من الأفضل ألا تصارحني بذلك أبداً .

- لماذا؟

- لأنّ مثل هذا الاعتراف لا يسفر إلا عن أحد أمرين .

- وهما . . !

- هما إمّا أن أرفضك . . فتغضب . . أو أرضى بك فتكون لك

عشيقة مريضة حزينة . . إذا تظاهرت بالمرح يوماً كان مرحها أمرّ من

الحزن . . عشيقة تنفث رثاها دماً . . وتنفق مائة ألف فرنك في

العام . . وهو مبلغ يلائم شيخاً وديعاً كالدوق ولكنه لا يلائم شاباً

مثلك . . والدليل على ذلك أن جميع عشاقني من الشباب ما لبثوا أن

فروا مني لعظم إنفاقي .

لم أحبها . .

فقد عقد الأُم لساني بعد صراحتها التي تشبه الاعتراف . . وبعد

الذي شاهدته من بوطن حياتها النعسة المستهترّة الكامنة تحت غطاء

براق .

قالت مرغريت :

- هيّا بنا . . إنّنا نتحدّث فيما لا طائل تحته . . هات يدك . . وهلم

بنا نعود إلى غرفة الطعام . . قبل أن يدهشهم غيابنا .

- عودي إذا شئت . . ولكنني أرجوك أن تسمحني لي بالبقاء هنا

وحدي .

- لماذا؟

- لأنّ مرحك يحزنني ويؤلمني .

- حسناً . . سأكون حزينة إذا . . ولن أمرح .

- أصغني إليّ يا مرغريت . . دعيني أقول لك كلاماً لا شك أنك

سمعت مثله قبل الآن . . وطرق أذنيك مراراً حتّى نفرت منه . .

وضاعت ثقتك فيه . . ولكنه مع ذلك كلام حقيقي .

فقالته وعلى شفيتها ابتسامة الأم حين تصغي إلى سخافات ابنتها :

- وهذا الكلام هو . . ! ؟

- هو أنني منذ رأيتك وأنت تحتلين مكانة في حياتي . . وقد

حاولت مراراً أن أنسخ صورتك من ذهني . . ولكن عبثاً حاولت . .

واليوم بعد عامين لم أرك في خلاليهما . . وبعد أن عرفتك . .

وعرفت ما أنت عليه من خلق . . أشعر بأنك أصبحت أشد سيطرة

على قلبي وعقلي ممّا كنت في أي وقت مضى . . بل وأشعر بأنك

صرت واقعاً ضرورياً لحياتي . . وبأنني أجن . . ليس فقط إذا

صددتني . . وإنما كذلك إذا لم تسمحني لي بأن أحبك .

- في هذه الحالة أيها الشاب التمس يجب عليّ أن أفعل ما فعلته

مدام (د . .) إذ قالت لرجل يخطف ودها «أنت إذا واسع الغنى؟!» .

أفلا تعلم أنني أنفق سبعة آلاف من الفرنكات شهرياً . . وأنّ هذا

التبذير أصبح ضرورياً لكياني؟!

ألا تشعر أيها الصديق المسكين بأنني إذا عاشرتك فسأجلب عليك

الدمار والعار في أقصر وقت . . وأن أسرتك سوف تبذل لك لأشك

تعاشر مخلوقة مثلي؟

أحبيني إذا شئت . . أحبيني كصديقة أثيرة . . ولكن لا شيء غير

ذلك .

وتعال لمقابلتي كلّما أردت . . فتحدث معاً ونضحك معاً . .

ولكن لا تبالع في تقويم أمري .. ولا تتخضع بقيمتي .. فإنني في الحقيقة لا أساوي شيئاً مذكوراً ..

إنك طيب القلب وبحاجة إلى من يحبك .. وأنت كذلك في مستقبل العمر .. ولك ثروة من الإحساس النبيل تنفر من الحياة التي نحياها مثيلاطي .. فامنح حبك إلى إحدى العذارى الطاهرات .. أو اخطب ود إحدى النساء الشريفات .. أما أنا .. أنا ..

وصمتت لحظة واستطردت :

- إنني أتحدث إليك في صراحة يا صديقي .

وفي هذه اللحظة أبلت برودنس وهي تصيح :

- يا للهول .. ماذا تفعلان هنا كل هذا الوقت؟

فأجابت مرغريت :

- إننا نتحدث .. فدعينا لحظة .. وسنلتحق بكما .

- حسناً .. حسناً .. على رسلكما يا ولدي .. تحدثنا ما شتتما .

قالت ذلك في خبث .. وبدت أشد خبثاً حين أغلقت الباب

وراءها .

ولمّا انفردنا .. قالت مرغريت :

- اتفقنا إذأ على ألا نحبني بعد الآن؟

- سأرحل .

- إلى هذا الحد؟

والواقع أن الرجوع عمّا عزم عليه أصبح مستحيلاً .. أضف إلى ذلك أن جاذبيتها لي كانت لا تقاوم .. فهذا المزيج بين الحزن والمرح .. وهذه الصراحة وهذه الحياة الفطرية .. بل وهذا المرض الذي يرهف مشاعرها .. ويحرك غرائزها .. ذلك أشعرني بأنني إذا

لم أنجح في السيطرة عليها لأول وهلة .. فإنني أفقدها إلى الأبد .  
قالت :

- صبراً .. صبراً .. هل أنت جاد في كل ما قلت لي؟

- نعم ..

- ولكن لماذا لم تصارحني قبل الآن؟

- متى كان ينبغي أن أصارحك؟

- غداً لقائنا في (الأوبرا كوميك) مثلاً؟!

- أظن أنك كنت تنفري مني لو قابلتك وقتذاك .

- لماذا؟

- لأن سلوكي كان سخيفاً ..

- هذا صحيح .. ولكن هل كنت تحبني في ذلك الوقت؟

- نعم ..

- ومع ذلك فقد انصرفت من المسرح إلى دارك .. حيث

استمتعت بالنوم الهنيء .. دون أن يزعجك ما كان بيننا من لقاء!

- أخطأت .. فهل تعلمين ماذا فعلت تلك الليلة؟

- كلا!

- إنني تبعتك إلى المطعم الإنجليزي .. وانتظرتك هناك .. ثم

تبعتك المركبة التي أفلتت مع رفاقك الثلاثة .. ولما رأيتك تدخلين

المنزل بمفردك .. شعرت بسعادة لا توصف .

فانفجرت مرغريت ضاحكة ..

- لماذا تضحكين؟

- لا شيء ..

- أرجو أن تصارحيني .. وإلا اعتقدت أنك ما زلت تسخرين مني!

- ألا تغضب إذا صارحك؟

- وبأي حق أغضب؟

- اعلم إذا .. ما دمت تريد أن تعلم .. أنني دخلت المنزل بمفردتي لسبب معقول ..

- وهو؟!

- هو أن بعضهم كان ينتظرني في الداخل ..

لو أنها طعننتي بخنجر ما ألتني الطعنة كما تأملت في تلك اللحظة .

نهضت واقفاً .. وبسطت إليها يدي وأنا أقول :

- وداعاً .

فأجابت :

- كنت أعلم أنك ستزعج وتتالم .. ذلك شأن الرجال جميعاً .. إنهم يصرون على معرفة ما يزعجهم ويغضبهم .

قلت بلهجة فاترة .. لكي أثبت لها أنني شفيت من جنوني إلى الأبد :

- أؤكد لك أنني لست مغضباً .. لقد كان طبيعياً جداً أن ينتظرك بعضهم في الداخل .. وطبيعي جداً الآن أن أستأذن في الانصراف .

- لعل هناك أيضاً من ينتظرك في منزلك؟

- كلاً .. ولكن يجب أن أذهب ..

- وداعاً إذاً .

- أطردينني؟

- كلاً .. أنا لا أطرلك بأية حال .

- لماذا تعملين إذاً على إيلامي؟

- وكيف أملك؟!!

- قلت لي إن بعضهم كان ينتظرك حين دخلت بمفردك .

- إنني لم أملك من الضحك عندما تصورت سرورك لمجرد دخولي إلى منزلي منفردة .. بينما كان هناك سبب وجيه لذلك .

- في بعض الأحيان يجد الإنسان في ناحية من نواحي ضعفه مصدراً للسعادة .. ومن القسوة هدم هذه السعادة بهدم مصدرها ..

- مَنْ تظنني إذاً أيها المسكين؟ إنني لست من العذارى الطاهرات .. ولست من الدوقات أو المркиزات! ثم إنني لم أعرفك

إلا اليوم .. وليس من حقد عليّ أن أقدم لك حساباً عن أعمالي وسلوكي! وعلى فرض أنني أصبحت صاحبتك في أحد الأيام ..

فيجب أن تعلم حق العلم بأنه كان لي قبلك عشاق كثيرون .. فإذا شرعت منذ الآن في مضايقتي بغير شك فعاذاً يكون (فيما بعد)؟!

إذا كان هناك (فيما بعد) على الإطلاق؟ إنني في الواقع لم أعرف قط رجلاً مثلك .

- ذلك لأن أحداً لم يحبك قط كما أحبك .

- تكلم .. وكن صريحاً .. هل تحبني حقاً إلى هذا الحد؟

- إنني أحبك إلى أقصى ما يمكن الرجل أن يحب امرأة .

- وقد استمر هذا الحب منذ ..

- منذ رأيتك في أحد الأيام تدخلين متجراً للأزياء في ميدان الأوبرا .. وذلك منذ ثلاثة أعوام تقريباً .

مني .. وأسندت جسدها بلطف على يدي .  
وهمست :  
- لو تعلمين فقط كم أحبك؟!  
- أتقول حقاً؟  
- أقسم لك .  
- حسناً .. إذا وعدتني بأن تطيع رغباتي .. دون أن تسأل .. أو أن تعترض .. فإنني ربما .. أحبيتك .  
- أعدك بأن أفعل كل ما تريدن .  
- ولكنني أحذرك من الآن .. بأنه يجب أن يكون لي مطلق الحرية في أن أفعل ما يروقتني .. دون أن أقدم لك حساباً أو إيضاحاً .  
لقد بحثت طويلاً عن عاشق شاب لا يعرف الحبث وسوء الظن .. أستطيع أن أحبه دون أن يرى من حقه أن يكون محبوباً .. ولكن لم أوفق قط إلى مثل هذا العاشق .. ذلك لأن الرجال بدلاً من أن يكونوا راضين قانعين بأننا نعطيهم من أنفسنا مراراً ما كانوا يحلمون به ولو مرة واحدة .. تراهم يطالبوننا بأن نقدم لهم حساباً .. عن الماضي والحاضر بل وعن المستقبل كذلك .. وكلما اشتدت الألفة بيننا وبينهم .. كلما تضاعفت رغبتهم في السيطرة علينا .. واشتد حرصهم على كل امتياز يتلونه منا .  
فإذا خطر لي الآن أن أتخذ لنفسني عشيقاً جديداً .. فإنني أشرط فيه امتلاك هذه الصفات الثلاث النادرة .. وهي الثقة والخضوع والكتمان .  
- هذا حسن .. ستجديتني كما تريدن .  
- سوف نرى .

- هل تعلم أن ذلك جميل منك .. وماذا يجب أن أصنع لأعبر لك عن وفائي لهذا الحب الكبير؟  
فأجبت وقلبي يكاد يشب من حلقي :  
- حاولي أن تحبيني قليلاً .  
وشعرت .. رغم الابتسامة الساخرة التي لم تغب عن شفيتها طيلة هذا الحديث .. أنها بدأت تشاطر عاطفتي .. وأن الساعة التي طالما انتظرتها بقلق وفروغ صبر قد دنت .  
قالت :  
- والدوق؟  
- أي دوق؟  
- صديقي العجوز الغيور .  
- إنه لن يعلم بما بيننا .  
- وإذا علم؟  
- أعجبني يغفر لك إذا علم؟  
- كلاً .. والأسفاه .. إنه يهجرني .. ولا أعلم ما يكون من أمري بعد ذلك .  
- إنك تجازفين بهجرانه فعلاً .. من أجل رجل سواي .  
- وكيف علمت ذلك؟  
- من الأوامر التي أصدرتها في بداية السهرة .. فقدت أمرت وصيفتك بالألا تسمح لكائن من كان بزيارتك هذه الليلة .  
- ليس لك أن تأخذ على ذلك .. فما أصدرت هذا الأمر إلا لاستقبالك أنت وصديقك غاستون .  
وكنت قد اقتربت منها .. فأحطت خصرها بساعدي .. فلم تنفر

حياة سريعة ..  
 - أصرع إليك ألا تنغصي سعادتني بمثل هذا الكلام ..  
 فقالت ضاحكة :  
 - لا تحزن ولا تبتس . فمهما تكن حياتي قصيرة فإنها ستكون أطول عمراً من حبك لي .  
 ودخلت الغرفة وهي تغني في جذل .  
 ثم لاحظت أن برودنس وغاستون وحدهما في الغرفة فسألت :  
 - وأين نانين !  
 فأجابت برودنس :  
 - إنها نائمة في غرفتك .. في انتظار موعد رقادك ..  
 - مسكينة هذه الفتاة .. إنني أقتلها بسهراتي الطويلة .. هلموا أيها السادة ... لقد حان وقت انصرافكم ..  
 وبعد بضع دقائق .. استأذنت وصدقي في الانصراف .. وشدت مرغريت على يدي وهي تودّعني .. ولكنها استسبقت برودنس معها ..

سألني غاستون ونحن في طريقنا :

- ماذا كنت تقول لمرغريت؟  
 - إنها ملاك .. وأعتقد أنني غرقت في حبها يا صديقي .  
 - هذا ما توقّعت .. وهل اعترفت لها بحبك؟  
 - نعم .  
 - وهل وعدت بشيء؟  
 - كلا ..

- ومتى نرى؟  
 - فيما بعد ..  
 - ولماذا لا يكون الآن؟  
 - لأنه ليس من الممكن دائماً تنفيذ المعاهدات يوم إبرامها ..  
 فقلت وأنا أضمهها إلى صدري :  
 - ومتى أراك مرة أخرى؟  
 - غداً بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل .. فهل يرضيك ذلك؟  
 - وهل أنت بحاجة إلى مثل هذا السؤال؟  
 - لا تقل عن ذلك كلمة واحدة لصديقك .. أو لبرودنس .. أو لأي إنسان آخر ..  
 - نقي بي .  
 - والآن .. قبّلي .. ولنعد إلى غرفة الطعام .  
 وقدمت إليّ شفتيتها .. ثم أصلحت شعرها . وعدنا إلى غرفة الطعام وهي تغني .. وأنا شبه مجنون .  
 ولما اقتربنا من باب الغرفة .. تريت قليلاً .. وقالت في همس :  
 - قد يبدو لك غريباً ما رأيت من استعدادي لقبولك بمثل هذه السرعة .. فهل تعرف السبب؟  
 فنظرت إليها متسائلاً .. وتناولت يدي .. ووضعنها على قلبها .. وكان يخفق بشدة ..  
 واستطردت :  
 - السبب هو أنني لن أعيش طويلاً .. وأني قررت لذلك أن أحيا

قطعت على نفسها ذلك العهد . . . وكيف حدث كل ذلك بسرعة . . . ودون تدبير سابق . . . حتى خيل إليّ في بعض الأحيان أن ذلك كله لم يكن إلا وهماً أو حلماً من الأحلام .

على أن هذه لم تكن أول مرة تعد فيها فتاة مثل مرغريت بأن تسلّم نفسها لأحد عشاقها غداً اليوم الذي عرفته فيه . . .

وقد كان يحسن بي أن أفكر على هذا النحو . . . ولكن الأثر الذي تركته مرغريت في نفسي . . . أضلني عن سبيل التفكير السليم . . . فرفضت أن أرى فيها بغيّاً كسائر البغايا . . . ودفعني الغرور الغريزي في نفوس الرجال جميعاً إلى الاعتقاد بأنها تبادلني عاطفتي . . . وأنها تشعر نحوي بمثل ما أشعر نحوها .

ومع ذلك فقد كانت لديّ الأدلة التي تدحض هذا الاعتقاد . . . وطالما سمعت بأن حب مرغريت سلعة تباع وتشترى . . . ويرتفع ثمنها ويهبط وفقاً للظروف ونزولاً على قانون العرض والطلب .

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الذي سمعت . . . وبين إصرار مرغريت على نبذ الكونت الشاب الذي قابلناه في بيتها؟

لقاتل أن يقول إن هذا الكونت لم يصب هوى من نفسها . . . وأنها وهي التي تنعم بالرفاهة في كنف الدوق . . . إذا خطر لها أن تتخذ لنفسها عشيقاً جديداً . . . فإنها تفضل أن يكون هذا العشيق رجلاً تميل إليه . . .

ولكن إذا صح هذا الافتراض . . . فلماذا صدّت غاستون . . . وهو الظريف . . . الغني . . . العذب الحديث . . . وأثرتني عليه . . . أنا الذي كنت في المقابلة الأولى حقيقاً بسخريتها وهزتها؟

إن حوادث لحظة واحدة حقاً قد تؤثر في حياتنا ومصائرنا كما لا

- إنها في ذلك تختلف عن برودنس . . . ولا شك أنك لن تصدقني إذا قلت لك إن هذه المرأة البدينة لا تزال تحتفظ بحرارة الشباب !

## الفصل الحادي عشر

وكفّ أرمأن عن الكلام حين بلغ بقصته هذا المبلغ . . . وقال لي :  
- هل لك أن تغلق النافذة؟ لقد بدأت أشعر بالبرد . . . وسألوذ بفراشي .

فأغلقت النافذة . . . واضطجع أرمأن في فراشه . . . وأسند رأسه إلى الوسادة لحظة . . . شأن الرجل الذي أصناه السهر الطويل . . . أو أمضته الذكريات المؤلمة . . .  
قلت له :

- لعلك أسرفت في الكلام . . . فهل أنصرف وأتركك لتنام وترجئ سرد القصة إلى يوم آخر .

- وهل أسأمك حديثي؟

- على العكس . . . إنه أثار فضولي .

- إذا سأمت في قصتي . . . فإنك إذا تركتني وحيداً . . . فلن يغمض لي جفن .

واستطرد :

عندما عدت إلى منزلي . . . أخذت أسترجع في ذهني كل ما حدث لي في ذلك المساء . . . منذ رأيت مرغريت . . . إلى أن

تؤثر حوادث عام كامل ا

لقد كنت أنا الوحيد الذي آله أن يراها تفر من غرفة الطعام  
وصدرها يكاد يتمزق من تأثير السعال .. فتبعتهما .. ولم أكتفهما  
تأثري وحزني على ما ألمَّ بها .

ولعلّ هذا الحادث .. مضافاً إليه اهتمامي بالاستفسار عنها في  
إبان مرضها .. قد جعلها ترى فيّ رجلاً يختلف عن سائر الرجال  
الذين قابلتهم من قبل .. ولعلها وجدت أنها تستطيع أن تثيب هذا  
الشعور الكريم من ناحيتي بأن تيلني من نفسها ما أنالته غيري مراراً  
حتى لم يبق له عندها أية أهمية .

كل هذه الفروض كانت محتملة كما ترى .. ولكن مهما يكن  
الدافع إلى رضاها .. فهناك أمر واحد مؤكد .. هو أنها رضيت ..  
وذلك كل ما يهمني ..

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة .. كنت نهباً موزعاً بين  
الشك واليقين .. أشعر تارة بأنني لست من الأناقة والرشاقة والغنى  
بحيث يجوز لي أن أملك هذه المرأة .. وأحس تارة أخرى بالخילה  
لأنني ملكتها .. أو على الأقل أوشكت أن أملكها ..

وداخلتني الشكوك والريب .. وأشفتت أن يكون شغف مرغريت  
بي نزوة عارضة .. تدوم يوماً أو أسبوعاً أو أكثر أو أقل .. ثم تكون  
القطيعة الفجائية .. والفرقة الأبدية ! وبلغ من تشاؤمي أن فكرت في  
الامتناع عن مقابلتها في اليوم التالي .. والكتابة إليها بما يهجنس في  
نفسي .

ثم انتقلت من التشاؤم واليأس .. إلى الثقة التي لا حدود لها ..  
والأمل الذي لا نهاية له .. فرأيت المستقبل في باقة الورد ..

وقلت لنفسي سوف تدين لي هذه الفتاة بشفاء جسدها .. ويره  
روحها .. وسوف أقضي معها بقية حياتي .. وأجد في حبها من  
السعادة ما لا أجده في حب أطهر العذارى وأشرف النساء .

ولا أستطيع في الواقع أن أعدد لك آلاف الأفكار والخواطر التي  
انبعثت من قلبي .. إلى عقلي .. وتبخرت شيئاً فشيئاً مع سنة  
النعاس الذي غلبني عند مطلع الفجر .

وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت الساعة الثانية بعد  
الظهر .. وكان الجو رائعاً .

ولست أذكر أن الحياة كانت في نظري أجمل ولا أضمن مما بدت  
لي في ذلك اليوم .. فقد زالت الشكوك والريب التي طافت بنفسي  
في اليوم السابق .. ولم يبق إلا أعذب الآمال والأحلام .

ووجب قلبي .. وتوترت أعصابي توتراً ممتعاً عندما تذكرت  
موعدي مع مرغريت .

كانت غرفتي أضيق من أن تتسع لسعادتي .. فارتديت ثيابي على  
عجل .. وانصرفت من المنزل .. ولكنني لا أدري كيف قضيت  
ساعات النهار .

مشيت كثيراً .. ودخلت كثيراً .. وتحدثت إلى الكثيرين .. فلماً  
كانت الساعة السابعة .. لم أعد أذكر أين ذهبت .. ومن قابلت ..  
وماذا قلت ..

وكل ما أذكره .. أنني عدت إلى المنزل .. وقضيت ثلاث ساعات  
في إصلاح هندامي .. ونظرت مشات المرات إلى ساعتني .. وإلى

ساعة الجدار .. ولكنهما لسوء حظي كانتا متفتحتين .. لا تسبق  
إحدهما الأخرى .

ولمّا دقت الساعة نصفاً بعد العاشرة .. انطلقت إلى شارع  
دانتان .. ونظرت إلى نوافذ مرغريت .. فرأيت النور ينبعث منها .

طرقت الباب .. وسألت البواب إن كانت الأتسة مرغريت جوتيه  
في منزلها .. فأجاب أنها لا تعود أبداً قبل الساعة الحادية عشرة .  
نظرت إلى ساعتى ..

كنت أظن أنني سرت على مهل .. فوجدت أنني قطعت المسافة  
بين بروفانس (حيث أقيم) وشارع دانتان (حيث تقيم مرغريت) في  
خمس دقائق؟

وأخذت أسير في الشارع جيئةً وذهاباً .. وكانت حوائثه مغلقة  
في تلك الساعة .. وقد ساد الصمت والسكون .. وأقفر من  
السابلة .

وبعد نصف ساعة أقبلت مرغريت .. فهبطت من مركبتها ..  
ونظرت حولها كأنها تبحث عن إنسان ما .

واقتربت منها وهي تهم بأن تفرع الباب .. وقلت لها محيياً :  
- طاب مساؤك .

فهتفت بصوت لا يسم عن سرورها بلفاني :  
- آه .. أهذا أنت؟

- ألم تسمح لي بزيارتك الليلة؟

- آه .. هذا صحيح .. لقد نسيت ..

وطيّرت هذه العبارة أحلام الليل .. وآمال النهار .. ولكني كنت  
بدأت أعرف شذوذها وغبابة أطوارها .. فلم أنصرف .. وبقيت إلى  
جانبها .

ودخلنا المنزل معاً .. وسألت مرغريت وصيقتها :

- هل عادت برودنس إلى بيتها؟

- كلاً يا سيدتي ..

- قولني لخادمتها إنني أريد مقابلتها بمجرد عودتها .. ولكن أضيئي  
غرفة الاستقبال أولاً .. وإذا سألت عني سائل فقولني إنني لم أعد ..  
وإنني لا أعود الليلة .

وكان يبدو عليها أنها في شغل بأمر ما .. فلم أدر أيهما أنسب ..  
الصمت أو الكلام .

وقصدت مرغريت إلى مخدعها .. وبقيت في مكاني .. فقالت :  
- تعال .

وخلعت قبعتها ومعطفها .. ونهالكت في مقعد كبير بالقرب من  
الموقد .. قالت :

- ماذا عندك من الأنباء؟

- لا شيء .. إلا أنني أخطأت في زيارتك الليلة .

- لماذا؟

- لأن الاتزعاج يبدو عليك .. ولا شك أن وجودي يضايقك .

- إنك لا تضايقني .. ولكني مريضة .. ولم أذق طعم النوم ..

وأشعر بصداغ شديد .

- فهل أنصرف لئسنى لك بعض الرقاد؟

- كلاً .. في استطاعتك أن تبقى .



وفي هذه اللحظة دق الجرس .. فحرّكت يدها في ضجر  
وامتناع وهتفت :

- من ذا الذي يقرع الجرس؟!

ودق الجرس مرة أخرى فقالت :

- إذاً، فلا يوجد من يفتح الباب .. ويجب أن أفتحه بنفسى .  
ونهضت وهي تقول لي :

- انتظري هنا ..

ومرّت بين الغرف وفتحت الباب .. فأرهفت السمع وأنصت .

ودخل الشخص الذي فتحت له الباب .. وتكلّمت .. فعرفت  
في الحال صوت (الكونت دي ن ..) الذي رأيته عندها بالأمس .

سألها :

- كيف أنت هذا المساء؟

فأجابته بلهجة جافة :

- إنني مريضة ..

- هل يزعجك وجودي؟

- ربما .

- يا إلهي .. ما أشد قساوتك يا عزيزتي مرغريت! ماذا اقترفت  
ليكون جزائي منك هذه الخشونة؟!!

- يا صديقي العزيز .. إنك لم تفعل بي شيئاً .. ولكني مريضة  
ويجب أن أذهب إلى فراشي .. وأكون شاكرة لك إذا تفضّلت

بالانصراف .. يا إلهي .. ألا أعود إلى منزلي يوماً دون أن أراك  
تطرق بابي بعد خمس دقائق؟! ماذا تريد مني؟؟ أن أكون عشيقتك!

لقد قلت لك مائة مرة إنك تضايقني إلى أقصى حد .. وإنه يحسن

بك أن تذهب إلى سواي .. وأقول لك للمرة الأخيرة إنني لا أريد أن  
تكون لي بك صلة .. فهل فهمتني؟! وداعاً إذاً .. آه .. ها هي  
نانين .. إنها سترافكك إلى الباب .. طاب مساؤك .

ولم تنطق بكلمة أخرى .. ولم تصغ إلى كلمة واحدة من  
العبارات التي اضطريت على شفّتي الشاب .. وعادت إلى الغرفة  
وهي مغضبة .. وأغلقت الباب بعنف .

ودخلت نانين بعد لحظة .. فصاحت بها مرغريت :

- قولني دائماً لهذا الأحمق إنني لست هنا .. أو إنني لا أريد  
مقابلته .. لقد تعبت أخيراً من مقابلة كل هؤلاء الناس الذين  
يجيئونني دائماً للغرض ذاته .. والذين يعطونني مالا ثم يعتقدون أننا  
سواسية .

لو عرفت مثيلاتها هذه الحرفة المخجلة .. المهينة على حقيقتها ..  
لآثرن الخدمة على احترامها .. ولكن لا .. إن الغرور ..  
والخيلاء .. وحب الثياب .. والمركبات .. والمجوهرات .. كل ذلك  
يجتذبننا إلى قرارة الهاوية .. وفي سبيلها نذيب بالتدرّج قلوبنا ..  
وأجسادنا .. وجمالنا .. ونحن مع ذلك مرهوبات كالوحوش  
الضارية .. ومحتقرات كالمنبوذين .. وأولئك الذين يحيطون بنا إنما  
يريدون منا أكثر مما يعطون .. وسيبقى هذا حالنا حتى نهلك في  
أحد الأيام كما تهلك الكلاب .. بعد أن نكون قد جلبنا الخراب  
على الآخرين .. وعلى أنفسنا .

فقالت نانين :

- هونّي على نفسك يا سيدتي .. إنك مضطربة الأعصاب هنا  
المساء ..

فصاحت مرغريت .. وهي تنزع ثوبها بعنف :

- هذه الثياب تضايقتني .. أعطيني دثاراً .. ثم أين برودنس؟

- لم تعد بعد يا سيدتي .. ولكنها ستقابلك بمجرد عودتها .

فقالت مرغريت وهي تخلع ثوبها :

- ها هي مخلوقة أخرى تعرف كيف تقابلني متى احتاجت إلى

معونتي .. ولكنها لا تقدم لي إحدى الخدمات حتى تمزق أعصابي .

إنها تعلم أنني أنتظر الردّ الليلة .. وأنتي في أشد القلق .. ولكنها

بغير شك قد ذهبت لبعض شأنها دون أن تهتمّ لأمرني .

- ربما عوقها عائق .

- أريد بعض النيبذ .

- إنه يزيد مرضك يا سيدتي .

- ذلك أفضل .. وأريد كذلك جناح دجاجة وبعض النيبذ .. هيا

أسرعي .. فإنني جائعة .

ومن تحصيل الحاصل طبعاً أن أصف تأثير هذا المنظر في نفسي .

قالت لي :

- إنك ستتناول طعام العشاء معي .. فاقرأ في أحد الكتب ريشما

أذهب إلى غرفة ثيابي .

وأضاءت الشموع .. وفتحت باباً بالقرب من فراشها ..

واختفت .

أما أنا .. فقد ذهبت أفكر في الحياة التي تحياها هذه الفتاة

المسكينة .. وامتزج حبي لها بالإشفاق عليها .

وكنت لا أزال بمفردي في الغرفة .. حين دخلت برودنس .

هتفت :

- أنت هنا؟ وأين مرغريت؟!

- إنها في غرفة الثياب .

- سانتظرها إذاً .. ولكن هل تعلم أنك أصبت هوى من نفسها؟

- كلا ..

- ألم تذكر لك هي شيئاً بهذا المعنى؟!

- كلا ..

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لزيارتها .

- في منتصف الليل؟

- ولم لا .. ومع ذلك فإنها استقبلتني أسوأ استقبال .

- إنها ستحسن استقبالك في الحال .

- أتظنين ذلك؟

- إنني أحمل لها نياً ساراً .

- هذا حسن .. وإذا ، فقد حدثتني عني؟

- نعم بعد انصرافك أمس مع صاحبك .. وبهذه المناسبة .. كيف

حال صديقك؟ إنه يدعى غاستون .. أليس كذلك؟

- نعم .

ولم أملك من الإبتسام عندما تذكرت الحديث الذي أسره إليّ

غاستون بالأمس .. ورأيت أن برودنس لا تكاد تعرف اسمه .

قالت :

- إنه شاب ظريف .. فما مهنته؟

- إنه لا يؤدي عملاً على الإطلاق .. وإيراده السنوي خمسة

وعشرون ألفاً من الفرنكات .  
 - آه .. أحقاً ما تقول؟ ولكن لتحدث عنك أنت .. لقد ألفت عليّ مرغريت عشرات الأسئلة ..  
 أرادت أن تعرف من أنت .. وما هو عملك .. وكيف تقضي وقتك .. ومن هنّ عشيقاتك السابقات .. وبالاختصار .. كل ما يهم المرأة معرفته عن شاب في مثل سنك . فحدثتها بكل ما أعرف .. وأضفت إلى ذلك أنك شاب ظريف ..  
 - شكراً لك .. والآن أنبئني .. ما هي المهمة التي كلفتك بها أمس؟  
 - إنها لم تكلفني أمس بأية مهمة .. اللهم إلا العمل على التخلص من الكونت .. بيد أنها كلفني اليوم بمهمة أخرى .. وهي تنتظر الآن نتيجتها .  
 وفي هذه اللحظة أقبلت مرغريت .. وقد زينت شعرها الجميل بأشرطة حريرية صفراء .. وما إن وقع بصرها على برودنس حتى هتفت :  
 - هل قابلت الدوق؟ ماذا قال لك؟  
 - لقد أعطاني ..  
 - كم أعطاك؟  
 - ستة آلاف .  
 - هل جئت بها؟  
 - نعم .  
 - هل بدا عليه شيء من دلائل الضجر والسأم؟  
 - كلاً .

- مسكين هذا الرجل !  
 وقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة يتعذّر فهم مغزاها . ثم تناولت من برودنس ست أوراق مالية واستطردت :  
 - لقد جاء هذا المبلغ في الوقت المناسب .. فهل أنت بحاجة إلى شيء من النقود يا عزيزتي برودنس؟  
 - أنت تعلمين يا بنيتي .. أنّ غداً هو اليوم الخامس عشر من الشهر وأنه يتعيّن عليّ سداد لائحة من الديون .. فإذا أفرضتني ثلثمائة أو أربعمئة فرنك فإنك تسدين إليّ يداً لا أنساها .  
 - حسناً .. أرسلني غداً صباحاً في طلب هذا المبلغ .. لأنّ من المتعذّر الآن استبدال إحدى الأوراق المالية .  
 - لا تنسي .  
 - كوني مطمئنة .. هل تتناولين طعام العشاء معنا؟  
 - كلاً .. إن شارل ينتظرنني في منزلي .  
 - ألا زلت مولعة به؟  
 - إلى حد الجنون يا عزيزتي .. إلى اللقاء غداً إذا .. إلى اللقاء يا أرمان ..  
 وانصرفت .. وفتحت مرغريت أحد الأدراج .. وألقت فيه الأوراق المالية .  
 ثم قالت وهي تبتسم وتشير نحو فراش :  
 - هل تسمح لي أن أتمدد في الفراش؟  
 - أنا لا أسمح فقط .. بل وأرجوك ..  
 - والآن .. تعال واجلس على حافة الفراش ولتحدث .  
 \*  
 أصابت برودنس حقاً .. فإن الرّد الذي تسلّمته مرغريت أعاد إليها

هدوءها وجذلتها ..

قالت وهي تتناول يدي :

- هل تغفر لي ما بدا من ضجري وضيق صدري هذا المساء؟

- إنني على استعداد لأن أعفر لك أكثر من ذلك .

- وهل تحبني؟

- حب جنون .

- رغم سوء خلقي؟

- رغم كل شيء .

- هل تقسم؟

فأجبت بصوت خافت :

- نعم .

وعندئذ أقبلت ناظرة تحمل الطعام .. وزجاجة من النبيذ وبعض الفاكهة .

قالت مرغريت :

- ضعي الطعام على المائدة الصغيرة .. وقرّبيها من الفراش ..

إنني أتعبتك بالسهر الطويل في الليالي الثلاث الماضية .. فاذهبي الآن إلى فراشك .. فلست بحاجة إليك .

- هل يجب أن أوصد الباب الخارجي؟

- أظن ذلك .. ولا أريد أن يدخل غرفتي أحد قبل ظهر الغد .

## الفصل الثاني عشر

في الساعة الخامسة صباحاً .. عندما بدأ ضوء النهار يتغلغل من خلال الستائر .. قالت لي مرغريت في همس :

- معذرة إذا طلبت إليك الانصراف الآن .. ولكن لا مفر من ذلك .. فالدوق يأتي لزيارتي كل صباح .. وستقول له وصيفتي إنني نائمة .. ولكن يحتمل أن يبقى ريثما أستيقظ .

فتناولت رأسها الجميل بين يدي .. وأودعت شفيتها قبلة أخيرة ..  
وسألتها :

- ومتى أراك مرة أخرى؟

فأجابت :

- أصغ إليّ .. خذ المفتاح الصغير الذي تجده على حافة الموقد .. وافتح به الباب ثم أعدده إلى مكانه .. واذهب في سبيلك .. وستصلك في خلال النهار رسالة تتضمن أوامري .. فأنت تعلم أنه ليس لك إلا أن تطيعني طاعة عمياء ..

- أعلم ذلك ... ولكن هبي أنثي أريد بدوري أن أسألك أمراً ...

- ما هو؟

- هو أن تسمح لي بالاحتفاظ بهذا المفتاح ..

- إنني لم أسمح بذلك لأي إنسان من قبل!

- لا بأس .. فاسمحي لي به فإن أحداً من الرجال لم يحبك كما أحبك .

- حسناً .. خذه إذا .. ولكنني أصارحك بأن فائدة هذا المفتاح وعدم فائدته ... متعلقة بإرادتي .

- وكيف ذلك؟

- إنَّ للباب مزلاج داخلية ..

- ما أقسى قلبك!

- ولكنني سأمر بإزالتها ..

- فأنت تحبيني بعض الحب إذا؟

- لا أستطيع أن أفهم شعوري حق الفهم .. ولكنني أظن أنني أحبك .. والأآن .. إليك عني .. فإنتي في أشد الحاجة إلى النوم .. فضممتها إلى صدري .. ثم ودعتها وانصرفت ..

•

كانت الشوارع مقفرة .. والمدينة العظيمة لا تزال ساكنة هاجمة .. فمشيت مرفوع الرأس .. تماماً كمن يريد أن يبلغ الجبال طولاً .. وأخذت أسترجع في ذهني أسماء أولئك الذين كنت فيما مضى أغبطهم فلم أجد بينهم واحداً أسعد مني بعد اليوم .

•

واستغرقت في نوم عميق .. واستيقظت عندما حمل إليَّ الخادم رسالة من مرغريت تقول فيها «هذا المساء .. في مسرح الفودفيل ... بعد الفصل الثالث» .

فوضعت هذه الرسالة تحت وسادتي .. لألمسها بيدي .. كلما توهّمت - كما حدث مراراً - أنني في حلم لا في يقظة .

•

ولم تطلب إليَّ مرغريت أن أقابلها نهاراً .. ولم أجرؤ أنا على الذهاب إلى بيتها .. ولكنني شعرت برغبة شديدة في أن أراها قبل المساء .. ولم أجد وسيلة أفضل من الانطلاق إلى حديقة الشانزليزيه حيث اعتادت أن تذهب بمركبتها كل يوم ..

وقد رأيتها هناك .. ولكنني حرصت على ألا أدعها تراني .

•

وفي الساعة السابعة قصدت إلى مسرح الفودفيل .. ولم يحدث قط قبل ذلك أنني دخلت مسرحاً في هذه الساعة المبكرة ..

وأخذت الشرفات تمتلئ تدريجياً .. ولم تبق إلا شرفة واحدة خالية فلم أحول بصري عنها .. وما بدأ الفصل الثالث حتى فتح باب هذه الشرفة .. ودخلت مرغريت ..

وكان أول ما فعلته .. أنها أجالت البصر في جوانب المسرح .. حتى أبصرت بي فشكرتني بنظرة .

•

كانت ساحرة الجمال في ذلك المساء ..

فهل كنت أنا سبب هذه الفتنة يا تُرى؟

وهل هي تحبني بحيث تعتقد بأنه كلما ازدادت فتنتها .. كلما تضاعفت سعادتي؟

لا أعلم ... ولكن لو كان ذلك غرضها .. فإنها نجحت دون ذلك أبعد حدود النجاح .. لأنها ما كادت تتربّع في مكانها حتى تحوكت إليها الأبصار .. وتهامس النظارة . ولم يتمالك الممثلون أنفسهم من التحديق نحو الغانية الفاتنة التي حوكت عنهم أبصار المتفرجين .

وقد كان في جيبي مفتاح بيت هذه الغانية اللعوب .. وبعد ثلاث أو أربع ساعات ستصبح هذه الغانية لي مرة أخرى ! فهل يوجد في ذلك المسرح .. بل هل يوجد في العالم كله .. إنسان أسعد مني؟

•

لقد تعودنا أن ننحى باللائمة على الشباب الذين يجلبون على

أنفسهم العار والدمار من أجل الغايات ونساء المسارح . . ولكن ما يدهشي هو أن أولئك الشباب لا يقدمون على المزيد من الحماقات من أجل أولئك النساء . . وأنه ليتعجب عليك أن تعشق إحدى الغايات لكي تعلم كيف تساعد عبارات الإعجاب والإطراء التي يحتكرها الناس لأولئك النساء على تمكين حبيهن من قلوب عشاقهن .

ودخلت المقصورة في إثر مرغريت امرأة عرفت فيها برودنس . . ورجل عرفت فيه الكونت دي . ج . الذي رأيت صورته في بيت مرغريت . . والذي قالت برودنس إن مرغريت تدين له بالمكانة التي تبوؤها .

وما كدت أرى هذا الرجل حتى غشيت قلبي منه برودة . . شلته عن الحركة .

ولا شك أن مرغريت لاحظت الانقلاب الذي طرأ على سحتي بسبب وجود هذا الرجل . . لأنها ابتسمت لي مرة أخرى . . ثم تحوكت عن الكونت وتظاهرت بالاهتمام بالمرحبة التي تمثل .

عند نهاية الفصل الثالث . . نظرت مرغريت إلى الكونت . . وقالت له كلمتين . . فنهض الرجل . . وغادر المقصورة . . وعندئذ دعنتي مرغريت إلى مقصورتها بإيماءة من رأسها .

قالت لي وهي تبسط إلي يدها :

- طاب مساؤك . .

فأجبت أحبيها وأحيي صديقتها برودنس :

- طاب مساؤكما .

قالت :

- اجلس .

فأجبت :

- هل أحتل مقعد رجل آخر؟ إن (الكونت دي ج .) سيعود دون شك .

- نعم . . إنني طلبت إليه أن يأتي بي بعض الحلوى . . لكي يخلو لنا الجو فتحدث لحظة .

إنني أثق في برودنس . . وأطمئن إلى كتمانها أمرنا .

فقالت برودنس :

- نعم . . نعم . . كونا مطمئنين . . فلن أبوح بكلمة .

فقالت مرغريت وهي تقترب بمقعدها مني :

- ماذا دهاك هذا المساء؟

- إنني لست في خير حال .

فقالت ساخرة :

- إذاً ، يجب أن تلزم الفراش !

- أين؟

- في منزلك .

- أنت تعلمين جيداً . . أن النوم لن يجد سبيلاً إلى أجفاني هناك .

- إذاً لا يجب أن تتجهم لنا . . لغير ما سبب إلا أنك رأيت رجلاً

في مقصورتني !

- ليس هذا هو السبب .

- إنه السبب . . وأنا واثقة من ذلك . . ولكنك مخطئ . . فلتترك

الحديث في هذا الآن .. ومتى انصرفنا من المسرح فاذهب إلى بيت  
برودنس وانتظر هناك حتى أدعوك . هل سمعت؟!

- نعم ..

وهل كان في استطاعتي إلا أن أسمع فأجيب وأطيع .

وسألت :

- ألا زلت تحبني؟

- هل تسأليني؟

- وهل فكرت في؟

- كل النهار .

- هل تعلم أنني أصبحت أخشى الوقوع في شرك غرامك حقاً؟

سل برودنس فتبتك .

فهتفت برودنس :

- آه .. نعم هذا صحيح ..

قالت مرغريت :

- اذهب الآن إلى مقعدك .. فقد أوشك الكونت أن يعود ..

وليس من الضروري أن يجدهك هنا .

- لماذا؟

- لأنك تتألم إذا قابلته .

- كلاً .. لو قلت لي فقط إنك تريدني الحضور إلى مسرح

الفودفيل لاحتجرت لك هذه المقصورة عوضاً عنه .

- أيها التعس .. لقد احتجز لي هذه المقصورة دون أن أطلب إليه

ذلك .. ثم توسّل إليّ أن أرافقه .. فلم أستطع رفض توسلاته ..

وكل ما استطعته .. أنني كتبت إليك أنبئك بمكاني .. ليتسنى لك أن

تراني .. ثم لأنه طاب لي أن أراك قبل الموعد المتفق عليه بيننا ..

ولكن ما دمت قد شكرتني بهذا التجهّم وهذا العبوس .. فإني

سأفقد من هذا الدرس مستقبلاً ..

- إنني أخطأت .. فاغفري لي .

- هذا خير ما قلت .. والآن .. عد إلى مقعدك هنيئاً ناعم

البال .. وحذار أن تغار .

وانصرفت من مقصورتها .. وصادفت الكونت وهو في طريقه

إليها .

ويعد .. فقد كان وجود الكونت في مقصورتها أمراً طبيعياً .

إنه كان عشيقها في أحد الأيام .. وقد احتجز مقصورة في ذلك

المسرح .. وطلب إليها أن ترافقه .. فرافقه .. فهل في ذلك غرابة؟

وما دمت أريد هذه الفتاة عشيقاً لي .. أفلا يجب أن أقبل عاداتها

وطبائعها وأغضّ عن سوء تصرفاتها؟!

ومع ذلك فإني كنت شديد التعاسة جرّاء ذلك .. وتضاعفت

تعاسي عندما رأيت مرغريت وبرودنس تنصرفان مع الكونت في

مركبته .

ولم تنقض ريع ساعة حتى كنت في بيت برودنس .. وكانت قد

وصلت إليه لتوها .

### الفصل الثالث عشر

قالت برودنس محدثني وأنا عندها :

- إنك جئت بمثل سرعتنا!

فأجبت بلهجة آلية :

- نعم .. فأين مرغريت؟

- إنها في بيتها .

- وحدها؟

- كلاً .. إنها مع الكونت دي ج ...

فأخذت أسير للتو في الغرفة جيئة وذهاباً .

سألني :

- ماذا بك؟

- ماذا بي؟! هل تحسبن أنني أجد متعة في الانتظار هنا حتى

ينصرف الكونت من حضرة مرغريت؟

فأجبت :

- إنك تخطئ الصواب القويم والتفكير السليم يا صديقي ..

يجب أن تفهم أن مرغريت لا تستطيع أن تطرد الكونت .. فهو

عشيقتها منذ زمن طويل .. وقد أعطاها وما زال يعطيها مبالغ طائلة .

إن مرغريت تنفق مائة ألف فرنك في العام .. وهي إلى ذلك

مثقلة بالديون .

والدوق يعطيها كل ما تطلب .. ولكنها لا تجسر على تحميله كل

نفقاتها وتحفظ بالكونت الذي يمدّها ببضعة آلاف من الفرنكات

شهرياً .

إن مرغريت تحبك .. ولكن لخبرك وخبرها على السواء .. ألا

تتخذ الصلة بينكما صبغة جدية .. لأنك لا تستطيع بإيرادك الذي لا

يتجاوز سبعة أو ثمانية آلاف فرنك أن ترضي إسراف هذه الفتاة ..

بل إن إيرادك كله لا يكاد يكفي نفقات مركبتها .. لذلك يحسن بك  
أن تقبل مرغريت كما هي .. وألا ترى فيها إلا أنها فتاة طيبة ذكية  
حسنة .

كن عشيقتها شهراً أو شهرين .. واحمل إليها الحلوى وباقات  
الزهر .. ولكن لا تتخيّل في ذهنك شيئاً من الأوهام والحماقات ..  
وتجنّب إزعاجها بغيرتك .

أنت تعرف مرغريت حق المعرفة .. وتعلم جيداً أنها لا ترضى أن  
يسيطر عليها أحد . وهي معجبة بك .. وأنت شغوف بها .. فاقنع  
بذلك .. ولا تزعج نفسك بغيره .

إنك تنعم بأجمل غانية في باريس .. وهي تستقبلك في مخدعها  
الفخم .. ولا تكلفك سنتيماً واحداً! فكيف لا تقنع بكل هذا؟ إنك  
في الحق رجل يستحيل إرضاءه!

- لا شك أنك على حق يا برودنس .. ولكنني أتألم أشد الألم  
لمجرد التفكير في خلونها الآن .. مع هذا الرجل الذي كان عشيقتها  
في أحد الأيام .

- وهل هو لا يزال عشيقتها؟ إنه رجل تشعر بحاجتها إليه .. فلم  
تجسر على رفض دعوته عندما دعاها لمرافقته إلى المسرح .. وقد عاد  
معها إلى بيتها .. ولكنها لن تسمح له بالبقاء معها لسبب واحد على  
الأقل .. هو وجودك هنا .

غير أنني أعجب لك .. كيف تنقم على صلة مرغريت بهذا  
الكونت ولا تنقم على صلتها بالدوق؟!

- إن الدوق رجل متقدم في السن .. وأنا واثق أن مرغريت ليست  
عشيقتك .



وفضلاً عن ذلك .. فإن الإنسان قد يغض الطرف عن صلة واحدة .. ولكنه لا يتجاوز عن صلتين ! فسهولة التجاوز عن هذه الصلات - ولو بدافع الحب - تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل الذي يتخبط فيه المتجرون بالأعراض .

- أنت من الطراز القديم يا صديقي العزيز .. فكم من النبلاء والأغنياء والمبرزين في الهيئة الاجتماعية من يفعل بغير تردد .. أو شعور بالخلج ووخز الضمير .. ما أنصح لك الآن بأن تفعله ! وهل تعتقد أن في استطاعة غانية من غايات باريس المعروفات أن تحتفظ بمظاهر الأبهة والرفاهة ما لم تتخذ ثلاثة أو أربعة من العشاق في وقت واحد؟ إنَّ الرجل إذا لم يكن واسع الغنى فإنه يعجز عن إجابة فتاة مثل مرغريت إلى كل مطالبا .

يكون الرجل واسع الغنى في باريس إذا بلغ إيراده خمسمائة ألف من الفرنكات .. ولكن هذا الإيراد على ضخامته لا يكاد يكفي لإرضاء فتاة كمرغريت .. واليك السبب ..

يتعين على صاحب مثل هذا الإيراد أن يكون له قصر وخدم وحشم وأصدقاء .. ومركبات .. وجياد .. وكلاب للصيد .. ويتعين عليه أن يقامر ويكثر من السياحة والسفر شأن أمثاله .. وكل هذه تقاليد مقررة لا يستطيع أن يتجاوز عن إحداها دون أن يثير الشكوك في متانة مركزه المالي . فإذا عرفنا ما تقتضيه هذه التقاليد من نفقات وجدنا أنه لا يستطيع أن يهب عشيقته أكثر من أربعين أو خمسين ألفاً من الفرنكات في العام . فمأذا تستطيع الغانية المبرزة أن تصنع بهذا المبلغ؟؟ إنها تستعين حتماً بأكثر من عشيق آخر لتمكن من موازنة ميزانيتها والاحتفاظ بما تعودت عليه من مظاهر الأبهة والجمال .

على أن حال مرغريت يختلف عن حال غيرها .. وقد كان من حسن حظها أنها صادقت ذلك الدوق الشيخ .. وهو رجل واسع الغنى .. فقد زوجته وابته ولم يبق له إلا بعض الأقرباء .. وكلهم أغنياء مثله .. فهو لا يزرع تحت ثقل من الالتزامات كما يزرع سواه .. وفي استطاعته أن يجيب مرغريت إلى ما تطلب دون أن يسألها شيئاً .

ولكن مرغريت لا تطالبه بأكثر من ستين أو سبعين ألف فرنك في العام .. وأنا واثقة من أنها إذا طلبت المزيد فإنَّ الشيخ - رغم غناه وعطفه عليها - قد يرفض طلبها ..

وجميع الشباب الذين يتراوح إيرادهم بين ٢٠ و٣٠ ألف فرنك - وهو مبلغ لا يكاد يكفي نفقاتهم الشخصية في الوسط الذي يعيشون فيه .. والأماكن التي يختلفون إليها - جميع هؤلاء الشباب يعلمون - متى أصبحوا عشاقاً لفتاة مثل مرغريت - أنَّ كل إيرادهم لا يكفي إيجاراً لبيتها .. ولكنهم لا يقولون لها إنهم يعلمون ذلك .. بل هم يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئاً .. حتى إذا نالوا بغيتهم .. وطأبوا نفساً .. انطلقوا لشأنهم .. وتركوها لشأنها . أما من دفعه الغرور منهم إلى الاضطلاع بالمسؤولية كلها فإنه ينتهي حتماً إلى الإفلاس ثم إلى الفرار أو الانتحار .. بعد أن يترك وراءه عبئاً ثقيلاً من الديون .

ولا يكون بذلك كله قد استحق عطف الغانية أو استوجب شكرها .. بل على العكس .. ستقول الغانية إنها ضحّت بمركزها أيضاً من أجله .. وإنها فقدت في معاشرة كثيراً من المال .

ولا شك أنك ستجد هذه التفصيلات مهينة لك .. مذلة لكبيرائك .. ولكنها تعبر عن الحقيقة والواقع .. فقد قضيت عشرين

عاماً مع هذا الطراز من الفتيات .. حتى عرفت قيمتهنَّ والرأي  
عندي ألا تقيم وزناً كبيراً لعواطفهنَّ .

ولكن لنفرض أن حبك تمكّن من قلب مرغريت .. وأن الدوق  
والكونت لاحظا الصلة بينكما .. وخيَّراها .. فاختارتك من  
دونهما .. فماذا يكون بعد ذلك؟؟ .. وماذا تستطيع أن تصحي في  
سبيلها لقاء تضحيتها الجسيمة في سبيلك؟! ومتى نلت منها بغيتك  
ومللتها .. فكيف تعوضها عمّا فقدت ولأجلك وسببك .. وإرضاءً  
لك؟! !

إنك لا تملك وسيلة لتعويضها .. وتكون فقط قد عزلتها عن  
العالم الذي تعيش فيه .. وفيه وحده مستقبلها .. وثروتها .. وبقاؤها  
على ما هي فيه من بدخ وترف .

وتكون هي بدورها قد ضيعت معك أتمن سني حياتها ..  
وقطعت الصلة بينها وبين أصدقائها وعشاقها السابقين .

وعندئذ تصبح أنت أحد رجلين .. إمّا رجلاً من الطراز العادي  
فترميها بأنامها وأوزارها .. وتقول لها إنك لا تستطيع أن تفعل من  
أجلها غير ما فعله غيرك من عشاقها .. ثم تتركها في شقوتها  
ويؤسها وتذهب في سبيلك .. وإمّا أن تكون رجلاً شريفاً كريم  
النفس طيب الخلق .. ترى أن من حقها عليك أن تبقيها عندك ..  
فترضخ لهذه الكارثة مرغماً .. وتشعر دائماً بأنها فذّي في عينيك .  
وشوكة في حلقك .. وعقبة كأداء في سبيل مستقبلك ومطامعك ..  
وسعادتك العائلية ..

فاعمل بنصيحتي أيها الصديق إذا .. وخذ الأشياء بقيمتها الفعلية  
والمرأة بقيمتها السطحية .. ولا تمنح فتاة من طراز مرغريت الحق في

أن تعتبر نفسها دائنة لك بحال .

لم أجد ما أقوله ردّاً على هذا التدليل المنطقي المعقول .. والذي  
أدهشني صدوره عن امرأة كبرودنس .. ولم يسعني إلا الاعتراف لها  
بالوفاء وبعد النظر .. قشددت على يدها .. وشكرت لها نصيحتها  
الثمينة .

قالت :

- رفه عنك إذا .. واطرد الأوهام الحالكة التي تملأ ذهنك ..  
واضحك .. فإن الحياة متممة يا صديقي .. وإن اختلفت ألوانها  
باختلاف المنظر الذي تراها به .

سل صديقك غاستون .. فإنه يفهم معنى الحب كما أفهمه ..  
ويحسبك أن تشعر الآن - اللهم إلا إذا كنت جامد العاطفة - بأنّ  
على مقربة منا فتاة حسنة .. تفكر فيك .. وتحبك .. وتنتظر  
انصراف زائرها بفارغ الصبر لكي تشارك في فراشها .. وتقضي  
معك ليلتها .

والآن .. تعال معي إلى النافذة لنرغب انصراف الكونت معاً .

قالت هذا وفتحت النافذة .. وراحت تنظر إلى العابرين .

أمّا أنا فذهبت أحلم .. وأفكر .

كان كلامها لا يزال يطن في أذني .. ولم يسعني إلا الاعتراف  
بأنه عين الحق والحكمة . ولكن كيف يستقيم هذا الكلام مع الشعور  
القوي الذي أكنه لمرغريت؟

وأفلتت من بين شفّتي على الرغم مني أمة عميقة .. جعلت

مرحاً طروباً كصاحبتي .. فكان مرحي مفتعلاً .. وكانت ضحكاتي أقرب إلى البكاء .

رفعت المائدة .. وبقيت وحدي مع مرغريت .

وجلست مرغريت على سجادة نغيسة أمام الموقد .. وراحت تنظر إلى النيران في حزن وأسى .

كانت تفكر .. ولكن فيم كانت تفكر؟  
قالت لي فجأة :

- تعال .. واجلس بجانبني .

فأطعت .

قالت :

- هل تعلم فيما أفكر؟

- كلاً .

- إنني أفكر في خطة خطرت لي .

- وما هي هذه الخطة؟

- لا أستطيع أن أحدثك بها الآن .. ولكنني أذكر لك نتيجتها المنتظرة .

سيترتب على هذه الخطة أن أصبح بعد شهر حرة طليقة .. ولا دين عليّ لأحد من الدائنين .. فنذهب معاً لقضاء الصيف في الضواحي .

- ألا تحدثيني بمضمون هذه الخطة؟

- كلاً .. ولكن يجب فقط أن تحبني كما أحبك .. فيسير كل شيء في مجراه الطبيعي .. وتنجح خطتي .. وأنال أربي .

برودنس تنظر إلي .. ثم تهز كتفيها .. كما يفعل الطبيب إذا يش من مريضه فأسلمه ليد الردى .

قلت لنفسي :

- لشد ما يشعر الإنسان بقصر الحياة من هذه الانفعالات السريعة التي تأخذ برقاب بعضها بعضاً في أقصر وقت .. إنني لم أعرف مرغريت إلا منذ يومين .. ولم تصبح عشيقتي إلا منذ يوم .. ولكنها احتلت من قلبي وتفكيرى وحياتي مكانة جعلتني أرى في زيارة الكونت دي . ج . لها كارثة شخصية دونها كل الكوارث .

وانصرف الكونت أخيراً .. وأطلت مرغريت من نافذتها .. ودعنتا إليها ..

وما كدت أدخل حتى أحاطت عتقي بساعديها .. وضمتني إلى صدرها بحرارة .

سألنتي :

- ألا زلت مقطباً متجهّم الوجه؟

فقالت برودنس :

- كلاً .. لقد زال غمهمه .. فإنني ألقيت عليه محاضرة قيمة ..

وعد على أثرها بأن يغيّر سلوكه .

- هذا من حسن الحظ .

وجلسنا إلى مائدة الطعام .

كانت مرغريت في تلك اللحظات مثال الفتنة والحيوية ودماثة الخلق .. فقلت لنفسي ماذا أريد منها غير ذلك .. أو أكثر من ذلك؟

وحاولت أن أضع نظريات برودنس موضع التنفيذ .. وأن أكون

- هل دبرت هذه الخطة بنفسك؟

- نعم ..

- وفي نيتك تنفيذها بمفردك؟

- فأجابت وعلى شفيتها ابتسامة:

- سأحتكر منابعها لنفسي .. ولكننا سنقسم ثمارها معاً .

- فأحمرّ وجهي عندما سمعت كلمة (ثمارها) .. لأنها ذكرتني

كيف كانت «مانون ليسكو» تبعثر مع عشيقها أموال الشيخ النبيل الذي وقع في حبالها .

- قلت بجدّة .. وأنا أنهض واقفاً:

- اسمحي لي يا عزيزتي مرغريت بأن أنفض يدي من (فوائد

وثمار) أية خطة لا أقوم بنفسي على تديرها وإنفاذها .

- ما معنى هذا؟

- معنى هذا أنني أرتاب بقوة في أن للكونت دي ج . ضلعاً في

الخطة السعيدة التي تتكلمين عنها .. والتي لا أقبل مسئوليتها أو فوائدها .

- أنت طفل كبير .. لقد حسبت أنك تحبني .. ولكنني كنت

واهمة!

ثم نهضت إلى البيانو وراحت تعزف الأشودة التي عزفتها وترغمت

بها ليلة أن عزفتها لأول مرة .

ولا أعلم هل عزفتها لشغفها بها .. أو لأنها أرادت أن تذكرني

بتلك الليلة؟

وكل ما أعلمه هو أن مع هذه الأشودة عاودتني الذكريات ..

فدنوت منها .. وأمسكت برأسها بين يدي وقبّلت جبينها .

وسألتها:

- هل تصفحين عني؟

- فأجابت:

- أنت ترى أنني صفحت .. ولكنني أرجو أن تلاحظ بأننا ما زلنا

في يومنا الثاني فقط .. ومع ذلك فهناك ما يستوجب صفحي .

إنك لا تقيم كبير وزن لعودك لي بالطاعة العمياء .. ألا ترى

ذلك؟

- ماذا تنتظرين مني يا مرغريت؟ إنني أحبك كثيراً .. وأغار من

مجرد الخواطر التي تطوف بذهنك .

وهذا الاقتراح الذي عرضته عليّ منذ لحظات قد جعلني أظير

فرحاً .. ولكن السر الذي يحيط بالخطة التي تؤدي إليه أحزنني ..

وهمني .. وأثار شكوكي وريبتي .

- فأمسكت بكلتا يديّ .. وقالت وعلى شفيتها تلك الابتسامة

الخلابة التي لا تقاوم:

- دعنا نتفاهم .. أنت تحبني .. اليس كذلك؟ وتكون سعيداً إذا

خلوت بي شهرين أو ثلاثة في الضواحي؟ أنا كذلك أكون سعيدة

بهذه الخلوة المزدوجة .. ليس فقط لأنني أجد فيها المتعة والهناء وإنما

كذلك لأنها ضرورة علاجية لصحتي . ولكنني لا أستطيع أن أغيب

عن باريس مثل هذه المدة الكبيرة دون أن أرتب شؤوني .. وشؤون

مخلوقة من طرازي تكون عادة شديدة الاضطراب والارتباك .. غير

أنني اكتشفت وسيلة للتوفيق بين شؤوني وحبّي لك .. نعم .. حبي

لك .. فلا تضحك! فقد بلغ من جنوني أنني أحبتك .. ومع ذلك

فإنك تشمخ بأنفك وتكيل لي الكلام جزافاً ..

أيها الطفل .. أيها الطفل الكبير .. تذكر فقط أنني أحبك .. لا  
تزعج نفسك بشيء آخر . هل اتفقنا؟ أحب !  
- أنت تعلمين أنني أوافق على كل ما يرضيك .. وأن لا إرادة لي  
غير إرادتك .

- حسناً .. إذا بعد شهر نكون في إحدى القرى .. حيث نمشي  
على حافة الغدير .. ونشرب الحليب .. وقد يبدو غريباً أن ترضى  
مرغريت جوتيه بالحياة على أبسط ألوانها .. ولكن هذه الحياة  
الباريسية التي يخيل إلى الذين يعرفونني أنها تدخل السرور على  
نفسي .. هذه الحياة تعيني وتضئني .. حينما لا تحرقني . ثم إنني  
قد ملكتني فجأة رغبة شديدة في حياة هادئة تذكرني بحياة الطفولة .  
كل إنسان قد عرف هدوء الطفولة مهما تكن الحياة التي عاشها  
بعد ذلك .. ولكن لا تتزعج .. فليس في نيتي أن أقول لك إنني  
كنت من أسعد الأطفال .. أو إنني ابنة ضابط كبير متقاعد .. وإنني  
قد تلقيت علمي في كلية «سان دينيس» حيث تتعلم بنات النبلاء  
والأغنياء .

كلاً .. كلاً .. فما أنا إلا فتاة ريفية فقيرة .. ومنذ ستة أعوام لم  
أكن أعرف كيف أكتب اسمي .. فهل اطمأن قلبك الآن؟ ولعلك  
تعجب لماذا وقع اختياري عليك دون سائر الرجال لكي تشاطرنى متعة  
الحياة الهادئة التي أصبو إليها .. فهل تعلم لماذا؟ لأنني شعرت بأنك  
تجمني لشخصي حباً خالياً من أدران الأثنية .. بينما غيرك من الرجال  
قد أحبوني فقط لإرضاء لشهواتهم .. وإشباعاً لغرورهم ولذائدهم .

لقد ذهبت إلى الأرياف مراراً .. ولكن ليس كما كنت أحب أن  
أذهب .. وأنا الآن أعتد عليك للحصول على السعادة التي أنطلق

إليها .. فلا تكن خشن الطبع .. وامنحني هذه النعمة .. وقل  
لنفسك «إنها سوف لا تعيش حتى تبلغ مبلغ الكهولة .. وأنا سوف  
لا أندم في أحد الأيام على أنني لم أحبها إلى أول مطلب لها ..  
وهو على كل حال مطلب سهل ميسر» .

•  
بماذا كان في استطاعتي أن أجيب على لهجة كهذه اللهجة؟ بينما  
ذكرى ليلتنا الأولى لا تزال تحتل ذهني .. وبينما أنا في انتظار الليلة  
الثانية؟

•  
وبعد ساعة أخرى .. كانت مرغريت بين ذراعي .. ولو سألتني  
في تلك اللحظة أن ارتكب جريمة لأطعمتها واقتربتها .

•  
ومضى الليل .. واقتربنا في الساعة السادسة صباحاً .. وقلت لها  
قبل أن أنصرف :  
- إلى اللقاء في هذا المساء .

فقبلتني بلطف .. ولكنها لم تجب !  
وحول الظهر .. جاءني منها هذه الرسالة :  
«صديقي العزيز  
«إنني مريضة . والطبيب يأمرني بالراحة . وسألوذ بفراشي في  
ساعة مبكرة . فلن أراك الليلة . ولكنني أعوضك بأن أنتظرك ظهر  
غد . إنني أحبك» .

•  
قرأت هذه الرسالة وقلت لنفسي في الحال : «إنها تخونني» ..

لم يكن ثمة شك في أن مرغريت أمرت بالأب يزورها أحد . .  
وتلك عاداتها كما عهدتها . . ولكن كان في استطاعتي أن أخرق  
أوامرها . . لأن مفتاح شقتها في جيبى .  
بيد أنني أشفت أن أثير فضيحة مضحكة . . فانطلقت في  
سيلى .

ولكني لم أعد للتو إلى منزلي . . ولم أبرح شارع دانتان . . ولم  
أحوك بصري عن بيت مرغريت .  
شعرت بأن هناك أشياء يجب أن أعرفها . . وشاءت الأقدار أن  
تحقق شكوكي . . فما كاد الليل يتصف حتى وقفت بالباب  
مركبة . . وهبط منها رجل عرفته فيه الكونت دي ج .  
وأمر الكونت سائق المركبة بالانصراف . . ودخل البيت .

ورجوت في تلك اللحظة أن يكون حظه كحظي . . وأن يقال له  
إن مرغريت لم تعد بعد إلى بيتها . . وأن أراه يخرج من البيت  
مغضباً كثيراً كما خرجت أنا .  
ولكن الساعة دقت الرابعة صباحاً وأنا لا أزال أنتظر خروجه .

كنت قد قاسيت كثيراً في الأسابيع الثلاثة الأخيرة . . ولكن ما  
قاسيته في تلك الليلة كان يفوق طاقة البشر . . كل البشر .

### الفصل الرابع عشر

لَمَّا عدت إلى بيتي . . استلقيت وانفجرت باكياً كالاطفال .

وتصبّب العرق البارد على جبينى . . ووجب قلبي . . فقد كنت  
أحب هذه المرأة حباً يجعل من مثل هذه الريبة جحيماً .  
ومع ذلك فإنه كان يجب عليّ أن أتوقع هذه الخيانة يومياً من  
امرأة كمرغريت . . وقد خانتني قبلها كثيرات من عشيقاتي . . فلم  
أقم لخياتهنّ وزناً . . فما السر إذاً في سيطرة هذه المرأة على كياني  
كله .

وخطر لي أن أذهب إلى بيتها مساء كعادتي . . ما دمت أملك  
مفتاحه . . وهكذا أقطع الشك باليقين بأسرع ما يمكن . . وإذا وجدت  
عندها عشيقاً فلنني أهينه وأطرده .

وذهبت إلى الشانزليزيه وقضيت هناك أربع ساعات . . ولكنني لم  
أرها .

وفي المساء . . تردّدت على جميع المسارح التي اعتادت مرغريت  
أن تغشاها . . ولكنني لم أجد لها أثراً .

وحوالى الساعة الحادية عشرة . . ذهبت إلى شارع دانتان . . ولم  
المح نوراً من نوافذ بيت مرغريت . . ومع ذلك فلنني قرعت  
الجرس . . وسألني البواب عمّا أطلب . . فأجبت :  
- إنني جئت لزيارة الأيسة مرغريت جوتيه .

قال :

- إنها لم تعد بعد .

- سأنتظرها في شقتها إذاً .

- لا يوجد أحد في الشقة .

لا يوجد رجل إلا خائنه المرأة التي يحبها ولو مرة واحدة . . ولا يوجد رجل إلا وبرح به الألم الذي تثيره هذه الخيانة .

قلت لنفسي . . وأنا أرزح تحت ثقل القرارات التي يتخذها الإنسان في مثل هذه الظروف . . إنني يجب أن أقطع صلتني بهذه المرأة . . وأن أنتظر حتى تبرز الشمس فأرحل إلى أبي وأختي . . حيث أستمع بالحب الطاهر البريء الذي لا يعرف معنى الخيانة . .

ومع ذلك فلإنني لم أشأ الرحيل دون أن تعرف مرغريت السبب . .

رجل واحد يستطيع أن يرحل دون أن يكتب لعشيقته . . وذلك هو العاشق الذي طلق الحب . . ونفض غباره عن حذائه .

تفتق ذهني عن مائة صيغة للرسالة التي أنوي كتابتها .

كنت حيال امرأة لا تختلف عن نساء طبقته . . امرأة أحللتها من نفسي فوق المكائنة التي تستحقها . . فعاملتني كغلام من غلمان المدارس . . وولجأت في خيانتها لي إلى حيلة مهينة في بساطتها . . وأصبح من الواجب أن أثار لكرامتي المخدوشة . . فلا أقل إذاً من أن أهجرها دون أن أترك لها شيئاً إلى معرفة السر في ألمي وعذابي .

وأخيراً تناولت القلم . . وكتبت إليها هذه الرسالة ودموع الحزن والغضب تملأ عيني:

«عزيزتي مرغريت

أرجو أن يكون مرضك بالأمس قد زال وزالت آثاره . . ولقد ذهبت إلى بيتك في الساعة الحادية عشرة للاستفسار عنك . . فقيل لي إنك لم تعودي ! ولكن الكوث دي ج . كان أسعد مني حظاً . .

لأنه ذهب إليك بعد بضع دقائق ! ودقت الساعة الرابعة صباحاً وهو لا يزال عندك . .

«مفعذرة عن الساعات القلائل المملّة التي جشمتك قضاءها معي . . وشكراً على اللحظات السعيدة التي أدين لك بها . . وقد كنت أود أن أستفسر عنك اليوم . لولا أنني بسبيل التاهب للسفر إلى أبي . .

«فوداعاً يا عزيزتي مرغريت . . إنني لست من الغنى لكي أحبك كما أريد . . ولا من الفقر لكي أحبك كما تريد . . فلتنس إذاً . . أنت ، اسماً لا يكاد يهملك . . وأنا ، سعادة لم تعد ممكنة .

«وهأنذا أرد إليك مفتاحك الذي لم أستخدمه قط . . والذي قد يفيدك كلما انتابك مرض كمرض أمس» .

ولعلك تلاحظ أنني لم أستطع إتمام رسالتي من غير تهكم وسخرية .

لقد قرأت الرسالة مراراً . . وطاب لي أن أتصور أثرها المولم في نفس مرغريت .

وفي الساعة الثامنة . . أمرت خادمي جوزيف أن يذهب بالرسالة إليها .

فسألني :

- وهل أنتظر ردّاً؟

فقلت له :

- إذا سألتك وصيفتها عمّا إذا كانت الرسالة تحتاج إلى ردّ . . فأجب بأنك لا تعرف . . وأنك ستنتظر حتى تقرأ السيدة الرسالة .

وكنت كلما مرت الساعات كلما زاد أسفي وندمي على أنني  
كُتبت تلك الرسالة الوقحة .

ودقت الساعة العاشرة .. والساعة الحادية عشرة .. ثم انتصف  
النهار .. وخطر لي عندئذ أن أذهب إليها في الموعد المتفق عليه ..  
كأنما لم يحدث شيء .. ولم أكتب شيئاً .  
وأخيراً ملكتني الحيرة ولم أعرف كيف أصنع لأخرج من الحلقة  
الفولاذية التي تحيط بي .

ودقت الساعة الواحدة وأنا لا أزال أنتظر .

وعندئذ فكرت .. كما يفكر أولئك الذين يتعلقون بالأوهام  
والخرافات .. في أنني إذا انصرفت من المنزل .. فقد أجد رذهاً في  
انتظاري عند عودتي .. فإن الردود التي ينتظرها الإنسان بفروغ صبر  
تصل دائماً في غيابه .

عند هذا الوهم انصرفت من المنزل بحجة الرغبة في تناول  
الطعام .. ولكنني لم أهتد إلى مطعم «فوا» حيث تعودت أن أتناول  
غداًتي .. بل فضلت أن أذهب إلى مطعم «فيري» في ميدان الباليه  
روايال .. وأن أمر في طريقي بشوارع دانتان . وكنت كلما رأيت امرأة  
على مبعدة مني كلما خيل إلي أنني أرى نانين وأنها في طريقها إلى  
بيتي حاملة إلي رسالة من سيدتها مرغريت .

ودخلت المطعم .. وقدم إلي الخادم ما شاء من الطعام .. ولكنني  
لم أتناول منه شيئاً .

وعدت إلى منزلي وأنا واثق من أنني سأجد فيه ردّ مرغريت على  
رسالتي .. ولكن خاب رجائي ..

والحقّ .. خفقت قلبي بعنف .. عندما لاح لي أمل في تسلّم رد  
منها .. فما أضعفتنا نحن معشر الرجال !

وقضيت فترة غياب الخادم وأنا في أشد حالات الاضطراب .  
تذكرت كيف أسلمتني مرغريت نفسها .. وقلت لنفسي : بأي  
حق أكتب إليها مثل هذه الرسالة الوقحة .. بينما في استطاعتها أن  
تجيبني بأن الكونت دي ج .. لم يخدعني ولم يخني .. ولكنني  
الذي خنته وخدعته .

ثم تذكرت وعودها .. وأحاديثها المعسولة .. وقلت إن لهجة  
رسالتي إليها كانت أخف مما ينبغي .

وأخيراً سألت نفسي : ترى بماذا ستجيبني؟  
وشعرت بأنني على استعداد لقبول أي عذر تسوّج به خيانتها .  
وعاد الخادم . فسألته في لهفة :  
- ماذا صنعت؟

أجاب :

- لقد قيل لي إن السيدة في فراشها .. وإنها لا تزال نائمة .. وإن  
الرسالة ستسلم إليها حالما تستيقظ .. وإذا كان ثمة ردّ فسيؤتى به  
إليك .

لا تزال نائمة !!

وخطر لي مائة مرة أن أنفذ خادمي لاسترداد الرسالة .. ولكنني  
كنت دائماً أقول لنفسي :

- ربما تكون قد تسلّمت الرسالة فعلاً ! فإذا أرسلت أستردها كان  
ذلك دليلاً على ندمي .



قلت وقد اسودت الدنيا في عيني: «لو كان في نية مرغريت أن تكتب لفعلت ذلك منذ وقت طويل» .  
وبدأت أندم على لهجة رسالتي .

لو أنني لزممت جانب الصمت المطلق لأحزنها ذلك وأفلقها . ثم متى وجدت أنني لم أذهب إليها في الموعد المتفق عليه بيننا . فإنها لا تبطئ أن تستفسر عن سبب غيابي . . وعندئذ أقول لها ما عندي . . فلا تجد أمامها إلا أن تسوِّغ سلوكها . وما كنت أريد منها إلا أن تسوِّغ سلوكها . . وأي عذر كانت ستلتصمه . . كان جديراً بأن يقتنعني . . فإنه أهون عليّ أن أقتنع بأي عذر من أن لا أراها أبداً .

وحاولت أن أقتنع نفسي بأنها ربما تأتي بنفسها للتفاهم . . أو الاعتذار .  
ولكن الساعات مرت طويلة . . وهي لا تأتي .

لا شك أن مرغريت لم تكن كغيرها من النساء . . فإنهن قليلات جداً . . بل هن معدودات . . أولئك اللاتي يتسلمن رسالة كرسالتي ولا يكتبن لها رداً .

وفي الساعة الخامسة . . ذهبت إلى الشانزليزيه . . وفي نيتي أن أتجاهلها إذا رأيتها . . لكي أشعرها بأنني لم أعد أفكر فيها . . وأنني انتزعتها من قلبي .

ولكنني ما كدت أتجول في شارع روابال حتى رأيت مركبتها أمامي .

كانت المقابلة فجائية . . بحيث خيل إليّ أن الدم قد غاض من وجهي .

ولا أعلم هل لاحظت مرغريت ما بدا من انفعالي . . لأنني في الواقع كنت من الاضطراب بحيث لم أر غير المركبة .

ولم أواصل السير إلى الشانزليزيه . . بل كانت هناك وسيلة أخرى لمقابلة مرغريت . فجعلت أقرأ إعلانات المسارح . . حتى وجدت أن هناك مسرحية جديدة ستعرض لأول مرة في مسرح «الباليه روابال» .  
لم يكن ثمة شك في أن مرغريت ستذهب إلى هذا المسرح . فقصدت إلى «الباليه روابال» . . وأخذت أرقب المقصورات التي امتلأت جميعاً . . ولكن مرغريت لم تحضر .

غادرت «الباليه روابال» إلى «الفودليل» و«الأوبرا كوميك» و«ليه فاريتيه» . . وغيرها من المسارح التي تختلف عليها مرغريت . . ولكن دون جدوى .

إذاً، إما أن تكون رسالتي قد آلتها . . فصرفتني عن المسرح . . وإما أنها خشيت أن تقابلني فتضطر إلى تسويع سلوكها . . وهو ما لا تريد أن تفعله . .

وقد كنت أفكر في كل ذلك حين قابلني غاستون وسألني من أين أنا قادم فأجبت:

- من «الباليه روابال» .

قال:

«أما أنا فقادم من «الأوبرا» . . وكنت على يقين بأنني سأقابلك هناك . .

- لماذا؟

- لأن مرغريت كانت هناك .

- أحقاً ما تقول؟

- نعم .

- وهل كانت وحدها؟

- كلاً .. كانت معها صديقة لها .

- فقط صديقتها؟

- كذلك زارها الكونت دي ج .. في مقصورتها .. ولكنه لم يمكث طويلاً .. وانصرفت مرغريت بعد ذلك بصحبة الدوق . وقد كنت أتوقع في كل لحظة أن أراك .. فإن مقعداً بجانبني ظل خالياً طوال الوقت فاعتقدت أنك احتجزته لنفسك .

- ولكن لماذا يتعين عليّ يا صاحبي أن أذهب إلى حيث تذهب مرغريت؟

- لماذا؟ لأتلك عشيقها .

- ومن قال لك ذلك؟

- بروونس .. إنني قابلتها أمس .. فحدثتني بكل شيء .. والآن .. دعني أهتلك أيها الصديق العزيز .. إنها في الحق عشيقة فاتنة لا يتأهل كل راغب فيها .. فاحتفظ بها .. واحرص عليها .. فإنها تشرفك .

ولو أن غاستون قابلني في اليوم السابق .. وقال لي هذا الكلام .. لما كتبت دون شك تلك الرسالة الحرقاء .

وخطر لي أن أذهب لزيارة بروونس .. وأن أبعث بها إلى مرغريت .. لتقول لها إنني أريد التحدث إليها . ولكنني أشفق على أن تثار مرغريت لنفسها بأن ترفض مقابلي .

وأخيراً عدت إلى منزلي .. ولكن بعد أن مررت بشارع دانتان .

وسألت خادمي :

- هل من رسالة لي؟

فأجاب :

- كلاً يا سيدي ..

قلت لنفسني :

- لعلها انتظرت أن أسعى إلى استرداد رسالتي .. وما دمت لم أفعل فلعلها تكتب إليّ غداً .

ولكنني ندمت في تلك الليلة على ما فرط مني كما لم أندم من قبل .

وجدتني وحيداً في غرفتي .. نهبية الأزق والقلق والغيرة . ولو تركت الأمور تجري في طريقها الطبيعي لكنت الآن مع مرغريت .. أصغي إلى همساتها الساحرة التي لم أسمعها غير مرتين .. والتي كانت تحرق أذني في وحدتي .

وأكثر ما أزعجني عندما فكرت في الأمر ملياً أن أجد أنني الخطئ ..

والواقع .. أن كل شيء من حولي كان يؤكد لي أن مرغريت تخبني .

فهناك أولاً خطتها لقضاء الصيف معي في إحدى القرى .

وانتفاء الأسباب والعوامل التي ترغمها على أن تصبح عشيقتي ما دامت ثروتي لا تكاد تكفي ثمن كمالياتها .. فضلاً عن حاجاتها الضرورية .

وأذا، فإنها لم تكن ترجو مني غير الإخلاص البريء الذي  
تستطيع أن تلوذ به من الحب التجاري الذي تتخبط في لجته ..  
ولكنني ضيقت عليها هذا الرجاء ولماً ينقض على غرامنا يومان ..  
وأبنتها بالتهكم والسخرية على الليلتين السعيدتين اللتين قضتهما  
معي ..

وهذا السلوك من ناحيتي لا ينطوي على الجحود فحسب .. بل  
هو ينم كذلك عن القسوة وفساد الذوق .

هل نقدتها أجراً .. حتى يجوز لي أن أنحي عليها باللائمة .. أو  
أن أحصي عليها الحركات والسكنات؟

إنني لم أعرفها إلا منذ يومين .. ولم تكن عشيقتي إلا بضع  
ساعات ! فكيف لا أفتن وأكون شاكراً وسعيداً لأنها شاطرتني بعض  
وقتها؟ وكيف أريدها على أن تهدم بضربة واحدة جميع العلاقات  
والصلات التي كانت ولا تزال مصدر إيرادها؟

وماذا فعلت حتى استحققت لومي وموجدتي؟!!

إنها كتبت إليّ تقول بأنها مريضة .. حين كان في استطاعتها أن  
تقول بالصراحة الوقحة التي أعرفها في بعض النساء إنها ستستقبل  
أحد عشاقها ..

فبدلاً من أن أصدقها وأقتنع بما جاء في رسالتها .. وبدلاً من أن  
أطوف بشوارع باريس جميعاً إلا شارع دانتان .. وبدلاً من أن أقضي  
السهرة مع بعض أصدقائي ولا أذهب للقائتها إلا في اليوم التالي وفي  
الموعد عينه الذي اتفقنا عليه .. بدلاً من أن أفعل ذلك كله .. أو  
بعضه .. آترت أن أقوم بدور عطيل .. فذهبت أتجسس عليها .. ثم  
رأيت أن أنتقم منها بالامتناع عن مقابلتها .

وفي هذه الحالة كان يتعين عليّ أن أعاملها كمشيقة رجل آخر ..  
فأقدم إليها هدية لا تترك لديها شكاً في سخائي .. وتكون صك  
المخالصة بيننا .. ولكنني خفت أن أجعل للعلاقة التي كانت بيننا  
صبغة تجارية .. إذا لم تجرح غرامها بي .. فإنها تدمي غرامي بها .  
وما دام هذا الحب قد كان من النقاء والطهارة .. بحيث لم يسمح  
بأن يكون لي فيه شريك أو شركاء .. فإن أية هدية .. مهما كانت  
ثمينة .. لا يمكن أن تكفي ثمناً للسعادة التي استمتعت بها .. مهما  
كانت قصيرة ..

ذاك ما قلته لنفسي في تلك الليلة .. وما كنت على استعداد  
للذهاب إلى مرغريت في أية لحظة لأقوله لها ..  
وتنفس الصبح وأنا لا أزال أفكر في مرغريت .. ولا شيء سوى  
مرغريت ..

كان من الضروري أن أتخذ قراراً حاسماً .. وأن أقطع الصلة بيني  
وبين مرغريت .. أو بيني وبين الشعور بالشرف والكرامة ..  
ولعلك تعلم كيف يتردد الإنسان .. وكيف يماطل .. قبل أن  
يتخذ مثل هذا القرار .

ولماً لم يكن في استطاعتي أن أبقي في المنزل .. أو أذهب إلى  
مرغريت .. فإثني لجأت إلى وسيلة إذا نجحت أدنتني منها وإذا

فشلت لم تخدش كبريائي .

ففي الساعة التاسعة .. أسرع إلى بيت برودنس .. فرحبت بي  
وسألتي عن سر زيارتي المبكرة .. ولكني لم أجرق على مصارحتها  
بما جاء بي .. وأجبتها بأنني إنما أردت أن أودعها قبل سفري إلى  
أبي .. فقالت :

- إن من حسن حظك أن تتمكن من الاستمتاع بجو الريف في  
هذا الفصل البديع .

فنظرت إليها بحدة .

تري هل قالت ذلك على سبيل التهكم؟

ولكني رأيت على وجهها الرزانة والرصانة .

واستطردت :

- هل في نيتك أن تودع مرغريت؟

- كلا .

- إنك تحسن صنعاً .

- أتظنين ذلك؟

- طبعاً .. وما دمت قد قطعت صلتك بها .. فما الفائدة من

مقابلتها مرة أخرى .

- إذا أنت تعلمين أنني قطعت صلتني بها؟

- لقد أرنتي رسالتك ..

- وماذا قالت لك؟

- قالت لي «يا عزيزتي برودنس .. إن صاحبك ليس مؤدباً ..

هذه العبارات قد تطوف بذهن الرجل الكريم .. ولكنه لا يكتبها» .

- وبأية لهجة قالت لك هذا الكلام؟

- كانت تضحك .. وقد استطردت قائلة : «إنه تناول الطعام معي  
مرتين .. ولكنه لا يتفضل عليّ ولو بزيارة تدل على أنه همضم  
الطعام!» .

فذلك هو كل التأثير الذي تركته في نفسها رسالتي وغيرتي إذا؟  
سألت :

- وماذا فعلت أمس مساء؟

- ذهبت إلى الأوبرا .

- وبعد ذلك؟

- ثم تناولت العشاء في بيتها .

- بمفردها؟

- بل مع الكونت دي . ج . ج . على ما أعتقد .

وهكذا لم تغير القطيعة شيئاً من عادات مرغريت !

قلت وعلى شفتي ابتسامة مغتصبة :

- يسرني على كل حال أن أعلم أنها لم تحزن بسببي .

- إنها على حق .. وأنت قد فعلت ما يجب عليك أن تفعله ..

وكنت بذلك أكثر منها تعقلاً وأشدّ تبصراً .. لأنها كانت تحبك ولا

تتحدث إلا عنك .. بل إنها ما كانت تتردد في الإقدام على أية

حماقة من أجلك .

- إذا كان صحيحاً أنها تحبني .. فلماذا لم ترد على رسالتي؟

- لأنها فهمت أن من الخطأ أن تحبك .. والمرأة قد تسمح للرجل

الذي تحبه أن يخونها .. ولكنها لا تسمح له قط أن يهين كبرياءها ..

## الفصل الخامس عشر

انقضت ساعة .. وأنا وخادمي ما زلنا نحزم الأمتعة .. حين دق جرس الباب فجأة ويقوة .. فسألني الخادم :

- هل أفتح الباب؟

فأجبت بالإيجاب وأنا أسائل نفسي «تري من يكون زائري في مثل هذه الساعة؟» .

وعاد الخادم يقول :

- بالباب سيدتان تطلبان مقابلتك .

وسمعت على الأثر صوتاً عرفت فيه صوت بروندس .

كأنت تقول :

- ها نحن يا أرمان .

فخرجت من مخدعي .. ورأيت بروندس في قاعة الاستقبال وهي تفحص التحف الكثيرة الثمينة التي احتفظ بها .. ثم رأيت مرغريت جالسة في أحد المقاعد مستغرقة في التفكير .

أسرعت إليها .. وجشوت تحت قدميها .. وهمست وأنا أتناول كلنا يديها :

- عفواً يا مرغريت .

فقبلت جيبي وأجابت :

- إنني أعفو عنك للمرة الثالثة .

- لقد كنت أنوي الرحيل غداً .

- وكيف يمكن أن تغيب زيارتي هذه النية؟ إنني لم أجيء لأثنيك عن الرحيل .. وإنما جئت لأثني لم أجد في أثناء النهار فسحة من

ومن الإهانة لكبرياء المرأة أن يهجرها عشيقها بعد يومين مهما كانت الأسباب .

وأنا أعرف مرغريت حق المعرفة .. وأعلم أنها تؤثر الموت على كتابة رد على رسالتك .

- ماذا يجب أن أفعل إذا؟

- لا شيء .. إنها سوف تنسأك .. وأنت سوف تنساها .. ولن يكون ثمة ما يستوجب العتاب بينكما .

- ولكن هبي أنني كتبت إليها أسألها الصفح؟

- لا تفعل شيئاً من ذلك .. إنها تصفح عنك في الحال .

فكدت أضمرها إلى صدري .

ويعد ريع ساعة .. كنت في منزلي أكتب لمرغريت هذه الرسالة :

«شخص يندم على رسالة كتبها أمس .. وسيرحل غداً إذا لم تصفحي عنه .. يرغب في أن يعرف الساعة التي يستطيع فيها أن يركع تحت قدميك ويستغفرك» .

وطويت الرسالة .. وأمرت خادمي أن يذهب بها إلى مرغريت .. فتسلمتها بنفسها .. وقالت له إنها ستبعث إليّ بالرد .

ولم أغب عن منزلي لحظة واحدة طيلة النهار .. ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ولم أتسلم رداً .

عندئذ قررت ألا أعاني أكثر مما عانيت .. وأن أرحل في اليوم التالي .

ولمّا كنت موقناً من أنني لن يغمض لي جفن طوال الليل .. فقد شرعت في حزم أمتعتي .

الوقت للرد على رسالتك .. ولم أشأ أن تبرح باريس معتقداً بأنني  
أنقم عليك .. ولم يكن من رأي برودنس أن أقوم بهذه الزيارة مخافة  
أن أزعجك .

- أنت تزعجيتني يا مرغريت؟ أنت؟ كيف بحق السماء؟  
فأجابت برودنس :

- ربما كانت معك إحدى السيدات فيضايقها أن ترانا .

ونظرت مرغريت إلى وجهي بإمعان .. بينما كانت برودنس تنطق  
بهذه الكلمات .

أجبت :

- إنك لا تدركين ما نقولين يا عزيزتي برودنس !

قالت :

- إنك تقيم في شقة أنيقة .. فهل أستطيع أن أرى غرفة نومك؟

- بغير شك ..

فقصدت برودنس إلى مخدعي .. وأغلب الظن أنها لم ترغب  
في رؤية الغرفة بقدر ما كانت راغبة في إخلاء الجولنا .. تكفيراً عن  
الحماقة التي نطقت بها .

سألت مرغريت :

- لماذا جئت ببرودنس؟

- لأنها كانت معي في المسرح .. ولأنني بحاجة إلى من يرافقتني

عندما أنصرف من هنا .

- أأست هنا لأرافقتك؟

- نعم .. ولكنني لم أرغب في إزعاجك . ثم إني على بينة من

أنك إذا رافقتني إلى منزلي فستطلب أن ترافقتني إلى مخدعي ..

ولمّا لم يكن في استطاعتي أن أجيبك إلى هذا فقد آثرت أن  
ترحل .. دون أن أمهد لك برفضي سيلاً للعب علي .

- ولماذا لا تستطيعين استقبالي في مخدعك؟

- لأنني موضع مراقبة شديدة .. وأية شبهة قد تجلب عليّ ضرراً  
بليغاً .

- هل هذا هو السبب الأوحده؟

- لو كان هناك سبب آخر لذكرته لك فقد أصبحت الصلة بيننا  
بعيثة لا يجوز لأحد أن يكتم سرّاً عن صاحبه .

- قولني الصدق وكوني صريحة يا مرغريت .. لأنني سأحدثك بما  
عندي في غير موارد .. هل أنت تحببتي ولو قليلاً؟

- بل أحبك كثيراً .

- لماذا تخدعيني إذا؟

- أصغ إلي يا صديقي .. لو كنت دوقة أو مركيزة .. ولي ليراد  
يقرب من المائتي ألف فرنك .. وكنت خليلتك .. ثم اتخذت من

دونك عشيقاً آخر .. لكان من حقك أن تسألني لماذا  
تخدعيني؟ .. ولكنني لست دوقة أو مركيزة .. وليس لي هذا

الإيراد .. وما أنا إلا مرغريت جوتيه .. مضافاً إليها دين يزيد على  
أربعين ألف فرنك ..

إنني لا أملك سنتيماً واحداً .. وأنفق مائة ألف فرنك في العام ..  
فسؤالك إذا لا مسوغ له .. وجوابي إذا لا ضرورة له .

فأجبت .. وأنا أسند رأسي إلى ركبتيها :

- هذا صحيح .. ولكنني أحبك حب وكمه .

- يجب أن تحبني أقل من ذلك .. أو أن تفهمني خيراً مما تفهمني

الآن .

إن رسالتك آلتني كثيراً . . . ولو كان أمري بيدي لما استقبلت الكونت . . . ولو استقبلته لكنت أسرع إليك في التماس الصفح الذي تلتسه أنت مني الآن . . . ولما اتخذت لنفسي عشيقاً بعد ذلك سواك .

لقد مرت بي لحظة توقعت فيها أنني أستطيع - ولو لبضعة شهور - أن أستمع بالسعادة التي تحدثنا عنها . . . ولكنك لم تشأ . . . وأبيت إلا أن تعرف وسائل لي لبلوغ هذه السعادة .

وهذه الوسائل ليس من المتعذر فهمها وإدراكها . . . ولكنها تنطوي على تضحية أعظم مما خيل إليك أنني أستطيع الإقدام عليه .

لقد كان بوسعي أن أقول لك «أريد عشرين ألفاً من الفرنكات» .

وأنت تحبني . . . وستجد حتماً وسيلة ما للحصول على هذا المبلغ . . . ولكني سأكون هدفاً لأن تعيرني بذلك في المستقبل . . . ولهذا أثرت ألا أكون مدينة لك .

غير أنك لسوء الحظ لم تفهم وجهة نظري من ناحيتها العاطفية الدقيقة . . .

إن مثيلاتي من النساء . . . إذا بقيت لهن بقية من الشعور . . . فإنهن ينظرن إلى الأشياء بغير العين التي ينظر بها سواهن . . . وأنا أقول لك مرة أخرى إن اللحظة التي فكرت فيها مرغريت جوتيه لسداد ديونها دون أن تطالبك بالمال اللازم . . . هي خطة صادرة عن شعور دقيق . . . وكان ينبغي قبولها بغير اعتراض .

فلو أن الصلة بيننا قد بدأت اليوم لرحبت بخطتي ولم يخطر لك أن تسألني عما فعلت أول أمس .

إننا نضطر في بعض الأحيان أن نشترى هناة نفوسنا ببيع

أجسادنا . ولشد ما نتألم إذا وجدنا آخر الأمر أن الهناء الموعود قد أفلت من أيدينا .

كنت أحملق نحوها . . . وأصفي إلى كلماتها بإعجاب . . .

وعندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة . . . التي كنت أشعر منذ لحظة بأن السعادة كل السعادة في أن أتمرغ تحت قدميها . . . عندما فكرت في أن هذه المخلوقة البديعة قد أنسحت لي مكاناً في فكرها وحياتها . . . وأن ذلك كله كان أبعد من أن يرضيني . . . لم أتمالك من أن أسأل نفسي «أليس لمطامع الإنسان من حد؟ أم هو كلما حقق مطمعاً جدياً في مطمع آخر؟» .

واستطردت مرغريت :

- إن ما يقال عن غرابة أطوارنا وتقلب أهوائنا - نحن النساء اللاتي نتجر بأجسامنا وعواطفنا - صحيح لا ريب فيه . . . فنحن الآن نسلم أنفسنا لسبب . . . وغداً نسلم أنفسنا لسبب آخر . وهناك رجال يجلبون على أنفسهم الخراب من أجلنا . . . ومع ذلك لا نسمح لهم من أنفسنا بما يشتهون بينما نعطي أنفسنا لأخرين من أجل باقية من الزهور .

إن لقلوبنا أطوارها الخصيصة . . . ولها كذلك أهواؤها وأعدائها . وأقسم لك أنني أسلمت نفسي بأسرع مما أسلمتها لأي رجل آخر . . . فهل تعلم لماذا؟ لأنك رأيت الدم ينزف من صدري . . . فتناولت يدي وسكبت عليها دموعك .

لأنك الإنسان الوحيد الذي أخذته الشفقة بي .

سأحدثك الآن حديثاً قد يكون ضرباً من السخف .. ولكنه حقيقي .

كان عندي في وقت ما كلب صغير اعتاد أن ينظر إليّ بحزن كلما سلعت .

هذا الكلب هو المخلوق الوحيد الذي أحببته .. ولما مات بكيت عليه كما لم أبك على أمي وأبي .

وقد أحببتك فجأة .. كما كنت أحب كليي .

لو علم الرجال ماذا يستطيعون اتباعه بدمعة واحدة .. إذا لنعموا من حبنا بأكثر مما ينعمون الآن . ولترقنا بهم .. ولم ننقل كواهلهم ونعجل بخرابهم .. كما نفعل الآن .

إن رسالتك قد ثمت عليك .. وفضحت جمود قلبك .. وأضعفت حبي لك .. كما لا يمكن أن يضعفه شيء آخر .

كانت عباراتها تنطوي على الغيرة .. ولكنها غير ساخرة وقحة .

وقد كنت حزينة قبل أن أتسلمها .. وكنت أنتظرك بفارغ الصبر .. لكي أتناول الطعام معك .. وأمحو خاطراً يقلقني .. وما كنت أقيم له وزناً قبل أن أعرفك .

لقد كنت الشخص الوحيد الذي توهمت أنني أستطيع معه أن أفكر وأتحدث بحرية وصراحة .. لأن كل أولئك الذين يدورون بفتاة مثلي .. يزنون كل كلمة تنطق بها .. ويستخرجون المعاني من كل حركة تصدر عنها .. فنحن ليس لنا أصدقاء .. ولكننا لنا عشاقاً أنانيين يبذلون أموالهم .. ليس من أجلنا كما يزعمون .. وإنما لإرضاء لصلفهم وخيالاتهم .. وغرورهم .

وأمام هؤلاء العشاق .. يجب أن نتظاهر بالمرح .. وإن كان الألم

يعصر نفوسنا .. ومحظور علينا أن يكون لنا شعور أو قلب .. وإلا أضعتنا سلطاننا .. وفقدنا مراكزنا .

إننا نحتل المكان الأول من أنانية عشاقنا .. والمكان الأخير من اعتبارهم .

ولنا صديقات .. ولكنهن على مثال برودنس .. نساء كنّ فيما مضى يعشن عشتنا .. ثم أقعدهن الكبر عن إشباع غريزة الإسراف وحب الترف .. فاتخذنا لهنّ صديقات .. وقد تتواضع صداقتهنّ في بعض الأحيان إلى حد العبودية .. ولكنها لا ترتفع فوق المصلحة الشخصية ..

وأولئك الصديقات .. لن يبذلن لنا من النصيح إلا ما يعود عليهنّ بالفائدة المادية .. ولا يهمنه أن يكون لنا عشرات العشاق في وقت واحد .. ما دمن ينلن منّا أو من عشاقنا ثوباً أو سواراً .. وما دمن يرافقننا أحياناً إلى المسرح أو في نزهة بالمركبة . ولا تقدم إحداهنّ خدمة لنا إلا وتأخذ أجرها مضاعفاً .. ولعلك رأيت كيف أنفذت برودنس إلى الدوق في طلب ستة آلاف فرنك .. وكيف أخذت مني أربعمائة فرنك على سبيل القرض .. ولكنه قرص لن يرد .

إن سعادتني المكنة .. أو بتعبير أصحّ .. كانت سعادتني المكنة - رغم حزني في بعض الأحيان .. ومرضي دائماً - أن أجد رجلاً من سمور الخلق وكسبر القلب .. بحيث لا يعدّ عليّ الحركات والسكنات .. ولا يطالبني بأن أقدم إليه حساباً عن حياتي .. رجلاً يعشق فيّ النواحي الحسية أكثر مما يعشق جسدي .. وقد وجدت الرجل الذي أنشدته في الدوق .. ولكن الدوق شسيخ هرم .. والشيوخوخة آخر ما تعطف عليه المرأة .. وقد حاولت أن أحيا الحياة



التي اقترحها علي . . ثم شعرت بأن هذه الحياة تقتلني سأمًا  
وملاحة . . فقلت لنفسي : «إذا كان لا بد للإنسان من أن يموت . .  
فخير له أن يحترق في النار من أن يخنق بالدخان» . .

وحدث عددنذ أنني قابلتك . . أنت الشاب السعيد . . المتقد  
العاطفة . . الممتلئ رغبة في الحياة . . فحاولت أن أجعل منك الرجل  
الذي طالما تخيلته في وحدتي . . وأحبيتك لا كما أنت . . وإنما كما  
يمكن أن تكون . . ولكنك لم تقبل ما أردته لك . . ولفظته كشيء لا  
يجدر بك . . وكنت كذلك رجلاً مادياً لا يختلف في شيء عن  
الرجال العاديين . ولم يبق إلا أن تفعل ما يفعله سائر الرجال . .  
فتتقدي الثمن على بذلي لك نفسي . . وينتهي ما بيننا .

وأنعيتها هذا الحديث الطويل . . فنامت في مقعدها . . ووضعت  
منديلها على شفتيها لتجس نوبة السعال التي انابتها . .  
قلت :

- عفواً يا مرغريت . . إني فهمت كل هذا . . ولكنني أردت أن  
أسمعه من فمك . . فلننس إذاً كل شيء . . ولا نذكر إلا شيئاً  
واحداً . . هو أنني لك وأنت لي . . وأنا ما زلنا في ريعان  
الشباب . . وكل منا يحب صاحبه . اصنعي بي ما شئت يا  
مرغريت . . فإني عبدك وكليك . . فقط مزقني تلك الرسالة التي  
بعثت بها إليك . . ولا تدعيني أرحل غداً . .

فأخرجت الرسالة من صدرها . . ورددتها إلي . . وهي تقول  
بصوت رقيق :

- انظر . . لقد أحضرتها لك . .

فألقيت الرسالة في الموقد . . وقبّلت اليد التي ردتها إلي .  
وفي هذه اللحظة أقبلت برودنس . . فقالت مرغريت :

- هل تعلمين ماذا يطلب يا برودنس؟

- إنه يطلب الصفح . . أليس كذلك؟

- نعم .

- وهل صفحت عنه؟

- لم يسعني إلا أن أصفح . . بيد أنه يريد شيئاً آخر .

- ما هو؟

- يريد أن يتناول معنا طعام العشاء .

- وهل وافقت؟

- ما رأيك أنت؟

- رأيي أنكما طفلان ليس في رأسيكما عقل . . ورأيي كذلك أنني

أكاد أموت جوعاً . . وأن خير ما تفعلانه التعجيل في هذا العشاء .

فقالت مرغريت :

- وأظن أن مركبتي تسع لثلاثتنا .

ثم تحوكت إلي واستطردت :

- وبهذه المناسبة . . أعتقد أن نانين قد أوت إلى فراشها . . وأنه

يتعين عليك أن تفتح الباب . . فإليك المفتاح . . وخذار أن تفقده مرة

أخرى .

فقبّلت يديها .

وجاء خادمي جوزيف . . وقال بلهجة الرجل الفخور بما صنع :

- لقد فرغت من وضع الأمتعة في الحقيبة يا سيدي .

- هل وضعت الأمتعة كلها؟

- نعم يا سيدي .

- أحسنت .. أخرجها من الحقايب إذا .. فقد عدلت عن السفر .

## الفصل السادس عشر

كان بإمكانني أن أقصّ عليك كل هذا في كلمات قليلة .. ولكنني أردت أن تعرف كيف تدرجت الصلة بيني وبين مرغريت .. حتى أصبحت أطاظم الرأس لكل رغباتها .. وحتى أصبحت هي لا تطيق الحياة من دوني .

وقد كان في اليوم التالي لتلك الزيارة .. أنني أهديت إلى مرغريت كتاب «مانون ليسكو» .

لحمًا وجدت مع مرور الأيام أنني لا أستطيع تحويل مرغريت من الحياة التي ألفتها .. فإنني تحوكت عن الحياة التي ألفتها .. وكان كل همّي دائماً ألا أسترسل في التفكير في الدور الذي قبلت أن أقوم به .. لأن التفكير كان من شأنه أن يجلب عليّ الحزن والأسى على الرغم مني .

وهكذا استحوالت حياتي الهادئة إلى حياة كلها صخب واضطراب .. ويجب ألا تتوهم أنّ معاشرته فتاة كمرغريت .. ومهما تجرّدت من الأطماع .. لا تكلف كثيراً .. فإنه ليس أغلى من تكاليف الزهور والحلوى والمسارح .. والمآذب .. والرحلات الريفية .. وغير ذلك مما لا يستطيع الرجل أن ينكره على عشيقته .. فكيف بمرغريت؟

وأحسبني قد ذكرت لك أنني لم أكن واسع الغنى .. فقد كان أبي ولا يزال صيرفياً .. ولكنه رجل عرف بالأمانة والاستقامة فاستطاع أن يدبر لشقيقتي بائة لا بأس بها .

وكانت والدتي قد توفيت عن إيراد سنوي يقدر بستة آلاف من الفرنكات .. فقسم أبي هذا الإيراد بيني وبين شقيقتي .. ومنحني من إيراده الخاص مرتباً سنوياً قدره خمسة آلاف فرنك .. وأكد لي أن هذه الثمانية آلاف فرنك التي اجتمعت لي تكفي لسداد حاجاتي إذا أقمت في باريس .. ونصح لي أن أختار بين الاشتغال بالطب أو المحاماة .. فجئت إلى باريس .. وواصلت الدرس والتحصيل حتى نلت إجازة المحاماة .. ولكنني دستتها في جيبي كما يفعل سائر الشباب .. وانصرفت إلى حياة اللهو والعبث والبطالة .

وكانت نفقاتي غاية في الاعتدال وحسن التدبير .. ولكنني كنت أنفق كل إيرادي السنوي في ثمانية شهور .. ثم أقضي أربعة شهور الصيف في بيت أبي .. وبذلك استطعت أن أوفق بين قلة إيرادي وواجبي كولد بار بأبيه .

على أنني لم أكن مديناً بستم واحد .. لكائن من كان .  
وقد كان ذلك حالي إلى أن عرفت مرغريت .. فعندئذ تضاعفت نفقاتي على الرغم مني .

وقد كانت مرغريت امرأة ساهية القلب .. من أولئك النساء اللاتي لا يعتبرن تكاليف الملاهي وضروب التسلية .. وآلاف التوافه التي تتألف منها حياتهن .. شيئاً ذا قيمة .. وكانت النتيجة أنها إذا أرادت أن تقضي معي أطول وقت ممكن .. فإنها تكتب إليّ في الصباح قائلة إنها تريد تناول الغداء معي .. ليس في منزلها .. وإنما

وهكذا تحوكت حياتي الهادئة الساكنة .. إلى حياة صاخبة كلها  
حركة ونشاط وانفعال .. ولكنني لم أجد منها مفرأ .. لأنها أصبحت  
الشيء الضروري المكمل لغرامي بمرغريت .

لم يكن يغمض لي جفن طيلة الليالي التي لا أنضيتها في شارع  
دانتان مع عشيتي ...

كنت أجد نفسي نهياً موزعاً بين القلق والأرق والغيرة ... ولكنني  
وجدت في القمار دواء للحمى التي تنهش قلبي .. فكنت ألزم  
الطاولة الخضراء حتى يحين موعد لقائي بمرغريت .. فأنهض في  
الحال .. سواء أكنت رابحاً أم خاسراً .. وكثيراً ما اضطرت إلى  
النهوض في الوقت المناسب .. الذي يراه اللاعب الخبير أفضل وقت  
لترك الطاولة ...

وحالفني الحظ .. فلم أتورط في الديون .. وتضاعف المبلغ الذي  
بدأت به اللعب ..

وفي هذه الأثناء .. بدا أن حياة مرغريت تطوّرت تطوراً أدناها من  
الشفاء صحياً على الأقل .. فقد آليت على نفسي أن أبرئها من  
سقمها .. وأدركت المسكينة غرضي .. فأطاعنتي ونزلت على  
إرادتي .. لكي تثبت وفاءها .. ولم أجد صعوبة في عزلها تماماً عن  
كثير من العوامل الهادمة لصحتها ..

وكنت قد عرضت أمرها على طبيبي الخاص .. فقال لي أن لا  
شيء يرد عليها الصحة كالراحة والهدوء .. والحياة المنتظمة ..  
فوضعت نظاماً لطعامها وراحته ونومها .. وصرفتها عن المآذب  
والسهرات الطويلة .. وألفت هي هذه الحياة الجديدة .. وأفادت

في هذا المطعم أو ذاك .. في باريس أو في الضواحي .. فأذهب  
إليها .. وأصطحبها إلى المطعم الذي ذكرته .. ثم نقصد معاً إلى  
المسرح .. ثم نتناول معاً طعام العشاء .. ولا ينقضي المساء حتى  
أكون قد أنفقت أربعة أو خمسة جنيهات .. أي بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠  
فرنك شهرياً .. وهكذا أصبح إيرادي السنوي لا يكاد يكفي نفقات  
ثلاثة شهور .. وصار يتعين عليّ .. إما أن أستدين وأغرق في  
الديون .. أو أهجر مرغريت .

وطبيعي أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء وكل شيء  
إلا أن أهجرها .

ومعذرة إذا كنت أطيل في هذه التفاصيل .. فإنها - كما سترى -  
نواة الحوادث التالية .. ثم إنني أسرد عليك قصة حقيقية جدية بأن  
تحتفظ بكل بساطتها الطبيعية .

أدركت إذا أنني ما دمت لا أستطيع أن أهجر مرغريت .. فمن  
الضروري أن أبحث عن مورد جديد يكفل لي النفقات الإضافية التي  
استحدثتها عشيتي .

أضف إلى ذلك أن غرامي بمرغريت كان يملأ كل جوانحي ..  
حتى أصبحت ساعات الفراق أطول من الأعوام .. ففكرت في  
البحث عن هواية تشغلني طيلة هذه الساعات القاتلة .. وتساعدني  
على قضاء الوقت بحيث لا أشعر بمروره .

فاقترضت ستة آلاف من الفرنكات .. وشرعت أقامر .. خصوصاً  
وأن المقامرة أصبحت سهلة ميسورة لكل إنسان .. وفي كل مكان ..  
منذ أغلقت متديبات الميسر .

منها .. وأصبحت تقضي أياماً برمتها في بيتها .. فإذا اعتدل الجو خرجت بمركبتها إلى الشانزليزيه .. ومتى عادت .. كانت متعبة فتتناول بعض الطعام .. وتعزف قليلاً على البيانو .. أو تقرأ قليلاً في أحد الكتب .. وهو ما لم تكن تفعله من قبل .

وهكذا استردت صحتها .. واختفت تقريباً تلك السعلة العنيفة التي طالما خيل إليّ كلما سمعتها كأن صدري يتمزق .

وبعد ستة أسابيع انمحي ذكر الكونت دي . ج . . تماماً .. فقد ضحت به مرغريت ونفضت يدها منه .. وأصبح الدوق هو الشخص الوحيد الذي يتعين علينا أن نكتم صلتنا عنه .

وحان الوقت الذي تعودت أن أقضيه بين أبي وأختي .. فكتبتا إليّ بإلحاح يرجوانني أن أذهب إليهما .. ولكني ذهبت أختلق الأعذار وأطمئنتهما بأنني في خير حال .. ولا حاجة بي إلى النقود .. ظناً مني بأن ذلك يكفي للعدول عن إقناعي بزيارتهما كالمعتاد .

وحدث في يوم صفا جوة ورق نسيمه أن وثبت مرغريت من فراشها .. وهي ممتلئة نشاطاً وحيوية .. واقترحت عليّ أن نقضي ذلك اليوم في الضواحي . فأرسلنا إلى بروندس وانطلقنا ثلاثنا إلى الزهزة .. بعد أن أوصت مرغريت وصيبتها بأن تنبئ الدوق بأنها قد انتهزت فرصة صفا الجو فخرجت مع بروندس للزهزة بين الحقول .

ولم تكن صحبة بروندس ضرورية لإبعاد ريبة الدوق فحسب .. ولكنها كانت كذلك من الناس الذين خلقوا لإثعاش الرحلات الخلوية .. بما طبعوا عليه من المرح وخفة الروح وشدة القابلية للطعام .

وهي التي اختارت لنا أن نقصد إلى «بوجيفال» .. حيث توجد حانة يقال لها حانة الفجر .. تديرها امرأة تدعى مندام أرنولد . فاستأجرنا إحدى المركبات .. وبعد ساعة ونصف ساعة .. كنا في «بوجيفال» .

ولا شك أنك تعرف حانة «الفجر» هذه .. فإنها من أبداع الحانات في القرى .. وبها حديقة كبيرة تشرف على وادي «جامبليون» المترامي الأطراف وعلى جزيرة «كرواسي» التي تتخذ وكرها في قلب نهر «مارلي» .

لقد اعتاد العشاق أن يقرنوا الحب بالحقول والمناظر الطبيعية الخلابة .. والواقع .. أنه لا يوجد محيط للمرأة التي نجبها أجمل وأفن من زرق السماء .. وشذى الزهور .. وسحر الغابات العذراء .. والحقول النضيرة .

وإذا كنت قد أحببت في أحد الأيام حباً قوياً صحيحاً .. فإنك دون شك قد خبرت ذلك الشعور الذي يجب إلى العاشق أن يعزل من سائر العالم تلك المخلوقة المحبوبة التي يريد أن تعيش له ومن أجله فقط .. كأنه يخشى عليها فتنة الأشياء والمخلوقات التي تحيط بها .. أو كأنه يشفق أن يتسرب شذاها إلى الكائنات حولها .

وقد كان هذا هو شعوري في «بوجيفال» .

لم أكن أحب امرأة كسائر النساء .. بل كنت أحب مرغريت جوتيبية .. المرأة التي قد أنتقي في كل خطوة أخطوها في شوارع باريس برجل كان عشيقها بالأمس .. أو قد يصبح عشيقها غداً .

أما في هذه الحقول .. ووسط هؤلاء الناس .. الذين لا يعرفوننا

ولا يهمهم أمرنا .. فإنني أستطيع أن أنعم بالحب في غير ما خجل  
أو تحفظ أو غيره .

\*

وغابت المرأة الغائبة تدريجاً .. ونسيت الماضي .. أو لم أعد أذكر  
منه ما يقلق ويخجل .. وأصبحت لا أرى بجائبي إلا صبية حسناء  
نحبي وأحبها .. صبية تشرق عليها الشمس كما تشرق على أطهر  
العذارى .

وأخذنا نخطر وسط المناظر الطبيعية الساحرة التي لم تخلق إلا  
للإلهام الشعراء .. ومرغريت تهمس في أذني أعذب كلمات الحب ..  
والعالم الصاحب بعيد عن حواسنا .. لا يلقي ظله الحالك على  
صورتنا الباسمة .. صورة الشباب والحب .

\*

وأبصرت .. ونحن في نحوالتنا على ضفة النهر .. منزلاً صغيراً  
يديعاً .. يقع على حافة غابة عذراء .. يغطيه ثوب أنيق من النباتات  
الطفيلية المتسلقة ..

وأطلت النظر إلى هذا الوكر الجميل .. حتى خيل إليّ أنه جزء  
من حلم العزلة الهنيئة التي كنت أتوق إليها منذ لحظة .. وقلت  
لنفسي : «هل في الحياة سعادة أعظم من سعادة عاشقين يتخذان هذا  
البيت وكرأ لهما؟!» .

ولاحظت مرغريت كيف أنعم النظر نحو المنزل الصغير .. ولعلها  
أدرت بحسبها ما يطوف بذهني من الخواطر لأنها هتفت :

- ما أجمل هذا الوكر ..

فقالت برودنس :

- أين هو؟!

فأشارت مرغريت نحوه .. وهتفت برودنس :

- ما أبدعه .. هل تسرك الإقامة فيه؟!

- تسرني كثيراً ..

- إذا ما عليك إلا أن تطالبي الدوق بأن يستأجره لك .. وفي

استطاعتي أن أقنعه بذلك إذا شئت .

فتطلعت إليّ مرغريت كأنها تسألني رأيي ..

قلت وأنا لا أزال متأثراً بذلك الحلم البديع :

- إنها فكرة حسنة ..

فقالت مرغريت :

- إذا فسأدبر الأمر ..

وضغطت على يدي بحرارة .

\*

كان المنزل خلواً من السكان .. وكان إيجاره السنوي ألفين من

الفرنكات ..

سألتي مرغريت :

- هل تكون سعيداً بالإقامة هنا؟

- ومن يعلم إذا كنت سأقيم فيه؟

- لأجل من إذا سأدفن نفسي هنا .. إن لم يكن لأجلك؟!

- إذا ، دعيني أستأجر لك هذا المنزل بنفسي ..

- هل جنتت؟! ذلك عسير .. فضلاً عن أنه لا ضرورة له ..

أنت تعلم أنني لا أقبل ذلك إلا من رجل واحد فقط .. فاترك لي

تدبير الأمر إذا .. ولا تنبس بكلمة ..

## الفصل السابع عشر

في اليوم التالي .. صرفتني مرغريت من مخدعها مبكراً .. قائلة إن الدوق سيأتي لزيارتها في الحال .. وإنها ستكتب إلي .. بعد انصرافه .. لتحدد موعد مقابلتها التالية ..  
والواقع .. أنني تسلّمت منها قبيل الظهر رقعة عليها هذه الكلمات :

«إني منطلقة إلى بوجيغال بصحبة الدوق .. فانتظرنني في بيت برودنس في الساعة الثامنة مساء» .

وفي الموعد المحدد .. أقبلت علينا مرغريت وهي تقول :

- لقد دبرّت كل شيء .. وانتهى الأمر ..  
فسألتها برودنس :

- هل استأجر لك المنزل؟

- نعم .. دون أن يعترض حتى بكلمة ..

لم أكن أعرف الدوق .. ولكنني لم أمالك من الشعور بالخلجل في تلك اللحظة .

واستطردت مرغريت :

- ولكن ذلك ليس كل ما هنالك .. فقد أعددت مكاناً لإقامة أرمان أيضاً .

فهمت برودنس ضاحكة :

- في المنزل نفسه؟

- كلاً .. بل في حانة الفجر .. حيث تناولت الطعام مع الدوق .

وقد انتهزت إحدى الفرص .. وسألت مدام أرنولد عمّا إذا كانت لديها غرفة أنيقة تصلح لإقامة شاب أعزب .. فأجابت بالإيجاب .. وذهبت بي إلى غرفة فاخرة الأثاث .. إيجارها الشهري ستون فرنكاً .. فاستأجرتها في الحال ..

أفلم أحسن صنعا؟

فقبلتها .. ولم أجب ..

وسألت برودنس :

- ومتى تنوين الرحيل إلى بوجيغال؟

- في أقرب وقت ممكن .

- وهل تأخذين معك مركبتك وجيادك !

- طبعاً .. وسأترك منزلي لعائنتك في أثناء غيابي .

\*

بعد أسبوع .. انتقلت مرغريت إلى بيتها الجديد في «بوجيغال» .. وانتقلت أنا إلى غرفتي في حانة الفجر .

ومن ثم بدأنا حياة يتعذر عليّ وصفها .

\*

لم تتنكر مرغريت في بدء إقامتها في «بوجيغال» لكثير من عاداتها السابقة .. فأشرعت باب بيتها لأصدقائها العديدين .. ولم يكن يمر يوم دون أن أرى على مائدتها ثمانية أو عشرة من أولئك الأصدقاء ..

وراحت برودنس من ناحيتها تدعو جميع أصحابها وصويحاتها .. وتستقبلهم في المنزل .. كأنه منزلها .

كل ذلك والدوق ينفق بغير تبرم ! على أن هذا لم يمنع برودنس من أن تسألني في بعض الأحيان - باسم مرغريت - ألفاً أو ألفين من

الفرنكات .. وطبعي أنني كنت أجيها إلى ما تطلب بغير تردد ..  
ثم خشيت أن تحتاج مرغريت إلى المزيد من المال .. فاقترضت ستة  
آلاف من الفرنكات رصدها لمطالبها التي لا تتوقف .

ثم لاحظت مرغريت أن إسرانها في استقبال أصدقائها يكلفها  
كثيراً من النفقات .. ويلجئها إلى معونتي في بعض الأحيان ..  
فعمدت إلى الاقتصاد في دعوتهم والترحيب بهم .

وكان الدوق الذي استأجر لها هذا المنزل خصيصاً .. لئنعم فيه  
بالراحة والسكينة .. قد بدأ كذلك يقتصد في زيارته خوفاً من أن  
يجد نفسه عندها .. وسط طغمة من الشباب العايب الطروب ..  
وحدث ذات يوم أنه ذهب إليها .. فوجد نفسه وسط خمسة عشر  
زائراً وزائرة كانوا يتناولون معها طعام الإفطار في الوقت الذي كان  
يتوقع أن يتناول فيه معها طعام الغداء .. وما كاد الرجل المسكين  
يفتح غرفة الطعام .. حتى قابله الزائرون بعاصفة من الضحك ..  
فترجع في الحال ..

ونهضت مرغريت عن المائدة .. ولحقت به إلى غرفة أخرى ..  
وحاولت أن تزيل ما علق بنفسه .. ولكن الرجل أحس بأن كرامته  
ثلت .. فانصرف حانقاً مغضباً .. بعد أن قال لها بشيء من الغلظة  
والقساوة إنه تعب من الإنفاق على امرأة لا تعرف كيف تجعله  
محترماً في بيتها ..

ولم نره بعد ذلك .. فاضطرت مرغريت أن تمتنع عن دعوة  
أصحابها .. ثم دعنتي إلى الإقامة معها نهائياً .. ولم تحاول بعد ذلك  
أن تكتم العلاقة بيننا .

وصادف ذات يوم أنني كنت في الحديقة فرأيت برودنس مقبلة ..  
ولاحظت أن مرغريت قد خفت لاستقبالها .. وأسرعت بها إلى  
غرفتها .. فأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها .. وملكني فضول إلى  
معرفة ما هنالك .. فاقترت من باب الغرفة .. وأصغيت .

قالت مرغريت بلهجة تنم عن القلق :

- حسناً .. ماذا فعلت؟

فأجابت برودنس :

- لقد قابلت الدوق .

- وماذا قال لك؟

- قال إنه على استعداد لأن يغفر لك الإهانة التي لحقت به في  
بيتك .. ولكنه علم أنك تقيمين علاقته مع السيد أرمان ديهال ..  
وذلك ما لا يستطيع أن يغفروه لك . واستطرد قائلاً : «قولي لمرغريت  
أن تهجر هذا الشاب فإلبي جميع رغباتها .. كما كنت أفعل قبلاً ..  
والأوجب عليها أن تكف عن مطالبتي بأي شيء» .

- وبما أجبت؟

- أجبته بأنني سأنقل إليك طلبه .. ووعدته بأن أردك إلى  
الصواب .. ففكري جيداً يا بنيتي العزيزة .. فكري في المكانة التي  
ستفقدونها .. والتي لن يستطيع أرمان أن يعيدك إليها .

إنه يحبك من كل قلبه .. ولكن ثروته لا تكفي لتحقيق رغباتك  
وتلبية مطالبك .. وسيأتي يوم يهجرك فيه .. وعندئذ تبحثين عن  
الدوق فلا تجدينه .

هل تريدني على أن أتعهدت إلى أرمان في صراحة؟

فصمت مرغريت كأنما تفكر .. ووثب قلبي بعنف في انتظار  
جوابها .

قالت أخيراً :

- كلاً .. لن أهجر أرمان .. ولن أتواري عن الأبصار لكي أعيش معه .

ربما كان ذلك هو الجنون بعينه .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟  
ثم إنه ألف الحياة معي دون عائق .. فإذا أقصيته عني ولو ساعة واحدة تألم أشد الألم .

وبعد .. فإني حياتي قصيرة الأجل .. وليس ما يستوجب أن أقضي السنوات الباقية من حياتي في شقاء وتعاسة إرضاء لرجل هرم يشمرني مرآه بوطأة الشيخوخة .

كلاً .. كلاً .. ليحفظ الدوق بأمواله .. إنني لست بحاجة إليها .

- وما العمل إذا؟

- لا أعلم ..

ولا أدري ما الذي قالته برودنس بعد ذلك .. لأنني فتحت الباب فجأة وألقيت بنفسي تحت قدمي مرغريت .. ودموع الفرح والحب تنهمر من عيني .

قلت :

- إن حياتي لك يا مرغريت .. فلا حاجة بك إلى هذا الرجل .. ألسنت هنا؟ وهل يمكن أن أهجررك أبداً؟ وهل أستطيع أبداً أن أعوزك عن السعادة التي تهينها؟ كل منا يحب صاحبه .. فماذا يهمنا غير ذلك يا مرغريت؟

فغمغمت .. وهي تحيط عتقي بساعدها :

- نعم .. إنني أحبك يا أرمان .. وأحبك كما لم أتصور قط أنني

أستطيع أن أحب .. فلنكن سعيدين .. ولنعش في هدوء وسلام .. ولأودع إلى الأبد الحياة التي يحمر منها وجهي الآن .. إنك لن تعيرني بماضي .. أليس كذلك يا أرمان؟

فحجبت الدموع صوتي .. وألجم الاثفعال لساني .. وكان جوابي الأوحده أنني ضممتها إلى صدري .

وعندئذ تحوكت إلى برودنس .. وقالت بصوت يرتجف من التأثر :

- والأآن .. في استطاعتك أن تصفي للدوق هذا المنظر .. وأن تقولي له بلساننا إننا لسنا بحاجة إليه .

\*

منذ ذلك اليوم .. انتهت الصلة بينها وبين الدوق .. وأصبحت امرأة غير المرأة التي أعرفها .. فتنجبت أساليب الحياة التي كانت تحياها من قبل .. والتي كانت كفيلة بأن تجلب لي الخراب والدمار .. وأوقفت عليّ من حنانها وعنايتها ما لا يمكن لزوجة أو أخت أن توقعه على زوجها أو أخيها .

ونفضت يديها من سائر أصدقائها .. وأقلعت عن عاداتها السابقة .. ونهجها وإسرافها .. وأصبح من المستحيل على من يراها في ثوبها الأبيض البسيط .. وقبعتها المتواضعة .. أن يعرف فيها مرغريت جوتيه التي كانت منذ أربعة شهور مضرب الأمثال في البذخ والتبذل .

وانقضى شهران آخران لم تزر في خلالهما أحداً .. ولم يأت أحد لزيارتنا سوى برودنس .. وجوليا إيبار التي حدثتك عنها .. والتي عهدت إليها مرغريت فيما بعد بيومياتها ومذكراتها .

\*



يفعل سابقاً .

ولمّا لم يتلق الدوق ردّاً .. كفّ عن الكتابة إليها .. وسارت حياتنا في مجراها الطبيعي .

### الفصل الثامن عشر

أنت تعرف ما هو الحب .. وتعرف كيف يقضي العشاق أوقاتهم .. وكيف يسمحن لنشوة الحب أن تربط أسهم بغيرهم .. وأن تلهيهم عن كل شيء في الوجود .. إلا السعادة التي يرتشفانها معاً .

كنا نخرج إلى الغابة ليلاً في بعض الأحيان .. حيث نصغي إلى أنغام المساء .. ونحلم بالساعة التي نتعاقق فيها إلى بزوغ الفجر .

وأحياناً أخرى .. كنا نقضي النهار كله في الفراش .. ولا نسمح لأحد أن يقتحم علينا هيكل الحب .. حتى نحمل إلينا نانين الطعام .. فتناوله في الفراش كذلك .. وسط رنات الضحك وأهات المرح .

ولكن حدث أكثر من مرة أنني لاحظت على وجه مرغريت مسحة من الحزن .. ورأيت في عينيها دموعاً أسي .. ولمّا سألتها أجابت :

- إن حبنا ليس عادياً يا عزيزي أرمان .. فأنت تحبني كما لو أن أحداً لم يمتلكني قبلك .. وأنا أخشى أن تندم يوماً على هذا الحب .. وأن تعيّرني يوماً بالماضي .. وأن ترغمني على العودة إلى الحياة التي انتشلتني منها .

ورحبت مرغريت بحياتنا الريفية رغم بساطتها .. وكان من المدهش أن ترى هذه المرأة .. التي اعتادت أن تنفق في سبيل باقات الزهور ما يكفي لإسعاد أسرة برمتها .. وهي تقضي الساعات الطويلة أمام إحدى الزهور البرية المتناهية في البساطة .. أو وهي تعدو خلف الفراشة كما تفعل الطفلة الساذجة البريئة التي لم تعرف هموم الحياة وشقاءها ..

وفي ذلك العهد أقبلت مرغريت على قراءة قصة «مانون ليسكو» .. وقد فاجأتها مراراً وهي تسجل بعض الملاحظات على هوامش الكتاب .. وكثيراً ما قالت لي إن المرأة إذا أحببت .. فإنها لا تفعل ما فعلته مانون ..

وقد كتب إليها الدوق رسالتين أو ثلاثاً .. ولكنها كانت تعرف خطه .. وتدفع إليّ برسالته دون أن تفضّنها .

وفي بعض الأحيان .. كانت الدموع تترقرق في عيني وأنا أقرأ هذه الرسائل ..

ظنّ هذا الشيخ أنه يستطيع أن يستردها إليه إذا حبس عنها أمواله .. فلمّا لم تجد هذه الوسيلة .. كتب إليها يرجوها أن تسمح له بزيارتها كما كان يفعل قبلاً .

وقد مرّت هذه الرسائل دون أن أحدّث مرغريت بمضمونها .. وعلى الرغم من أن حزن هذا الشيخ المسكين كان يؤلّني ويحزنني .. فإنني لم أنصح لها بمقابلته خوفاً من أن تلمس وراء هذه النصيحة رغبة من ناحيتي في أن يعود الدوق إلى الاضطلاع بنفقاتها كما كان

أشياء سوف يسرك أن تجديها عند عودتك؟! إن ثروتي لا تجيز لي الإقدام على تضحية جسيمة .. ولكن القليل الذي أملكه يسمح لنا أن نقوم بسياحة تستغرق خمسة شهور أو ستة ..

فقلت وهي تبعد عن النافذة .. وتجلس على مقعد في ركن مظلم :

- كلاً .. كلاً .. لماذا تنفق نقودك في الأسفار؟! بحسي أنني أكلفك كثيراً هنا .

- هل تلوميني من أجل ذلك يا مرغريت .. وليس هذا من الكرم في شيء؟! .

فقلت وهي تبسط إلي يدها .  
- عفواً يا أرمان .. هذا الجو يؤثر في أعصابي .. فإني أقول غير

ما أعني .. .  
وقبلتني .. واستغرقت في تفكير عميق .

لم أعرف سبب حزنها وتفكيرها .. ولكنني خفت أن تكون قد شمت هذه الحياة الهادئة التي تتجدد .. ولا يتغير لونها وطعمها .. فاقترحت عليها أن نعود إلى باريس . ولكنها رفضت هذا الاقتراح .. وأكدت أنها لن تكون في أي مكان أسعد منها في «بوجيفال» ..

ثم لاحظت من بعد أن برودنس بدأت تقتصد في زيارتنا .. ولكنها تسرف في الكتابة إلى مرغريت .

وفي أحد الأيام .. لم ترح مرغريت غرفتها .. فذهبت إليها .. ووجدتها تكتب .

إنني أؤثر الموت على العودة إلى الماضي بعد أن تذوقت سعادة هذه الحياة الجديدة .. فعندي بالأا تتركني أبداً يا أرمان .. أبداً مدى الزمان ..

- إنني لا أعدك .. بل أقسم لك .  
فنظرت إلى عيني .. كأنما لتتحقق من إخلاصي .. ثم دفنت

رأسها فوق صدري وهي تهتف :  
- آواه .. إنك لا تعرف كم أحبك ..

وذات مساء .. كنا نطل من النافذة ونرى القمر يغالب السحب .. ونصغي إلى زفيف الريح في أغصان الشجر .. وقد أمسك كل منا بيد صاحبه .. حين قالت مرغريت :

- إن الشتاء مقبل .. فهلاً ترى أن نبرح هذا المكان؟

- وإلى أين نذهب؟  
- إلى إيطاليا .

- هل مللت الإقامة هنا؟  
- إنني أخاف من الشتاء .. وأخشى من أن نعود إلى باريس .

- لماذا؟  
- لأسباب كثيرة .

ثم استطردت .. دون أن تعبر عن أسباب خوفها :  
- هل تذهب إلى إيطاليا؟ سأبيع كل ما أملك .. وسنعيش هناك

بما يتجمع لدي من النقود .. وهناك لن يعرفني أحد .. ولن نرى أثراً للماضي .. فهل توافق؟! .

- ما دامت هذه رغبتك فلنذهب .. ولكن ماذا يلجئك إلى بيع

سألتهما :

- لمن تكتبين؟

فأجابت :

- هذه رسالة لبرودنس .. فهل تودّ أن تقرأها؟

وكنت أفزع من كل ما تشتمّ منه رائحة الشك والريبة .. فأجبتها بالنفي .. ولكنني شعرت شعوراً غامضاً بأن مضمون هذه الرسالة يبيط اللثام عن السر في حزن مرغريت وكثرة تفكيرها .

وفي اليوم التالي .. اقترحت عليّ مرغريت أن نقضي النهار في جزيرة كرواسي .. وكانت شديدة المرح والسرور .. فأجبتها إلى ما طلبت .

ولحماً عدنا إلى المنزل في المساء .. قالت نانين :

- لقد جاءت برودنس .

فسألتهما مرغريت :

- وهل ذهبت؟

- نعم .. إنها ذهبت في مركبتك .. قائلة إنها اتفقت معك على ذلك .

فقالت مرغريت بسرعة :

- لا بأس .. فلتناول طعام العشاء .

\*

وبعد يومين وردت رسالة من برودنس .

وانقضى بعد ذينك اليومين أسبوعان .. خيل إليّ فيهما أن مرغريت قد نسيت حزنها الغامض . ولكن المركبة لم تعدا

سألتهما في أحد الأيام :

- كيف حدث أن برودنس لم ترد مركبتك حتى الآن؟

فأجابت :

- إن المركبة تحتاج إلى بعض الترميم .. ثم إن أحد الجياد أصيب بمرض .. ونحن على كل حال لسنا بحاجة إلى المركبة هنا .  
وجاءت برودنس لزيارتنا بعد بضعة أيام .. وأكدت ما قالته مرغريت .

وسارت المرأتان معاً في الحديقة وهما تتحدثان .. ولما لحقت بهما .. صمتا فجأة .

وقبل أن تتصرف برودنس في المساء .. تدمّرت من شدة البرد .. وسألت مرغريت أن تعيرها معطفها .

وانقضى شهر آخر .. كانت مرغريت في خلاله أكثر حيوية .. وأشدّ مرحاً .

ولكن المركبة لم تعد .. والمعطف لم يرد! فأدهشني ذلك .. وانهزت فرصة وجود مرغريت في الحديقة .. وحاولت أن أفتح الدرج الذي اعتادت أن تضع فيه رسائل برودنس .. ولكن دون جدوى .. فقد كان الدرج محكم الغلق .

وفتحت الأدراج الأخرى .. التي تضع فيها مرغريت حليها ومجوهراتها .. ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أجد أثراً للحلي والمجوهرات .

استولت عليّ الريبة .. وهممت أن أسأل مرغريت الحقيقة .. ولكنني شعرت بأنها لن تذكرها لي بحال .

قلت لها :

- يا حبيبي مرغريت .. إنني جئت أسألك أن تسمح لي بالسفر

إلى باريس .. فإن أسرتي لا تعرف مكاني .. ولا بد أنني سأجد في منزلي بضع رسائل من أبي .. ولا شك أنه سيشعر بالقلق إذا لم يتلق رداً عليها .

فقلت :

- اذهب يا عزيزي .. ولكن عد بسرعة .

فذهبت .

وأسرعت إلى بيت برودنس .

قلت لها في غير لفّ أو دوران :

- أجيبيني في صراحة يا برودنس .. أين مركبة مرغريت وجيادها؟

- بيعت .

- ومعطفها؟

- بيع .

- ومجوهراتها؟

- رهنت .

- ومن ذا الذي باع ورهن هذه الأشياء؟

- أنا .

- ولماذا لم تنبئني قبل أن تفعل شيئا من كل هذا؟

- لأن مرغريت أوصتني بالكتمان .. وحظرت عليّ أن أقول لك شيئا .

- ولماذا لم تطلبي مني نقوداً؟

- لأن مرغريت لا تسمح بأن أطلب منك .

- وماذا صنعت بكل هذا المال؟

- استفدته في سداد بعض ديونها ..

- إذا ، فهي مدينة بمبالغ طائلة؟

- إنها لا تزال مدينة بثلاثين ألفاً من الفرنكات .. ألم أقل لك كل ذلك من قبل أيها الصديق؟ ولكنك رفضت أن تصدقني .. وهأتدا تدرك الحقيقة بنفسك .

لقد ذهب تجار الأثاث إلى الدوق الذي كان قد وعدهم بالسداد .. ولكنه طردهم .. وكتب إليهم في اليوم التالي يقول إنه لا صلة له بالآسة مرغريت جوتييه ..

وعلم سائر الدائنين بأن الدوق هجر مرغريت .. وأنها باتت تعاشر شاباً فقيراً .. فألحوا في طلب ديونهم ..

وهمت مرغريت أن تبيع كل شيء .. ولكن بعد فوات الوقت .. فقد أوقع الدائنون الحجر على كل ما تملك ..

ولم تشأ أن تسألك شيئاً .. فباعت مركبتها وجيادها .. ومعطفها .. ورهنت حليها .. هل تريد أن ترى وثائق البيع والرهن؟ وقدمت إليّ هذه الوثائق .. واستطردت بإصرار المرأة التي تشعر بصواب رأيها وصدق نظرها :

- هل صدقتني الآن؟ لقد ظننت أنه يكفي أن يحب الإنسان وأن يكون محبوباً .. وأن يذهب بصاحبته إلى الحقول .. كلاً .. يا صديقي .. كلاً .. فإنه توجد إلى جانب الحياة الروحية .. حياة أخرى مادية لا يمكن إغفالها .. وأنبئ المشاعر الإنسانية تتصل بالأرض بخيوط رقيقة .. ولكنها أمتن من الفولاذ .

وإذا كانت مرغريت لم تقدم على خيانتك عشرين مرة .. فما عزوفها إلا لأنها من طينة شاذة .. غير طينة سائر النساء ..

وهذا الكونت من أكابر الحمقى المغفلين .. ولن يكون عقبه بينك  
وبين مرغريت .

أما مرغريت .. فإنها ستبكي حزناً في البداية .. ثم تثوب وتآلف  
هذه الحياة .. وتشكر في أحد الأيام على ما فعلت .  
وما عليك إلا أن تتصور أن مرغريت متزوجة .. وأنت تخدم  
زوجها .

هذا كل ما هنالك .  
لقد قلت لك ذلك قبلاً .. ولكني قلته في ذلك الوقت على  
سبيل التصيحة .. أما الآن فإنه ضرورة ملحة .

كان كلامها أقرب ما يكون إلى الصواب .  
استطردت :

- إنَّ مشيئتنا من النساء يتوقعن دائماً أن يقع العشاق في  
حباتهن .. ولكنهن لا يتوقعن أبداً أن ينزلن في حبات عشاقهن ..  
والأدخرن المال للمستقبل .. حتى إذا بلغن الثلاثين أمكنهن  
الاستمتاع بالحب لذاته ..

أواه .. ليتني عرفت فيما مضى ما أعرف الآن .  
وأخيراً .. لا تقل شيئاً لمرغريت .. فقط عد بها إلى باريس .  
إنك خلوت بها خمسة أو ستة شهور .. وهذا يكفي .. فأغضض  
عينيك قليلاً .. فذلك كل ما يطلب منك الآن يا عزيزي .

وبعد أسبوعين يصبح الكونت دي ن. عبداً لها .. فتعمل هي  
على الاقتصاد والأدخار طيلة الشتاء .. ومتى أقبل الصيف التالي  
أمكنكما اعتزال العالم مرة أخرى .

إنني لا ألوم نفسي على أنني نصحت لها بأن تفعل غير ما  
فعلت .. فقد آلتني في الحق أن أرى هذه الفتاة المسكينة تجرد نفسها  
من كل شيء .. ولكنها لم تصغ إلى نصيحتي .. وأجابت بأنها  
تحبك .. وأنها لا تخونك ولو أعطيت ملك الأرض .

وكل ما بينكما جميل جداً .. وشعري .. ولكن الإنسان لا  
يستطيع أن يسدد ديونه بباقة من العواطف .. أو قصيدة من الشعر ..  
وها هي ستصبح على قارعة الطريق .. ما لم تجد ثلاثين ألف فرنك  
بأسرع ما يمكن ..

- حسناً .. سأعطيك هذا المبلغ .

- هل في نيتك أن تقترضه؟

- دون شك ..

- هأنذا بسبيل عمل رائع .. ستثقل كاهلك بالديون .. وتستدعي  
المشاكل بينك وبين أبيك .. وفضلاً عن ذلك فإنه ليس من السهل أن  
يجد الإنسان ثلاثين ألف فرنك بين عشية وضحاها ..

كلاً يا عزيزي أرمان .. إنني أعرف النساء أكثر مما تعرفهن .. فلا  
تقدم على حماقة كهذه سوف تندم عليها في أحد الأيام أمر الندم .  
كن رجلاً عملياً .

إنني أقترح عليك أن تهجر مرغريت .. ولكني أنصح لك مع  
ذلك بأن تعاشرها كما كنت تفعل في بداية الصيف .

دعها تبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق .. فالدوق على  
استعداد لأن يعود إليها .. الكونت دي ن. قد قال لي أمس فقط  
بأنه على استعداد لسداد ديونها .. مضافاً إليها خمسة آلاف فرنك  
شهرياً إذا هي قبلته عشيقاً لها .

## الفصل التاسع عشر

عبر أبي في رسائله الثلاث الأولى عن قلقه لصمتي المطلق .. واستفسر عن سببه .. ولكنه لمح في رسالته الأخيرة إلى أنه قد علم بما طرأ على حياتي من التبدل .. وأعلن عزمه على الحضور إلى باريس في الحال .

وكنت أحترم أبي وأجله .. وأخلص له الحب .. فكتبتُ إليه أقول إنني قمت برحلة قصيرة شغلتنني عن الكتابة إليه قبل الآن .. ثم رجوته أن يذكر لي موعد قدمه .. لأثأب لاستقباله والترحيب به .

ثم ذكرت لخادمي عنواني في بوجيفال .. وأوصيته أن يحمل إليّ أول رسالة ترد من أبي ..

وعدت في الحال إلى بوجيفال .. فوجدت مرغريت في انتظاري بباب الحديقة .. وملامحها تنم عن القلق والجزع .. ولكنها ما كادت تبصر بي حتى أسرعرت إليّ .. وألقت بنفسها بين ساعدي .. ولم يسعها إلا أن تسأل :

- هل قابلت برودنس؟؟

- كلاً ..

- لقد أبطأت في باريس .

- ذلك لأنني وجدت بضع رسائل من أبي .. وكان من الضروري أن أكتب إليه .

وبعد بضع دقائق .. دخلت نانين وهي تلهث .. فنهضت

هكذا تُدبر الأمور يا صديقي العزيز .

لا شك أن هذه النصيحة كانت في نظرها خلاصة الحكمة ودراب الخلاص .. ولكنني رفضتها مشتمراً .  
كان من المستحيل أن يرضى لي حبيبي أو يرضى لي كرامتي بأن أقوم بهذا الدور .. كذلك كنت واثقاً من أن مرغريت قد وقفت من طريق الحياة عند المكان الذي تؤثر معه الموت على قسمة نفسها بيني وبين عشيق آخر .  
أجبتها :

- بحسبك ما قلت على سبيل الدعابة ! كم تبلغ ديون مرغريت وعلى وجه التحديد؟

- تبلغ ثلاثين ألف فرنك كما قلت لك .

- ومتى يجب سدادها؟!

- بعد شهرين ..

- سأدبر لك هذا المبلغ ..

فهرزت كتفها .

قلت :

- سأدبره لك .. ولكن يجب أن تقسمي لي بالأ تذكري لمرغريت أنني الذي قمت على سداد ديونها ..

- كن مطمئناً ..

- وإذا عادت وأنفذتك لبيع شيء أو رهته .. فأنيثيني ..

- لا خوف من ذلك .. إذ لم يبق لها شيء .

وتركتها وقصدت إلى منزلي للبحث عن رسائل من أبي .. فوجدت هناك أربع رسائل ..

مرغريت من مكانها .. وانتحت بها ناحية .. وتحدثنا طويلاً .

ثم انصرفت نانين .. وعادت مرغريت إلى مكانها بجائبي ..  
وقالت وهي تتناول يدي :

- لماذا لم تذكر أنك قابلت برودنس؟

- من قال لك؟

- نانين .

- وكيف علمت؟

- لقد ذهبت في أثرك .

- لا بد أنك أمرتها بذلك ؟!

- هذا صحيح .. فإنه خطر لي أن أمراً هاماً لا بد قد استوجب

رحيلك الفجائي إلى باريس .. أنت الذي لم تفترق عني لحظة

واحدة منذ أربعة شهور .. فأشفتك أن تكون قد نزلت بك كارثة ..

أو تكون ذهبت لمقابلة امرأة غيري .

- يا لك من طفلة؟

- ولكنني مطمئنة الآن .. فقد علمت على الأقل ماذا صنعت ..

ولكنني لا أعلم ماذا قيل لك .

فأبرزت لها رسائل أبي .

قالت :

- لست أسأل عن هذا .. ولكنني أريد أن أعرف لماذا ذهبت إلى

برودنس؟

- لمقابلتها .

- أنت لا تقول الحق يا أرمان !

- ما دمت تريدني الحقيقة .. فأعلمي إذا .. لقد أردت أن أسأله

عن صحة الجواد .. وعمّاً إذا كانت لا تزال بحاجة إلى معطفك  
ومجوهراتك .

فامتنع لونها .. ولكنها لم تحب .

واستطردت :

- وقد علمت ماذا فعلت بالجياذ والمعطف والمجوهرات .

- وهل يغضبك ما فعلت؟

- إنما يغضبني أنك لم تفكري في أن تسأليني حاجتك .

فأجابت :

- في صلة كالصلة التي بيننا .. إذا كانت لدى المرأة بقية من

الكرامة واحترام النفس .. فإنها تقدم على كل توضيحية ممكنة ولا

تسال عشيقها نقوداً تكسب حبيها لوناً تجارياً .

أنا واثقة من أنك تحبني .. ولكنك لا تعرف مبلغ وهن العقدة

التي تربط قلب الرجل بامرأة من طرازي . ومن يعلم؟ فقد تسوهم

في إحدى ساعات الغضب والسأم أن ما بيننا لم يكن إلا خطة ماهرة

من تدبيرى لابتزاز أموالك !

ويعد .. فما حاجتي إلى المركبة والجياذ؟ إنني أستطيع الحياة من

دونها .. وقد تخلصت من نفقاتها وتكاليفها .. وما دمت تحبني

فذلك كل ما أبغي .. ولا شك أنك ستحبنى من دون مركبتي

وجياذي ومعطفي ومجوهراتي .

\*

قالت كلماتها هذه بلهجة تنم عن الوفاء والإخلاص . فاغرورت

عيناى بالدموع .. وقلت لها وأنا أضغط يدها بين يدي :

- ولكنك تدركين يا فتاتي العزيزة أنني سأعلم بأمر هذه التضحية

في أحد الأيام .. وأنتي متى علمت فلن أحتمل وقعها .  
- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن يكون شعورك الكريم نحوي سبباً في حرمانك من أقل متعة من متعك . ومن يعلم؟ فقد يتراءى لك أيضاً في إحدى ساعات الغضب والسأم .. أنك لو عاشرت رجلاً سواي ما اضطررت إلى الإقدام على مثل هذه التضحية .. وأنا لا أريدك أن تندمي لحظة واحدة على أنك عاشرتني .

كلاً يا عزيزتي مرغريت .. بعد أيام قلائل سترد إليك مركبتك وجيادك ومجوهراتك .. إنها ضرورية لك كالهواء الذي تنسمينه .. وأنا أحبك في ترفك أكثر مما أحبك في بساطتك . وقد يبدو ذلك مضحكاً ولكنه الحقيقة .

- إذا فأنت لا تحبني !

- يا لك من حمقاء !!

- كلاً! لو أنك أحببتني لتركنتني أحبك بطريقتي الخاصة .. ولكنك ما زلت ترى في فتاة لا ترضى بحياة الإسراف والبذخ بديلاً .. فتاة تشعر دائماً بأنك مرغم على أن تنفد ما أجرتها .

إن كبرياءك ترفض أدلة حبي .. وأنت تفكر على الرغم منك في أنك سوف تهجرني يوماً ما .. وتصبر على أن تضع رهاقة شعورك فوق كل شك .

إنك على حق يا صديقي .. ولكنني كنت أرجو منك خيراً من هذا ..

وهمت بالنهوض .. فأمسكت بها وقلت :

- إنني لا أريد غير سعادتك .. ولا أحب أن أترك لك سبيلاً

للومي والعتب علي .. هذا كل ما أريد ..  
- وعلى ذلك فإننا نوشك أن نفترق ..

فصحت :

- ولماذا؟ ومن ذا الذي يستطيع التفريق بيننا؟!

- أنت .. لأنك لا تسمح لي بأن أفهم مركزك .. وتريد بإصرارك على إحاطتي بما ألفتته من أسباب الترف والبذخ أن تحتفظ بالهوية الأديبة السحيقة التي تفصل بيننا .

أنت .. لأنك لا تؤمن بأنني أحبك حباً بريئاً من المطامع المادية .. أترفض أن تشاطرنني إيرادك الذي نستطيع أن نحيا به سعيدين وتأتي إلا أن تورد نفسك موارد الخراب إرضاء لصلفك وتعتك؟

هل تظن أنني أقومُ حبك بالمركبات والمجوهرات؟ هل تتوهم أن سعادتي في المظاهر الجوفاء التي نحرض عليها عندما لا نحب أحداً .. ولا نقيم لها وزناً عندما نعرف معنى الحب الصحيح؟

تريد أن تقوم على سداد دهبوني؟ وأن تضطلع بنفقاتي؟ فكم من الوقت تستطيع الإنفاق؟ ثلاثة شهور على الأكثر .. ثم تغلب على أمرك .. وتقبل مرغماً كل ما أقدمه إليك .. وهو ما لا يرضاه الرجل الشريف؟!

إن إيرادك في الوقت الحاضر يكفيننا لأن نعيش سعيدين .. وسأبيع من متاعي ما زاد عن حاجتي .. ونؤثت بيتاً صغيراً نقضي فيه فصل الشتاء .. وكوخاً في الحقول نقضي فيه فصل الصيف .. وهكذا ننعم بالشباب والسعادة والحرية .

فبالله يا أرمأن .. لا تردني إلى الحياة التي اضطررت أن أحيائها فيما مضى من سني حياتي ..



رغبتي بصفته صديق أبي ومسجل عقود الأسرة .. ووعدني الرجل في النهاية بأن يتخذ الإجراءات الضرورية لتحقيق غرضي .. ولا حاجة بي إلى القول بأنني ألحفت عليه أن يكتب الأمر عن أبي .. وانصرفت لمقابلة مرغريت .. وكانت تنتظرنني في بيت جوليا ديار .. ثم أسرعنا في البحث عن منزل ملائم .. ووقعنا أخيراً على ضالتنا ..

بعد ثلاثة أيام .. كنت أتناول طعام الإفطار مع مرغريت في بيتنا في «بوجيفال» .. ولا شاغل لنا غير الاستعداد للمستقبل السعيد .. حين أقبلت نانين .. وأنبأتني بأن خادمي يريد مقابلتي . ودخل جوزيف .. وقال لي :

- لقد جاء والدك إلى باريس يا سيدي .. وهو ينتظرك في المنزل ويرجو أن تذهب لمقابلته في الحال .

ورغم بساطة هذا النبا .. فقد حملق كل منا في وجه صاحبه .. وكأنما توجسنا شراً .. قلت لها وأنا أربت على يدها :

- لا تخشي شيئاً .

فغمغمت :

- عد بأسرع ما يمكنك .. سأنتظرك عند النافذة .

وبعد ساعتين كنت بباب منزلي في شارع بروفس .

### الفصل العشرون

وجدت أبي جالساً يكتب أمام طاولة صغيرة في قاعة

لم أجد ما أقوله .. وامتلأت عيناى بدموع الحب والإعجاب .  
قالت :

- لقد أردت أن أدبر أنا كل شيء .. فأسدد ديونى .. وأوثق بيتنا الجديد .. كل ذلك في الخفاء .. ودون علمك .. ولكن ما دامت برودنس قد حدثتك فيجب عليك أن توافق مقدماً .. بدلاً من أن توافق مؤخراً .. فماذا تقول؟

- إنني أرضى بما يرضيك يا مرغريت .

واتفقتنا على الخطة التي رسمتها .. فكادت تطير فرحاً .. وراحت ترقص وتغني ولا تتحدث إلا عن البيت الجديد الذي تنوي إعداده لإقامتنا .

ورأيت أنها سعيدة بهذا التدبير الذي سوف يجمع بيتنا إلى الأبد .. فلم أضع في سبيله العرائيل .

وقررت من ناحيتي أن أقابل تضحيتها في سبيلي بالنزول لها بصفة دائمة عن الإيراد الذي ورنته عن أمي .. ولكنني كتمت عليها هذا القرار .. لأنني كنت واثقاً من أنها لن توافق عليه .

وفي أحد الأيام .. ذهبت مع مرغريت إلى باريس للبحث عن منزل نقيم فيه .. وانتهزت هذه الفرصة .. وقصدت إلى مسجل للعقود للتفاهم معه على إجراءات التنازل .

كان مسجل العقود هذا صديقاً لأبي .. وقد تعودت أن أذهب إليه مرتين في كل عام لتسلم إيرادي .

ولمّا كان من الضروري أن يعرف الرجل الحقيقة .. عاجلاً أو آجلاً .. فقد فاتحته في الأمر بصراحة .. وسرّني أنه لم يعارض

الاستقبال .. وأدرت .. حالما رفع رأسه ونظر إلي .. أنه يبيت أمراً .  
وتظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئاً .. وشدت على يده بحرارة ..  
وسالت :

- متى جئت يا أبي العزيز؟

- جئت أمس .

- وهل قصدت إلى هنا مباشرة كالعادة؟

- نعم .

- يؤسفني كثيراً أنني لم أكن هنا لاستقبلك .

وتوقعت عندئذ أن أسمع المحاضرة التي ينم عنها تهمهمه .. ولكنه  
لم يجب .. بل لصق غلاف الرسالة التي كتبها .. وأمر خادمي أن  
يذهب بها إلى صندوق البريد .

ولمّا أصبحنا وحيدين .. نهض أبي واقفاً .. واستند بمرفقه إلى  
حافة الموقد .. وقال :

- أريد أن أتحدث إليك في أمر هام يا عزيزي أزمان .

- إنني مصغ إليك يا أبي .

- هل تعدني بأن تكون صريحاً؟

- إنني صريح دائماً .

- هل صحيح أنك تعاشر امرأة يقال لها مرغريت جوتيه؟

- نعم ..

- هل تعرف من هي هذه المرأة؟

- إنني أعرفها حق المعرفة .

- وهل من أجلها أهملت زيارة أختك وزيارتي هذا العام؟

- نعم يا أبي .. إنني أعتزّف بذلك .

- وهل تحب هذه المرأة كثيراً؟

- أنت ترى أنني لا بد أحبها كثيراً ما دمت قد أهملت من أجلها  
واجباً من أقدس الواجبات .. وهو إهمال أضرع إليك في خضوع أن  
تغفروه .

ولا شك أنه لم يكن يتوقع مني هذه الأجوبة الحاسمة  
الصريحة .. لأنه فكر لحظة ثم قال :

- وهل أدرت أنك لا تستطيع الاستمرار في هذه الحياة؟

- كنت أخشى ألا أستطيع الاستمرار . ولكنني لم أدرك ذلك حق

الإدراك .

فقال بلهجة أشد صرامة :

- كان يجب أن تفهم أنني لا أسمح لك بهذه الحياة المتبدلة .

- لقد فكرت في أنني ما دمت لا أجلب العار على الاسم الذي  
أحمله .. فإنني أستطيع أن أحمي كما أشتهي !

وشعرت من دفق الحب الذي ملك عليّ كل جارحة من  
جوارحي بقوة على النضال - حتى ضد أبي - للاحتفاظ بمرغريت .

قال :

- لقد حان الوقت الذي يجب أن تجد فيه عن هذه الحياة بديلاً .

- لماذا يا أبي؟ !

- لأنك توشك الإقدام على عمل يتنافى مع احترامك المزعوم  
لشرف الأسرة ..

- إنني لا أفهم كلامك يا أبي .. !

- سأحدثك في وضوح .. لا بأس من أن تتخذ لك عشيقة ..  
فذلك من شؤونك .. ولا بأس من أن تتقد عشيقتك ثمن السعادة

التي تغدقها عليك .. فذلك من واجباتك .. لا بأس من هذا  
وذاك .. أما أن تهمل أقدس واجباتك من أجل عشيقتك .. وتسمح  
للإشاعات عن حياتك الفاضحة أن تغذ إلى القرية التي أعيش فيها  
وتتلفح الاسم الشريف الذي أعطيتك إياه .. فذلك ما لا يجب أن  
يكون .. وما لن يكون أبداً .

- اسمح لي يا أبي أن أقول لك بأن أولئك الذين أبلغوك عني  
هذه الأمور لم يتحروا الحقيقة .

صحيح أنني عشقت مرغريت جوتيه .. وصحيح أنني  
أعاشرها .. ولكنني لم أعطيها الاسم الكريم الذي خلعت علي .. ولم  
أنفق في سبيلها أكثر مما يسمح به إيرادي .. ولم أتورط من أجلها  
في أي دين .. ولم أف بجمالي موقفاً يجيز للاب أن يقول لابنته ما  
قلته لي الآن ..

- إن من حق الأب دائماً أن يحوك ابنه عن طريق الشر .. متى  
رآه يتحدر إليه .. وأنت لم تات شراً حتى الآن .. ولكنك مقدم  
على شر دون شك ..

- أبي !!

- بُني .. إنني أعرف الحياة أكثر مما تعرفها .. فاعلم إذاً أن  
العواطف البريئة لا توجد إلا حيث توجد المرأة الطاهرة .. وإن كل  
(مانون) .. جديدة بأن تخلق (دي جريو) ..  
والآن .. أليس في نيتك أن تهجر عشيقتك؟

- يؤسفني أن أخرج على طاعتك يا أبي .. ولكن هذا  
مستحيل ..

- سأرغمك على تركها ..

- من سوء الحظ يا أبي .. إنه لا يوجد في هذه الأيام منقياً  
للغنايات .. كذاك المنفى الذي أرسلت إليه (مانون) . ولو وجد هذا  
المنفى لتبعت مرغريت إليه ..

ماذا أستطيع أن أفعل يا أبي .. إنني ربما كنت على خطأ ..  
ولكنني لن أجد السعادة إلا في حب هذه الفتاة .

- افتح عينيك يا أرمان .. وافهم أبك الذي طالما أحبك .. ولا  
يريد إلا سعادتك .

هل مما يشرفك أن تعاشر معاشرة الأزواج فتاة ملكها الجميع  
قبلك؟

- وماذا يضيرني يا أبي .. طالما أن أحداً لن يملكها بعدي؟  
ماذا يضيرني ما دامت الفتاة تحبني .. وما دام هذا الحب قد  
خلقها خلقاً جديداً؟

- هل تعتقد إذاً أن رسالة الرجل الشريف في الحياة أن يرد البغايا  
إلى سواء السبيل؟ ترى ماذا يكون رأيك في كلامك هذا متى بلغت  
الأربعين؟ إنك سوف تضحك ساخراً من غرامك .. إذا وجدت في  
مقدورك أن تضحك على الإطلاق .. ولم يكن هذا الغرام قد ترك  
في حياتك جراحه الدامية!

وترى ماذا كان يمكن أن يكون شأنك الآن .. لو أن أبك جرى  
على خطتك وأسلم نفسه لنزوات الشباب .. بدلاً من أن يقف ثابتاً  
على دعائم الشرف .. والإيمان الصادق؟ فكّر يا أرمان .. ولا تشدق  
بهذه السخافات .. إنك ستهجر هذه المرأة اليس كذلك؟ إن أبك  
يضرع إليك ..

لم أجب ..

فمرغريت ليست الفتاة التي تتصورها .. وهذا الحب أبعد من أن  
يضلني عن سواء السبيل .. بل إنه على العكس حقيق بأن ينمي في  
نفسي أنبل الخصال .. وأكرم المشاعر .. لأن الحب الصحيح يهذب  
الرجل ويصلحه .. مهما تكن المرأة التي تلهم هذا الحب .

لو أنك عرفت مرغريت .. يا أبي .. لاقتنت بأنها ليست المرأة  
التي تسوقني إلى ما تخشى .

إنها نبيلة كأنبل النساء .. ولا تصدر في حياها لي عن مصلحة  
شخصية أو غرض مادي ..

- الأمر الذي لم يمنعها من قبول كل ثروتك .. لأن الستة آلاف  
فرنك التي ورثتها عن أمك .. وتريد أن تتنازل لها عنها - تذكر جيداً  
ما أقول - هذه الستة آلاف فرنك هي كل ثروتك .

ولا شك أنه احتفظ بهذا التهديد .. كأخر سهم في جعبته ..  
وأخر صدمة يوجهها إلي .. ولكني كنت أقوى أمام تهديده مني أمام  
رجائه وضراوته .

سالته :

- من قال لك إنني أنوي النزول لها عن هذا المبلغ؟

- صديقي مسجّل العقود .. هل ظننت أن هذا الرجل الشريف  
يقدم على عمل كهذا دون أن يسألني رأيي؟

إنني لم أحضر إلى باريس إلا لأمنعك من السعي إلى خرابك في  
سبيل هذه المرأة .

لقد أورتك أمك هذه الثروة .. لكي تعيش بها عيشة الرجل  
الشريف .. لا لكي تقدمها هبة لعشيقائك !

- أوكد لك يا أبي أن مرغريت تجهل أمر هذه الهبة .

واستطرد :

- أرمان .. أستحلفك باسم والدتك الطاهرة أن تصغي إلي .

انفض عن حذائك غبار هذه الحياة التي سوف تنساها بأسرع مما  
تتصور .. والتي تشدك إليه الآن نظرية جوفاء .. لا تصمد أمام  
التفكير الرصين .. والمنطق السليم .

إنك لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرك .. ففكر في  
مستقبلك ..

أنت لا تستطيع دائماً أن تحب هذه المرأة .. وهي بدورها لن تحبك  
دائماً .. كلاكما يبالغ في تقدير حبه للآخر ..

أنت تسد أمام نفسك دروب المستقبل .. وإذا خطوت خطوة  
أخرى تعذر عليك أن تبرح الطريق الذي تسلكه الآن .. وقضيت بقية  
حياتك نادماً على شبابك الضائع .. أسفاً على أملك المهدوع ..

اذهب إلى أختك واقض عندها شهراً أو شهرين .. فيبرتك الحب  
العائلي المقدس من هذه الحمى .. لأن ما بك ليس إلا نوعاً من  
الحمى ..

ألا تذهب يا أرمان؟؟

قال هذه العبارات بلهجة رقيقة ضارعة .. فلم أقو على الكلام ..

قال بصوت يرتجف من التأثر :

- ألا تحيب؟!

فأجبهه أخيراً :

- لا أستطيع أن أعدك بشيء يا أبي .. إن ما تطلبه مني يفوق  
طاقتي .. ولكن صدقني .. إنك تبالغ في تقدير نتائج هذه الصلة .

- وإخرج .. وأغلق الباب وراءه بعنف .. فترسيت لحظة .. ثم انصرفت بدوري . واستأجرت مركبة انطلقت بي إلى «بوجيفال» . وهناك وجدت مرغريت عند نافذتها تنتظر عودتي .

## الفصل الواحد والعشرون

صاحت وهي تعانقني :

- ها أنت قد عدت أخيراً . ولكن ما أشد امتناع لوناك وقصصت عليها ما كان بيني وبين أبي .. فهتفت :  
- آه .. هذا ما حدثني به قلبي عندما أعلن جوزيف قدوم أليك .. ارتعجت كما يرتعج الإنسان إذا سمع نبأ سيئاً .  
مسكين أنت يا عزيزي .. إنني سبب همومك جميعاً .. ربما كان من الخير لك أن تهجرني .. بدلاً من أن تغضب أبك !  
ومع ذلك .. فلأنني لم أفعل ما يستوجب نقمته علي .. إننا نعيش معاً في هدوء .. وستكون حياتنا في المستقبل أكثر هدوءاً .  
وهو يعلم أنه يجب أن تكون لك حبيبة .. وكان ينبغي أن يسره أن أكون أنا حبيبتك لأنني أحبك .. ولا أطمع في غير حبك .  
هل حدثتني كيف وضعنا خططنا للمستقبل؟  
- نعم .. وذلك ما ضاعف حنقه .. لأنه رأى في خططنا دليلاً على حينا المتبادل .  
- وما العمل إذا؟  
- يجب أن نصمد يا عزيزتي مرغريت إلى أن تعبر العاصفة .  
- ولكن هل تعبر بسلام؟

- إذأ ، لماذا وهبتها إياها؟  
- لأن هذه المرأة التي تنعتها بأبشع الصفات وتطلب إلي أن أهجرها قد ضحكت بكل ما تملك .. لكي تحيا معي .  
- وهل قبلت هذه التضحية؟ أي رجل أنت يا سيدي لكي تسمح للآنسة مرغريت بأن تضحي بشيء من أجلك؟ .. كفى .. كفى .. لا بد أن تترك هذه المرأة .. إنني رجوتك منذ لحظة .. أما الآن فلأنني أمرك .

إنني لا أسمح بمثل هذه الحماقات في منزلي .  
احزم أمتعتك .. وتأهب للرحيل معي .  
- عفواً يا أبي .. إنني لا أنوي الرحيل ..  
- لأن؟  
- لأنني بلغت سنًا تجوز ألا أطمع أمرك ..  
فامتقع وجه أبي .. وقال بعد لحظة :  
- حسناً يا سيدي .. إنني أعرف الآن ما يجب أن أفعله ..  
وقرع الجرس .. فدخل خادمي .  
قال له :  
- اذهب بأمتعتي إلى فندق باريس .  
ثم نفذ إلى الغرفة المجاورة ليرتدي ثيابه .  
ولما خرج .. اقتربت منه .. وقلت له :  
- هل تعدني يا أبي بالأفعال شيئاً من شأنه أن يؤلم مرغريت؟  
فصعدني بعينييه باحتقار وأجاب :  
- أظن أنك جنتت .

- يجب أن تمرّ .

- ولكن أباك لن يقف عند هذا الحد .. أليس كذلك؟

- ماذا تعتقدين أنه سيفعل؟

- لا أعلم .. ولكنه سيفعل كل ما يمكن أن يفعله الأب ليرغم ولده على طاعته .. وسيذكرك بماضي .. وقد يشرفني بقصة جديدة يخترعها عني لينفرك مني .. ويحملك على هجري .

- أنت تعلمين أنني أحبك .

- نعم .. ولكني أعلم كذلك بأنك يجب أن تطيع أباك .. عاجلاً أو آجلاً .. وقد ينتهي بك الأمر إلى الاقتناع بوجهة نظره والخضوع لمشيئته .

- كلاً يا مرغريت .. أنا الذي سوف أتمعه .. إنه متأثر بكلام بعض أصدقائه .. ولكنه في الواقع طيب القلب .. وكريم الخلق .. سريع المغفرة .

وبعد .. فماذا يهمني من غضبه أو رضاه؟

- لا تقل ذلك يا أرمان .. إنني أوتر أي شيء على أن يقال إنني سبب الخلاف والموجدة بينك وبين أباك .. فدع اليوم يمر بسلام .. واذهب إليه غداً بعد أن تهدأ سورة الغضب .. فربما استطعتما التفاهم .

- ولا تحاول زعزعة مبادئه .. وتظاهر بالروضوخ لبعض رغباته .. واقتصد في حماسك لي .. فيهدأ بالأ .. ويترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي .

- ولا تيبأس يا عزيزي .. وكن واثقاً من أنه مهما حدث فإن مرغريت لن تتحوك عن إخلاصها ووفائها لك .

- هل تقسمين؟

- وهل يجب أن أقسم؟

وقضينا بقية النهار في التفكير والتدبر للمستقبل .. ونحن ننتظر في كل لحظة أن يطرأ جديد .. ولكن لحسن الحظ أن اليوم انقضى ولم يحدث شيء .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي قصدت إلى الفندق الذي انتقل إليه أبي .. فبلغته في منتصف النهار .

ولكن قيل لي إن أبي قد انصرف .. فذهبت إلى منزلي حيث رجوت أن أجده .. ثم قصدت إلى مكتب مسجل العقود .. ولكنني لم أجد أبي هنا أو هناك .

وعدت إلى الفندق .. وانتظرت حتى الساعة السادسة .. ولكن دون جدوى .

ولمّا عدت أدراجي إلى «بوجيفال» لم أجد مرغريت في انتظارني كالعادة .. رأيتها جالسة بجوار الموقد .. مستغرقة في التفكير بحيث لم تشعر بي عندما دنوت منها .

ولمّا قبلت جبينها .. رفعت رأسها بحدة .. كأنما أيقظتها القيلة فجأة من نوع عميق ..

قالت :

- لقد أفزعتني .. هل قابلت أباك؟

- كلاً .. ولا أعرف أين هو .. فقد بحثت عنه في كل مكان اعتاد أن يختلف إليه !

كانت مرغريت في اليوم السابق حزينة مهمومة .. أما اليوم فقد وجدتھا شديدة الاضطراب والانعزال .. وما إن وقع بصرھا علی حتى أحاطت عتقی بساعديھا وانفجرت باكیة .

ولسأ سألتھا عن سر هذا الحزن الفجائي الذي ضاعف فزعی .. لم أجد عندها جواباً شافياً .. ولجأت إلى الأعدار المصطنعة التي تخترعها المرأة عادة عندما ترغب في كتمان الحقيقة ..

ولسأ زال اضطرابھا قليلاً .. حدثتها بتسجحة رحلتي .. وأبرزت لها بطاقة أبي .. وقلت إن لهجة الرسالة تدعو إلى التنازل .

أما هي فإنھا ما كادت ترى البطاقة وتسمع ملاحظتي علی مضمونها .. حتى سألت دموعھا مرة أخرى .. فأشفت أن تتناھا نوبة عصبية .. ودعوت نانین .. وتعاونت معها علی وضع الفتاة المسكينة في فراشھا .. غير أنها ظلت تبكي .. وهي مسكة بيدي .. تقبلھا بين الفينة والفينة دون أن تنطق بكلمة واحدة .

وسألت نانین .. هل تسلمت سيدتها رسالة آلتھا .. أو هل زارھا في غيابي زائر أزعجھا؟! ولكن الوصيفة أجابت سلباً .

بيد أنني كنت موقناً أن شيئاً لا أعلمه قد حدث .. فأحزن مرغريت أمس .. وأزعجھا اليوم .. وهي لا تريد أن تبوح لي به .

وهذا اضطرابھا قليلاً في المساء .. فأجلستني بجانبھا .. وراحت تجدد عهود حبھا .. وإخلاصھا وتبسم لي .. ولكن بجهد .. لأن الدموع كانت تملأ عينیھا بالرغم منها .

وقد لجأت إلى كل حيلة ممكنة لحملھا علی الاعتراف بأسباب حزنھا .. ولكنها أصرت علی أجوبتها المبهمة التي لا تشفي غليلاً ..

إذاً ، يجب أن تعيد الكرة غدأ .

- الرأي عندي أن أنتظر حتى يرسل في طلبي .. وفي اعتقادي أنني فعلت ما فيه الكفاية .

- كلاً يا أرمأن .. هذا لا يكفي .. ويجب أن تعود إلى أبيك .. غدأ علی وجه الخصوص .

- لماذا غدأ دون أي يوم آخر؟

فاحمرّ وجهھا قليلاً ولكنها أجابت :

- لأن هذه المواظبة من جانبك تبدو أدل علی الإخلاص وحسن النية .. وقد تثير عطف أبيك وتجلب لنا صفحه .

وقضت مرغريت بقية النهار مهمومة حزينة مكتئبة .. واضطرت أكثر من مرة أن أكرر أسئلتني لها .. قبل أن نفهمني .. وتجيئني .. وقد سوّغت كآبتها .. وتفكيرھا .. وحزنها بأنها من تأثير الخوف الذي أوقعته في نفسها مفاجآت اليومين الأخيرين .

وفي صباح اليوم التالي .. أصرت علی رحلتي إصراراً لم أنهم له معنى ..

وقصدت باريس ولم أجد أبي في الفندق .. ولكنه كان قد ترك لي بطاقة علیھا هذه الكلمات :

«إذا حضرت لمقابلتي اليوم فانتظرنی حتى الساعة الرابعة .. وإذا لم أعد في الساعة الرابعة فتعال غدأ لمقابلتي وتناول طعام الغداء معي .. فإنني أريد أن أتحدث إليك» .

فانتظرت حتى الساعة الرابعة .. ولم يحضر أبي .. فانصرفت .

وأخيراً نامت بين ساعدي .. ولكنه كان نوماً متعباً للجسم .. لا مجدداً لقواء .. لأنها كانت تهذي تارة وتصرخ تارة أخرى .. وتنهض فجأة بين الفينة والفينة .. حتى إذا استوتقت من وجودي بجانبها طلبت إليّ أن أقسم بأن أحبها دائماً ..

ثم غلبها النعاس آخر الأمر فاستغرقت في نوم عميق استمر إلى الساعة الحادية عشرة .

ولمّا استيقظت .. نظرت حولها .. وسألني :

- هل ستذهب الآن؟

فأجبتها وأنا أريت على يدها :

- كلاً .. فلا يزال الوقت مبكراً ..

- ومتى تذهب إلى باريس إذا؟

- في الساعة الرابعة ..

- بهذه السرعة؟ إذا فابق معي .. حتى يحين وقت الرحيل .. هل تبقى معي؟

- طبعاً .. ألا أفعل ذلك دائماً؟

- يا للسعادة!! فلنتناول طعام الإفطار إذاً .

- تريشي!

- وهل تزودني بقبلاتك إلى أن ترحل؟

- نعم .. وسأعود بأسرع ما يمكن ..

فنظرت إليّ بعينين شاردتين .. وغمغمت :

- وهل تعود حقاً؟! ..

- طبعاً .

- هذا صحيح .. إنك ستعود الليلة .. وسأنتظرك كالعادة ..

وستحبنى .. ونكون سعيدين كما كنا منذ عرف أحدا الآخر .

قالت ذلك بصوت أجوف .. خيل إليّ أنه يحجب فكرة مؤلمة .. قلت لها :

- أصغي إلي .. أنت مريضة .. ولا أستطيع أن أترك هكذا .. سأكتب إلى أبي لكيلا ينتظرنني .

فهتفت :

- كلاً .. كلاً .. لا تفعل ذلك وإلا اتهمني أبوك بأنني أمتنع عن مقابله كلما أراد أن يراك .. كلاً .. يجب أن تذهب .. ثم .. إنني لست مريضة .. إنني في خير حال .. كل ما هنالك أنني رأيت بين النوم واليقظة حلماً مزعجاً ..

وحاولت بعد ذلك أن تبدو مرحة مغتبطة .

ولمّا حان وقت الرحيل .. قبلتها .. واقترحت عليها أن ترافقني إلى المحطة .. عسى أن ينعشها السير والنسيم .. فوافقت .. وألقت على منكبها معطفاً .. وخرجت معي ..

وخطر لي مرة أن أعدل عن الرحيل .. ولكنني اشفقت أن أغضب أبي أكثر مما أغضبته .

قلت لمرغريت عندما تحرك القطار :

- إلى المساء إذاً ..

ولكنها لم تجب .. وقد حدث مرة .. قبل ذلك .. أنها لم تجب على مثل هذه الكلمات ..

كان ذلك عندما قضت ليلتها مع الكونت دي ج .. ولكن هذا الحادث وقع منذ وقت طويل .. حتى كادت أن



أنساء .. وفضلاً عن ذلك فإن خيانة مرغريت أصبحت اليوم آخر ما يثير مخاوفي ..

ولمّا وصلت إلى باريس .. أسرعته إلى بيت برودنس كي أرجوها أن تذهب إلى مرغريت .. لترقّه عنها .. وتدخل السرور على نفسها .. وجدهتها أمام أدوات الزينة . فهتفت في شيء من القلق :

- آه .. هل جاءت مرغريت بروفتك؟

- كلاً ..

- وكيف هي؟

- إنها مريضة .

- أليس في نيتها الحضور؟

- وهل يجب أن تحضر؟

- فاحمرّ وجهها .. وقالت في ارتباك :

- كان من الطبيعي أن أنتظر قدومها معك ما دمت قد جئت إلى باريس !

- كلاً .. لم تأت !

- ونظرت إليها بحدّة .. فأطرقت برأسها .

- قلت :

- لقد جشنتك يا عزيزتي برودنس لكي أرجوك أن تذهبي إلى

مرغريت .. وتقضي المساء معها .. فإنني لم أرها قط كما هي

اليوم .. وأخشى أن يصيبها مرض .

- فأجابت :

- إنني الليلة على موعد لتناول طعام العشاء في باريس .. وليس

في استطاعتي أن أذهب إلى مرغريت .. ولكنني سأزورها غداً .

فشكرتها .. وقصدت إلى الفندق .. فوجدت أبي في الانتظاري .

شعرت من نظرتة الأولى إليّ أن غضبه عليّ قد انفتأ .

قال وهو يبسط إليّ يده :

- سرتني أن تزورني مرتين يا أرماني . هذه الزيارة المزدوجة إذا دلت

على شيء فعلي أنك فكرت في الأمر ملياً .. كما فكرت أنا فيه .

- هل تسمح لي يا أبي بأن أسألك .. ماذا كانت نتيجة تفكيرك؟

- كانت أنني شعرت بأنني بالغت في تقدير أهمية الإشاعات التي

سمعتها .. وأنتي قررت أن أكون أرحم بك وأكثر عطفاً عليك .

فصححت في جذل :

- ماذا تقول يا أبي العزيز؟

- أقول يا ولدي إن كل شاب يجب أن تكون له خليلية .. وإنني

أفضل بعد المعلومات التي استقيتها أن تكون عشيقاً للأئسة جوتيه

من أن تكون عشيقاً لأية امرأة أخرى .

- يا أبي العزيز .. ما أسعدني بك .

وتحدثنا قليلاً .. ثم جلسنا لتناول طعام الغداء .

وكان أبي جدلاً .. أمّا أنا فكنت أتحمق شوقاً للعودة إلى

«بوجيفال» لكي أذف هذا النبا السعيد إلى مرغريت .

كنت أنظر إلى الساعة في كل دقيقة .. فقال أبي :

- أنت قلق .. وتريد أن تتركني بأسرع ما يمكن .. أليس كذلك؟

آه .. لكم الله أيها الشباب ! إنكم تضحون بالمواقف الخالصة على

مذبح العواطف المريبة .

- لا تقل ذلك يا أبي .. إن مرغريت تحبني وإنني واثق من ذلك .

فلم يجب .. ولم يبد عليه أنه صدقتي أو لم يصدقني .  
والحف عليّ في البقاء إلى اليوم التالي .. ولكنني قلت له إن  
مرغريت مريضة .. وإن غيابي سيقلقها حتماً .. ثم وعدته أن أزوره  
في اليوم التالي .

وكان الجو صحواً .. فاقترح أن يرافقني إلى المحطة ..  
وشعرت بأنني لم أكن في حياتي أسعد مني في ذلك اليوم ..  
وبأنني أحب أبي كما لم أحبه من قبل .  
وقبل أن يتحرك القطار .. سألتني مرة أخرى أن أبقى .. فرفضت .  
- أنت تحبها بإخلاص إذا؟  
- بل أحبها حب جنون ..  
- اذهب إليها إذا ..

ومرّ بيده على جبينه .. كمن يريد أن يقصي خاطراً يضايقه ..  
وفتح فمه ليتكلم .. ولكن عاد فشد على يدي بسرعة وقال وهو  
ينصرف على عجل :  
- إلى اللقاء غداً .

## الفصل الثاني والعشرون

كان يبدو لي أن القطار لا يتحرك .  
ووصلت إلى «بوجيفال» في الساعة الحادية عشرة .. ولم أر  
ضوئاً في أية نافذة من نوافذ البيت .. فقرعت الجرس مراراً ..  
وانتظرت طويلاً .. وأخيراً فتحت نائين الباب .. وأضاءت مصباحاً .  
سألتها :

- أين سيدتك؟!

فأجابت :

- ذهبت إلى باريس .

- إلى باريس؟!

- نعم يا سيدي .

- متى؟!

- بعد ساعة من انصرافك .

- ألم تترك لي شيئاً؟ ألم تترك لي رسالة؟!

- كلا ..

- هذا عجيب .. هل قالت لك إنها على موعد؟!

- كلا ..

وتركتني الفتاة وانصرفت إلى غرفتها .

قلت لنفسي :

- يحتمل أن تكون مرغريت قد ارتابت في الأمر وحسبت أنني ما  
قصدت إلى باريس إلا لأستمع بالحرية .. فأرادت أن تتأكد  
بنفسها ..

ويحتمل أن تكون برودنس قد كتبت إليها تستقدمها لأمر هام  
خاص بديونها .. ولكن ..!

لقد قابلت برودنس في باريس .. ولم تذكر لي شيئاً عن رغبتها  
في دعوة مرغريت !!

وفجأة .. تذكرت سؤال برودنس حين قالت : (إذا فليس في نيتها  
أن تأتي اليوم؟) ..

وتذكرت ارتباكها حين نظرت إليها بعد هذا السؤال الذي يشتم  
منه أنهما كانتا على موعد ..

ثم تذكرت إلى جانب هذا وذاك دموع مرغريت وحزنها الغامض .. وإلحاحها عليّ في الرحيل .. وسألت نفسي ما معنى كل هذا؟! ترى هل أقدمت على خيانتني .. واعتمدت على أنها تستطيع العودة قبلي .. ثم خانتها الظروف؟؟!

ولم أحول بصري عن عقربي الساعة حتى انتصف الليل .. وأيقنت ألا أمل في الانتظار .

على أنني لم أصدق .. بعد الذي رأيته من دلائل حبها وإخلاصها وتضحياتها .. أنها تقدم على خيانتني ..

كلآ .. كلآ .. لا بد أنها وجدت من يبتاع أثائها فذهبت إلى باريس لهذا الغرض .. وكتمت الأمر عني لكيلا تؤلني .. ولعماً أمسى عليها المساء قصدت إلى بيت بروندس .

ثم من يدري؟ فلعلها الآن في طريقها إلى هنا .

ولكن .. ما سبب دموعها إذا؟

لا شك أن الفتاة المسكينة لم تستطع .. رغم حبها لي .. أن تنزل عن مظاهر بذخها ونعمتها دون أن تسكب دموعاً .

وانتظرت بفارغ الصبر أن أراها فأضمتها إلى صدري .. وأقول لها إنني أدركت سر غيابها .

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال .. ولم تعد مرغريت .

واستولى عليّ الفزع فضاغف الحمى التي تمشي في قلبي ودمي .

ترى هل وقع لها حادث ما؟! 14

ترى هل جرحت .. أو ماتت؟! لا شك أنها أبطأت لسبب خارج عن إرادتها .

ودقت الساعة الواحدة .. فقلت لنفسي «سأنتظر ساعة أخرى .. فإذا لم تأت .. انطلقت للبحث عنها في باريس» .

ولم أجسر على الاستمرار في التفكير .. فتناولت كتاب «مانون ليسكو» وتصفحته ..

خيل إليّ أنني أرى في بعض صفحاته آثار الدموع .. على أنني لم أستطع القراءة .. فطويت الكتاب .. وسرت إلى

النافذة .. وأصغيت ..

ولكنني لم أسمع صوت مركبة .. أو وقع حوافر جياد ..

ثم دقت ساعة الكنيسة دقاتها الحزينة ..

وعندئذ استبد بي القلق .. فقصدت إلى غرفة ناين .. وكانت الفتاة نائمة .. ولكنها استيقظت عندما فتحت الباب .. وسألت :

- هل عادت سيدتي؟! 15

فأجبها :

- كلآ .. ولكن متى عادت فقولي لها إنني لم أطلق صبراً ..

وانتي ذهبت للبحث عنها في باريس .

- في هذه الساعة؟! 16

- نعم .

- ولكن كيف؟ لن تجد مركبة تذهب بك!

- سأذهب سيراً على قدمي .

- إن السماء تمطر ..

- ذلك لا يهمني ..

- إن سيدتي ستعود حتماً .. وإذا لم تعد فإنك ستجد متسعاً من

الوقت غداً للبحث عنها .

- إنني أفضل أن أبحث عنها الآن .. إلى اللقاء يا نائين .

فجاءتني بمعظفي .. ووضعتني على كتفي .. واقترحت عليّ أن  
توقظ مدام أرنولد وتسالها عما إذا كان في الإمكان الحصول على  
مركبة .. ولكنني رفضت هذا الاقتراح حرصاً على الوقت .. ولأنني  
كنت بحاجة إلى الهواء والتعب الجثمانى للتغلب على انفعالي .  
وتناولت مفتاح شقة مرغريت في شارع دانتان وانصرفت .

أخذت أعدو في البداية .. حتى أرغمني التعب على التريث .

وكان الظلام شديد الحلكة .. فأشفت أن أصطدم بإحدى  
الأشجار التي كانت تتراعى لي كأنها أشباح مقبلة نحوي .. ورأيت  
من الحكمة أن أتأمل في سيرى .

ومرت مركبة تنهب الأرض في الطريق إلى «بوجيفال» فانتعشت  
أمالي .. ورجوت أن أجد مرغريت في هذه المركبة فصرخت :

- مرغريت .. مرغريت .

ولكنني لم أسمع جواباً .. واستمرت المركبة في طريقها .

وأشرقت أخيراً على باريس .. فشدّد منظرها عزمي .. وأنعش  
قواي .. وأوسعت الخطى .

لم أصادف أحداً في طريقي .. وخيل إليّ أنني أسير في مدينة  
الموتى .

ولمّا وصلت إلى شارع دانتان .. كان الفجر قد بزغ .. ودقت  
ساعة إحدى الكنائس خمس دقائق .

طرقت باب مرغريت .. وذكرت اسمي للبواب .. وكنت قد

أعطيته من القطع الذهبية ما جعله يعرف اسمي .. ويعلم أن من  
حقني أن أزور الأكسة جوتييه في الساعة الخامسة صباحاً .

ولم أسأله عن مرغريت .. وهل هي في منزلها .. خوفاً من أن  
أسمع جوابه بالنفي . وآثرت الشك مع الأمل .. على اليأس المطلق .  
أسرعت إلى شقة مرغريت .. وأصغيت ببابها .. ولكنني لم أسمع  
حركة أو حساً .

فتحت الباب .. ودخلت .

كانت جميع النوافذ مغلقة .. والستائر مسدلة .. ففتحت نافذة  
في قاعة الطعام .. وانسلّ ضوء الفجر إلى داخل الشقة .

وأسرعت إلى مخدع مرغريت .. وفتحته .. ونظرت إلى  
الفراش . كان خالياً .

نفذت من باب إلى باب .. وانتقلت من غرفة إلى غرفة ..  
ولكنني لم أجد أحداً ..

خيل إليّ أنني أجن .

وأخيراً .. قصدت إلى قاعة الثياب .. وفتحت نافذتها .. وناديت  
برودنس مراراً .. ولكنني لم أسمع جواباً .

وعدت إلى البواب .. وسألته .. هل جاءت مرغريت إلى شقتها  
في أثناء النهار؟

فأجاب :

- نعم يا سيدي .. . جاءت ومعها مدام برودنس ..

- ألم تترك لي رسالة؟!

- كلاً ..

- هل تعلم ماذا فعلنا بعد ذلك؟!

- انصرفنا في مركبة ..

- وما نوع هذه المركبة؟!

- مركبة أجرة ..

يا سيدي .. ما معنى كل هذا؟!

وطرقت باب المنزل المجاور .. ففتحه البواب وسألني :

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد مقابلة مدام برودنس .

- لم تعد بعد .

- هل أنت واثق؟

- نعم يا سيدي .. وها هي رسالة وردت إليها أمس ولم تتسلمها بعد .

ولوح بالرسالة في يده .. فوقع بصري على غلافها وعرفت خط

مرغريت ..

تناولتها بلهفة .. ونظرت إليها بإمعان .. وقرأت على غلافها هذا

العنوان «إلى السيدة برودنس دفتروي .. لتسليمها إلى السيد أرمان

ديفال» .

فهتفت :

- هذه الرسالة لي ..

فقرأ العنوان بدوره .. وسألني :

- هل أنت السيد ديفال؟

- نعم .

- آه .. إنني أعرفك .. فقد رأيتك مراراً عند السيدة برودنس .

وابتعدت عن المنزل .. وفضلت الرسالة .

لو أن صاعقة انقضت أمامي لما أذهلتني كما أذهلني مضمون هذه الرسالة .

قرأت فيها هذه الكلمات :

«عندما تقرأ هذه الرسالة يا أرمان .. أكون قد أصبحت عشيقة  
رجل آخر .. وبهذا ينتهي كل ما كان بيننا .

«عد إلى أبيك يا صديقي ..

«اذهب إلى أختك فهي صبية عذراء تجهل كل تعاستنا وبؤسنا ..  
وسوف ينسبك عطفها ما قدر لك أن تعانیه على يد مرغريت  
جوتيه .. تلك المرأة التي كتب لها الضياع .. والتي تدين لك  
بالسعادة القصيرة التي نعمت بها في حياتها» .

عندما قرأت هذه الرسالة خيل إلي أن عقلي يكاد يتفجر ..

وغشيت عيني سحابة مظلمة .. واندفع الدم في عروقي بقوة ..

وأخيراً ملكت نفسي قليلاً .. ونظرت حولي .. وأدهشني أن أرى  
الدنيا لا تزال دنيا رغم الكارثة التي نزلت بي وسحقت قلبي .

لم تكن لدي القدرة على احتمال هذه الصدمة بمفردي .. وجرى  
خاطري إلى أبي .. فهو الوحيد الذي أستطيع أن أفزع إليه في  
محتتي .. والوحيد الذي يستطيع أن يرفه عني ..

انطلقت أعدو كالجائنين .. كاللصوص .. حتى وصلت إلى فندق  
پاريس .. وصعدت إلى غرفة أبي .

كان بابها مفتوحاً .. وكان أبي يقرأ .. فنظر إليّ بقليل من  
الدهشة .. وكأنه كان ينتظر قدومي ..  
ألقيت بنفسي بين ساعديه دون أن أنطق بكلمة .. ثم دفعت إليه  
رسالة مرغريت .. وانفجرت باكياً ..

### الفصل الثالث والعشرون

قضيت الشهر التالي بين أبي وأختي .. ولم يغني عطفهما  
وحنانهما عن التفكير في مرغريت ..

كنت قد أحببت هذه المرأة حباً يستحيل معه أن أنساها بهذه  
السرعة .. أو أنسى الطعنة النجلاء التي أدمت بها قلبي ..

لم أقصها عن ذهني .. ولم أستطع إقصاءها .. وشعرت بأنه  
يتعين عليّ أن أحبها .. أو أن أكرهها .. وشعرت أكثر من ذلك  
برغبة شديدة في أن أراها للمرة الأخيرة على الأقل ..

وملكتني هذه الرغبة حتى لم أطق صبراً على تحقيقها .. فقلت  
لأبي إنني أتوي السفر إلى باريس لشأن من الشؤون .. على أن أعود  
بسرعة ..

ولا شك أنه أدرك غرضي .. لأنه ألحف عليّ في البقاء .. فلما  
أصررت أشفق أن يؤثر الرفض في حالتي النفسية .. فضمنني إلى  
صدره .. ورجاني .. والدموع تترقرق في عينيه .. أن أعود إليه  
بأسرع ما يمكن ..

ولم يغمض لي جفن .. حتى وصلت إلى باريس .. وكان أول  
ما فعلته بعد أن نفضت غبار السفر عن نعليّ أنني قصدت إلى  
الشانزليزيه ..

ولم تمض ساعة حتى رأيت مركبة مرغريت قادمة من ناحية  
الكونكورد ..

لا شك أنها ابتاعت المركبة والجياذ من جديد .. لأنني وجدت  
المركبة كما كانت .. وعرفت السائق ..

ومرت بي المركبة .. ولكنني لم أر أثراً لمرغريت ..

وفجأة .. وقفت المركبة .. ووقع بصري على مرغريت وهي  
تقترب من مركبتها ومعها فتاة لم أراها من قبل ..

ومرت المرأتان على مقربة مني .. ولاحظت أن مرغريت قد  
امتصت وعلت شفيتها بشمامة عصبية ..

أما أنا فقد انتفض قلبي بين ضلوعي .. ولكنني تظاهرت بالهدوء  
وقلة الاكتراث إلى أن مضت المركبة بالمرأتين ..

كنت وثقاً من أن هذه المقابلة الفجائية قد أذهلتها .. فهي ولا  
شك قد علمت بأنني رحلت .. فاطمأنت .. وظنت أنها تخلّصت  
منني إلى الأبد .. أمّا الآن .. بعد أن قابلتني وجهاً لوجه ..  
ولاحظت شحوبي .. وانفعالي .. فإنها سوف تضرب أحساساً  
لأسداس .. وتتساءل عن غرضي من العودة .. ولا يهدأ لها بال في  
هذه الحال ..

لو أنني وجدتها شقية تعسة .. لأمكن إذاً أن أصفح عنها ..  
ولكنني على العكس .. فقد وجدتها سعيدة وعليها كل مظاهر النعمة  
التي أغدقها عليها عاشقها الجديد ..

كان من المستحيل ألا أكثرت بأمر هذه المرأة .. ولكنني كنت  
وثقاً .. من أن عدم اكتراثي سوف يضايقها أكثر من أي شيء آخر

في الوجود .. لذلك رأيت من الضروري أن أظاهر بقلة  
الاكتراث .. ليس أمامها فقط .. بل وكذلك أمام جميع الذين  
يعرفون الصلة التي كانت بيننا .

وهكذا قصدت إلى بيت برودنس .. وعلى شفطي ابتسامه  
مصطنعة .

وذهبت بي الخادمة إلى قاعة الاستقبال .. وانطلقت إلى سيدتها  
لتنبتها بقدمي .

وبعد انتظار بضع دقائق أقبلت برودنس .. ورافقتني إلى  
مخدها .. وما كدت أجلس حتى سمعت في الغرفة المجاورة وقع  
أقدام تتحرك بخفة .. ثم فتح الباب الخارجي .. وأغلق بعنف .

قلت لبرودنس :

- ترى هل أزعجك قدومي؟

- كلاً .. على الإطلاق .. لقد كانت مرغريت هنا .. فلماً ذكرت

الخادمة اسمك أسرع بالفرار .. ولعلك سمعت وقع خطواتها  
وصفق الباب ..

- وإذا فأنا أخيفها الآن؟!

- كلاً .. ولكنها تخشى أن يزعجك مرآها .

- وكيف؟ هذه المسكينة قد هجرتني لتسترد مركبتها وأثاثها  
ومجوهراتها .. وقد أحسنت صنعاً .. فليس ثمة ما يستوجب غضبي  
عليها!

ثم استطردت بقلة اكتراث :

- إنني قابلتها اليوم .

- أين؟!

- في الشانزليزيه .. وكانت معها فتاة أخرى على جانب عظيم  
من الجمال .. فمن هي هذه الفتاة؟!

- هل تذكر أوصافها؟!

- إنها شقراء .. هيفاء .. لها عينان زرقاوان .. وترتدي ثوباً  
أنيقاً ..

- آه .. هذه هي أوليمبيا .. إنها جميلة حقاً .

- مع من تعيش؟!

- إنها لا تعيش مع أحد .. وتعيش مع كل إنسان ..

- وبيتها؟!

- بشارع ترونشيه رقم .. آه .. هل ترجو أن تخطب ودها؟!

- من يعلم ماذا يأتي به الغد؟!

- ومرغريت؟!

- إذا قلت لك إنني لم أعد أفكر بها كنت كاذباً .. ولكنني من

أولئك الذين يمشون بالقطيعة والبغضاء إلى أقصى حدودهما .

إن مرغريت نبذتني ببساطة جعلتني أشعر بأنني كنت مغفلاً حين

أحببتها .. لأنني في الواقع .. كنت أحبها .

- لقد أحببتك أيضاً .. ولا زالت تحبك .. ودليل ذلك أنها ما

كادت تراك اليوم حتى أسرعرت إليّ لتقول لي ذلك .. ولحماً وصلت

إلى هنا .. كانت تلهث وترنح إعياء وانفعالاً ..

- وماذا قالت لك؟

- قالت لي «لا شك أنه سيأتي لزيارتك» ثم طلبت إليّ أن أسألك

الصفح عنها .

- لقد صفحت .. فقولني لها ذلك .. إنها لم تفعل إلا ما كان يجب عليّ أن أتوقعه من فتاة مثلها ..  
- ولكنها ستكون أهدأ بالأ إذا علمت أنك تدرك الظروف التي أوجبتها إلى ما فعلت ..

لقد هجرتك في الوقت المناسب يا صديقي .. فقد علم دائرتها أنها تهم ببيع أثائها بثمان معقول لتقوم على سداد ديونهم .. فأشفقوا أن تفلت منهم هذه الصفتة .. وقرروا طرح الأثاث للبيع بعد يومين .. وإرسال مندوبيهم لشراؤه بثمان بخس ..  
- والآن هل دفعت كل ديونها؟  
- تقريباً ..

- ومن الذي أمدّها بالمال؟  
- الكونت دي ن .. نعم يا عزيزي .. هناك أناس ولدوا لذلك .. وقد أعطاهم الكونت عشرين ألفاً من الفرنكات .. ولكنه نال أربه .. إنه يعلم جيداً بأنها لا تحبه .. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعاملها بكرم وسخاء .. فابتاع لها مركبتها وجيادها وردّ إليها حليها .. وهو يعطيها الآن أكثر مما اعتاد الدوق إعطائها ..  
- وهل تقيم الآن في باريس بصفة دائمة؟!

- لقد رفضت العودة إلى «بورجيفال» .. وطلبت إليّ أن أحزم أمتعتها هناك .. ففعلت .. وحزمت أمتعتك كذلك .. وهي هنا كلها .. فيما عدا حقيبة صغيرة عليها الحروف الأولى من اسمك .. فقد رغبت مرغريت في الاحتفاظ بها .. إنك إذا طلبتها أستردها منها ..  
فمغمت :

- لتحتفظ بها كما تشاء ..

وصعدت الدموع من قلبي إلى عيني ..  
ولو دخلت مرغريت في تلك اللحظة .. لطلقت فكرة الانتقام وألقيت بنفسي تحت قدميها ..  
قالت برودنس :

- على أنني لم أرها قط كما هي الآن .. إنها لا تنام على الإطلاق .. وتسرف في اللهو والعبث والشراب إسرافاً قاتلاً .. هل في نيتك أن تزورها؟

- وما الفائدة؟ إنني جئت لزيارتك .. لأنك أكرم عليّ منها .. ولأنني عرفتك قبل أن أعرفها .. ولك وحدك الفضل في أنني كنت عشيقها .. والفضل في أنني لم أعد كذلك .. أليس هذا صحيحاً؟  
- إنني قد فعلت في الحق كل ما أستطيع .. لكي أحملها على إقصائك وكنت على يقين من أنك ستشكرني في النهاية ..

وانتهى الحديث بيننا .. وانصرفت من بيتها وفي عيني دموع غضب وفي صدري صيحة انتقام ..

هكذا كانت مرغريت بغياً كسائر البغايا ..  
وهكذا لم يقو الحب العميق الذي زعمته لي على مقاومة حبها الغريزي للترف والبذخ .. والتبذّل ..  
وقضيت الليل كله في التفكير والبحث عن كل وسيلة ممكنة لتعذيب هذه المغلوقة البائسة ..



وعلمت أن مرغريت اتخذت أولمبيا صديقة لها منذ عودتها إلى باريس .. ونُهي إليّ أن في نية هذه الأخيرة أن تقيم في بيتها حفلة راقصة .. وأيقنت أن مرغريت ستشارك في هذه الحفلة .. فسمعت للحصول على إحدى بطاقات الدعوة .. وتكلل سعيي بالنجاح .. وقصدت إلى مكان الحفلة .. وصدرني مرتع لعاصفة من العواطف المتباينة .. ووصلت والحفلة في عنفوانها .. فألفيت القوم يرقصون .. ويغنون .. ووقع بصري على مرغريت وهي تراقص الكونت دي ن .. وهذا الأخير ينظر حوله في غرور وخيلاء كأنه يريد أن يقول لكل إنسان :

- هذه المرأة لي .

ولمحتني مرغريت .. واضطربت .. ولكنني ابتسمت وحيثتها بقلّة اكترات .  
على أنني ما كدت أفكر في أنها لم تعد لي .. وأنها ستتنصرف بعد الحفلة في صحبة هذا الأحقق الغبي .. حتى صعد الدم إلى وجهي .. وتآقت نفسي إلى تعكير هاتهما بأية وسيلة .

وانتهزت إحدى الفرص .. وتقدّمت من صاحبة الحفلة لأحبها . كانت فتاة حسناء .. مديدة القامة .. جميلة التكوين .. ناضجة الأثونة .. ترتدي ثوباً يكشف عن كنفها البديعين ويرز تقاطيع صدرها المغربي .. تأملتها طويلاً .. ولم يسعني إلا الاعتراف بأنها إذا لم تفضل مرغريت جمالاً وتكويناً .. فإنها لا تقل عنها بحال .  
ولعل مرغريت كانت تشعر بذلك أيضاً .. فإنها لم تحموك بصرها عن صديقتها الجديدة وهي تتحدث إليّ .. وقد لاحظت ذلك وتفقت

ذهني في الحال عن أبسط وسيلة للانتقام .  
لم يكن لأولمبيا عشيق في ذلك العهد .. وكان في استطاعة من يلوح لها بالذهب أن يملا هذه الوظيفة الشاغرة .. فقررت أن أتخذ هذه المرأة عشيقاً لي .. وبدأت بأن دعوتها للرقص معي .. وكانت النتيجة أنه لم تنقض بضع دقائق .. حتى انصرف مرغريت من المرقص .. ووجهها شاحب كوجوه الموتى .

### الفصل الرابع والعشرون

كانت نتيجة لا بأس بها ولكنها غير شافية .  
شعرت بسلطاني على هذه المرأة .. واستخدمته بنذالة .. لإذلالها وتحقيرها .. فليغفر لي الله ما جلبت عليها من الألم والهم .  
وبعد العشاء .. بدأ المدعوون يلعبون الميسر .. فجلست بجانب أولمبيا وجعلت أقامر بطيش وقلّة اكترات لقنا نظرها إليّ .. ولكنني كنت حسن الحظ .. فلم تمض بضع دقائق حتى رحبت مائة وخمسين جنيهاً .

ثم تضاعف ربحي .. وتضاعفت خسارة أولمبيا .. ولاحظت أنها تنظر في جشع إلى كومة النقود التي أمامي .. ثم لاحظت أنها كفت عن اللعب بعد أن خسرت ما معها .. ولعله كان كل ما تملك .. فأعطيتها بعض النقود لتواصل اللعب إلى جانبي .

وحوالى الساعة الخامسة صباحاً .. نهض اللاعبون .. وانصرفوا .. فانصرفت معهم .. وكنت أسير في المؤخرة .. وأولمبيا

تبعنا لتودعنا .. فانتظرت حتى انصرف آخر المدعوين .. ثم تحوكت  
إليها فجأة .. وقلت :

- أريد أن أتحدث إليك .

فقلت :

- غداً .

- كلاً .. الآن .

- ماذا تريد أن تقول؟

- هل خسرت؟

- نعم .

- كل ما تملكين؟

فترددت .

قلت :

- تكلمي .. وكوني صادقة صريحة .

- نعم .

- لقد ربحت ثلثمائة جنيه .. وسيكون لك هذا المبلغ إذا سمحت

لي بالبقاء معك ..

ووضعت كومة النقود الذهبية على المائدة ..

قالت :

- ولم هذا العرض؟

- لأنني والله أحبك ..

- كلاً .. إنك تحب مرغريت .. وتريد أن تصيح عشيقتي لثأر

منها .

إنك لا تستطيع أن تخدع امرأة مثلي يا صديقي العزيز .. ولكن  
من سوء الحظ أنني لست من الكبر والبشاعة بحيث أقبل هذا الدور  
الذي تعرضه علي!

- هل ترفضين؟

- نعم ..

- فكّري في الأمر يا عزيزتي أوليمبيا .. هذا مبلغ لا يستهان به ..  
ولو أنني وسّطت بيني وبينك أحد الناس وأرسلت معه هذا المبلغ  
لقبّلت ما أعرضه عليك .. ولكنني آثرت التفاهم معك بتغيير  
وساطة .. فاقبلي ولا تسألني عن الأسباب والدوافع .. وفكري فقط  
في أنك جميلة وأنه لا غرابة في أن أحبك وأهيك مالا .

كانت مرغريت غائبة كأوليمبيا .. ومع ذلك فلأنني لم أكن أجرو  
قط على أن أقول لها في أول مقابلة .. ما قلت لهذه المرأة .. وذلك  
لأنني اكتشفت في مرغريت غرائز تفتقر إليها هذه المخلوقة .. وقد  
شعرت وأنا أعرض على أوليمبيا هذا العرض بأنني احتقرها وأنقر  
منها .

وقبلت أوليمبيا الصفقة .. واتخذتني عشيقاً .. ولكنني انصرفت  
من بيتها في اليوم التالي .. وأنا لا أذكر كلمة واحدة من كلمات  
الحب التي رأت من واجبها أن تصبها في أذني لأنها أخذت  
عوضاً ..

ومنذ ذلك اليوم .. أصبحت مرغريت هدفاً لقمتي واضطهادي .

وقد انقطعت الصلة بينها وبين أولمبيا لأسباب يسهل إدراكها ..  
وأمنت في النكاية بمرغريت .. فأهديت عشيقتي الجديدة مركبة  
وجياداً ومجوهرات .. وتورطت في المقامرة وغيرها من الحماقات  
الخليقة برجل يعشق امرأة مثل أولمبيا .

وانخدعت برودنس كما انخدع غيرها .. وأيقنت أنني قد نسيت  
مرغريت نسياناً تاماً .

أما مرغريت - ولا أعلم هل انخدعت بدورها أو أدركت سرّ هذا  
الهوس - فإنها راحت تقابل الإهانة والعدوان .. بالكبرياء والترفع ..  
ولكنني لاحظت أنها تتألم وأنها تزداد نحولاً وشحوباً وحزناً .

وفي بعض الأحيان .. كانت إذا قابلتني .. بعد إحدى الإهانات  
اللاذعة .. نظرت إليّ متوسّلة مستعطفة نظرة لا أمالك معها من  
الشعور بالخجل والندم .. فأود لو أنطرح على قدميها .. وأسألها  
الصفح .

ولكن هذا الشعور سرعان ما كان يفسح في السبيل لورغبتني  
الشريرة في الانتقام والتشفي .

وظنت أولمبيا أنها تفوز بالزيد من رضاي كلما شددت التكبير  
على مرغريت .. فراحت تهينها في كل فرصة بإصرار وسفالة المرأة  
التي تشعر بتشجيع الرجل .

وانتهى الأمر بمرغريت أنها كفت عن التردّد على المسارح والملاهي  
والمراقص خوفاً من أن تلتقي بنا .. .

ولكنني لم أقتنع بكل هذا .. وذهبت أذيع عن مرغريت أبشع  
الإشاعات وأوقحها .. .

والواقع .. أنني كنت أشبهه برجل ثمل بنشوة الخمر الرديء .. .

وانتهى إلى تلك الحالة من الانفعال والهياج التي تستطيع فيها اليد أن  
ترتكب أية جريمة .. دون أن يكون للعقل ضلع فيها .

وضاعف جنوني ما كنت أرى من هدوء مرغريت .. وسكيتها ..  
وكبرياتها .. وترفعها .. وذلكها .. .

وصادف أن جاءتني أولمبيا في أحد الأيام وقالت لي إن مرغريت  
قابلتها في أحد المراقص .. وإنها انتهزت فرصة انفرادها وأهانتها .. .

والظاهر أن أولمبيا كانت البادئة بالإهانة والعدوان كالعادة .. وأن  
مرغريت غضبت لكرامتها أخيراً فقابلت الإهانة بالمثل .. .

ومهما يكن من أمر .. فقد أصرت أولمبيا على أن أكتب إلى  
مرغريت رسالة لاذعة أطلبها فيها احترام المرأة التي أحبها .. سواء  
أكنت معها أم لم أكن .

وغني عن الذكر أنني رحبت بهذا الاقتراح .. وأودعت رسالتي  
كل بذاءة وقساوة ممكنة .

وقد أيقنت أن اللطمة في هذه المرة أشد من أن تحتملها الفتاة  
المسكينة دون أن تقول شيئاً .. .

والواقع .. أنه لم تنقض ساعتان حتى دق جرس الباب .. .  
ودخلت برودنس .

تظاهرت بقلة اكتراث وأنا أرحب بها .. وأسألها عن الدافع إلى  
زيارتها غير المنتظرة .. ولكنها كانت شديدة الانزعاج والتأثر على غير  
عادتها .. فقالت لي بلهجة رزينة .. وصوت يضطرب .. إنني لم  
أترك فرصة لإيلام مرغريت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة إلا  
وانتهزتها .. وإن حادث الأمس ورسالة اليوم .. قد أزعجا الفتاة  
المسكينة .. فلزمت فراشها .. وإن مرغريت ترجوني الكفّ عن هذه

الحملة .. وتقول إنها لا تقوى صحياً ولا أدبياً على احتمال هذا السلوك الشائن بحقها .

فقلت :

- لقد كان للأسة جوتيه كل الحق في أن تنبذني .. ولكني لا أسمح لها بحال أن تهين المرأة التي أحبها .

فقال بروندس :

- يا صديقي .. أنت تخضع لتأثير فتاة لا قلب لها ولا ضمير .

صحيح أنك تحبها .. ولكن ذلك لا يسوّج لك أن تهين امرأة لا تستطيع الدفاع عن نفسها .

- إذا فلترسل لي صديقها الكونت دي ن .. وشاهديه .

- أنت تعلم أنها لن تفعل هذا .. فدعها وشأنها يا عزيزي أرمان . إنك لو رأيتها لحجلت من سلوكك حيالها !

إنها هزيلة شاحبة .. تسعل بشدة .. إنها لن تعمّر طويلاً .

ومدّت يدها إليّ وأردفت :

- تعال وانظر إليها .. إن زيارتك ستجلب لها السعادة .

- إنني لا أنوي مقابلة الكونت دي ن ..

- إن الكونت لا يقيم معها .. إنها لا تطيقه .

- إذا أرادت مرغريت مقابلي .. فإنها تعرف مكاني .. فلتحضر

إليّ إذا شاءت .. أمّا أنا فلن أضع قدمي في شارع دانتان .

- وهل تترفق بها وتقابلها بإحسان؟

- نعم ..

- أنا واثقة من أنها ستأتي .

- لتأت إذا ..

- هل ستخرج اليوم؟

- بل سأقضي المساء هنا ..

- سأقول لها ذلك .

وانصرفت ..

ولم أكلف نفسي عناء الكتابة إلى أولمبيا لأثبتها بأنني لن أذهب إليها هذا المساء .

ثم خرجت لتناول الطعام .. وعدت على الأمر .. وأمرت الخادم بأن يشعل النار في الموقد .

ولا أستطيع أن أصف لك المشاعر التي كانت تعتمل في أعماقي .. وأنا أنتظر مرغريت .. فلما دق الجرس في الساعة التاسعة .. استحالت هذه المشاعر إلى انفعال عنيف لم أملك معه إلا أن أستند إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط ..

دخلت مرغريت .. وقصدت إلى غرفة الاستقبال .. ورفعت النقاب الرقيق الذي يحجب وجهها ..

كانت شديدة الشحوب .

قالت :

- هأنذا يا أرمان .. قلت إنك تريد أن تراني فجئت ..

وأسندت رأسها بين كفيها .. وانفجرت باكية ..

فاقتربت منها وسألتها بصوت يرتجف .

- ماذا بك؟!

وخنتها العبرات .. فضغطت على يدي دون أن تجيب ..

واستعادت بعض هدونها بعد قليل .. وقالت :

- لقد ألحقت بي كثيراً من الأذى يا أرمان .. ولم ألحق بك أذى قط .

فأجبت وأنا أبتم بمبراة :

- لم تلحقني بي أذى؟!

فاستدركت :

- إلا ما أرغمتني عليه الظروف الضاغطة .

ولا أعلم هل مرَّ بك في حياتك .. أو سيمر بك على الإطلاق .. مثل الشعور الذي أحسست به عندما رأيت مرغريت .. كانت عندما زارتي لآخر مرة قد جلست في المقعد نفسه الذي تجلس فيه الآن ..

ومنذ ذلك العهد .. تبدل كل شيء .. فأصبحت عشيقة رجل آخر .. وارتشف غيري رحيق الحب من شفيتها اللين ما زالتا تغرياني . ومع ذلك فقد شعرت بأنني ما زلت أحبها كما أحببتها من قبل .. بل وأكثر مما أحببتها ..

قالت :

ستضايقك زيارتي يا أرمان .. لأنني جئت لأسألك شيئين : أن تصفح عمّا بدر مني أمس نحو الآسة أوليمبيا ، وأن تكفّ عمّا أظن أنك مستعد لمواصلته ضدي .

منذ عودتك إلى باريس يا أرمان وأنت - بقصد أو بغير قصد - تعمل على تجريحني .. حتى أصبحت لا أقوى على احتمال معشار الآلام التي عانيتُها حتى الآن .. فهلاًّ رحمتني .. وهلاًّ رأيت أن

للرجال في الحياة رسالة أنبل من البطش بامرأة عليلة حزينة مثلي؟؟ إليك يدي .. فالمسها .. إنني محمومة .. وقد غادرت فراشي وجشتك .. لا لأتمس صداقتك .. وإنما لأتمس إغضائك وصفحك ..

فتناولت يدها .

كانت تحترق وترتجف .. فحرّكت مقعدها حتى أدنيتها من الموقد .

ثم قلت :

- وهل تعتقدين أنني لم أتألم ليلة أن انتظرتك فلم تعودني .. ويحثت عنك فلم أجد إلا تلك الرسالة التي كادت تفقدني صوابي؟ كيف استطعت أن تخدعيني يا مرغريت .. أنا الذي أحببتك كما لم يحب الرجل امرأة من قبل؟!!

- لا تتحدث عن هذا يا أرمان .. إنني ما جئت لأتحدث عن هذا الموضوع .. وإنما جئت لكي أشد على يدك للمرة الأخيرة .

إن لك عشيقة شابة حسناء يقال إنك تحبها .. فكن سعيداً معها .. وانسني .

- وأنت .. إنك سعيدة بغير شك؟

- هل يبدو عليّ أنني سعيدة يا أرمان؟؟ بالله لا تسخر من آلامي وحزني!

- إذا لم تكوني سعيدة .. فإن الذنب في ذلك ذنبك وحدك .

- كلاً يا صديقي .. إن الظروف كانت أقوى من إرادتي .. فلم

أعمل بوحى شعوري كامرأة مستهتره .. وإنما عملت بوحى ظروف

سوف تعرفها في أحد الأيام .. وسوف تغفر لي متى عرفتها .

- ما هي هذه الظروف .. ولماذا لا تحدثيني بها الآن؟!!

- قل للسائق أن يعود بالمركبة .

فانطلقت لإنفاذ أوامرها . . ولَمَّا عدت وجدتها عمدة أمام الموقد وهي ترنح . . وأسنانها تصطك . . فنزعت ثيابها عنها وحملتها إلى الفراش ورددت الحرارة إلى بدنها بقبلائي .

كانت ليلة غريبة أفرغت فيها مرغريت كل حياتها في قبلات . . وملكتني فيها نشوة حبيب إليّ أن أقتلها حتى لا يملكها سواي من بعد . . وصحوت عند الفجر . . فوجدت مرغريت شديدة الشحوب . . والدموع تنحدر من عينيها في سكون وتستقر على وجنتيها كحباب الماس .

قلت لها في همس :

- هل نذهب يا مرغريت؟ هل نبرح باريس؟

فأجابت في فرح :

- كلاً . . كلاً . . ذلك يجلب علينا شقاء لا يحتمل . . إنني لا أعدك بالسعادة . . ولكنني أعدك بأن أظل أطوع لرغباتك من الكلب الأمين طالما في جسدي شربان ينبض .

فإذا رغبت في . . في أية ساعة من ساعات الليل والنهار . . وجددتني تحت قدميك . . ولكن لا تصل مستقبلك بمستقبلي . . ولا تقرن مصيرك بمصيري . . والأجلبت لنفسك الشقاء . . وجلبت لي التماسه .

إنني مسا زلت . . وسأظل بعض الوقت . . على شيء من الجمال . . فأفد من جمالي ما استطعت . . ولكن لا تسألني بالله أكثر من ذلك .

- لأن ذلك لا يمكن أن يرد علينا سعادتنا المستحيلة . . وربما يفرق بينك وبين أشخاص ينبغي ألا تفترق عنهم .

- من هم أولئك الأشخاص؟!

- لا أستطيع أن أذكرهم لك الآن . .

- إذا فأنت تكذبين!

فنهضت واقفة . . وسارت نحو الباب . .

كان من المستحيل أن أشهد هذا الحزن البليغ الصامت دون أن أثأثر . . فأسرعت إليها ووقفت بينها وبين الباب وهتفت :

- لن تذهبي .

- لماذا؟!

- لأنني ما زلت أحبك . . رغم كل ما فرط منك . . وسأبقى هنا . .

- لكي تطردني غداً؟! كلاً . . هذا مستحيل . . لقد انقطعت أسباب دنيابي عن أسباب دنياك . . وافترقت مصائرنا . . فإذا حاولت أن تجمع بينها فقد تحقنرتي . . أما الآن . . فإنك لا تستطيع فقط إلا أن تكرهني . .

- كلاً يا مرغريت . . كلاً . . سأنسى كل شيء . . وستنعم معاً بالسعادة التي وعدنا بها أنفسنا .

فهزت رأسها في ارتياب ولكنها أجابت :

- ألست أطوع لك من العبد؟! ألست أطوع لك من الكلب؟!

أفعل بي ما شئت فإنني لك .

وخلعت قبعتها ومعطفها . . وأخذت تحمل أزرار ثوبها .

وفي هذه اللحظة انتابتها سعلة حادة جافة . . فوضعت منديلها

على فمها . . واستطردت :

ولمّا انصرفت .. شعرت بالفراغ الذي تركته في قلبي وكياني .  
وانقضت ساعتان بعد انصرافها .. وأنا لا أزال أتأمل الفراش الذي  
تركت فيه طابع جسدها .. وأشعر بقلبي نهباً موزعاً بين الحب  
والغيرة .

وفي الساعة الخامسة كنت في شارع داتان دون أن أشعر .  
طرقت الباب .. ففتحته نانين .  
قالت في ارتباك :  
- إن سيدتي لا تستطيع أن تستقبلك .  
- لماذا؟

- لأن الكونت دي ن .. هنا .. وقد أمرني بالألا أسمح لأحد  
بالدخول .  
فغمغمت :

- هذا صحيح .. لقد نسيت .  
وعدت إلى منزلي وأنا أترنح كالثلج .  
فهل تعرف ماذا فعلت؟

قلت لنفسي إن هذه المرأة تسخر مني .. وإنها تهمس الآن في  
أذن الكونت الكلمات نفسها التي سمعتها منها بالأمس .  
ثم تناولت ورقة مالية ذات خمسمائة فرنك .. وأرسلتها إليها مع  
هذه الكلمات :

«لقد عجلت بالانصراف هذا الصباح فأنستني العجلة أن أتذك  
أجرك» .

وفي المساء .. جاءني أحد الغلمان برسالة .. ففضضتها .. ولم

أجد بها سوى الورقة المالية ذات الخمسمائة فرنك .  
سألت الغلام :  
- من أعطاك هذه الرسالة؟  
فأجاب :

- سيدة كانت تهتم بالسفر .. وقد أمرتني أن أحملها إليك بعد أن  
يتحرك القطار ..  
فهولت إلى بيت مرغريت .. وأجابني البواب :  
- رحلت إلى إنجلترا في الساعة السادسة ..

وهكذا لم يبق حب أو بغض يغرني بالبقاء في باريس ..  
وكان أحد أصدقائي يتأهب لرحلة طويلة في الشرق .. فاستأذنت  
أبي في مرافقته فأذن لي .

وحدث عندما وصلنا إلى الإسكندرية أنني صادفت هناك موظفاً  
بالسفارة الفرنسية .. كنت قد قابلته مراراً في بيت مرغريت ..  
فأبأنني بمرض هذه الفتاة المسكينة ..  
وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك .. ولا يتفصّل إلا أن تقرأ هذه  
الصفحات التي تناولتها من جوليا ديبار .. ففيها خاتمة هذه المسألة .

### الفصل الخامس والعشرون

تعب أرمان من الكلام .. فوضع يديه حول رأسه .. وأغمض  
عينيه .. إمّا ليفكّر وإمّا ليلتمس النوم .

ويعد بضع دقائق لاحظت أن أنفاسه تتردد ببطء وانتظام ..  
فأدركت أنه أغفى .. وتناولت الصفحات التي دفع بها إلي ..  
وقرأت فيها ما يلي :

«نحن اليوم في الخامس عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر ..  
«كنت أتألم في الأيام الأخيرة ، فلزمت فراشي ، والجو مكفهر ،  
وأنا حزينة ، ولا أحد بجاني ..

إنني أفكر فيك يا أرمان .. وأنت .. أين أنت في الساعة التي  
أكتب فيها هذه السطور؟

إنك بعيد عن باريس .. بعيد جداً كما قيل لي .. وربما قد  
نسيت صاحبتك مرغريت .. فكن سعيداً يا صديقي .. يا من أدين  
له باللحظات القليلة التي سعدت بها في حياتي .

إنني لم أستطع كبح رغبتي في أن أقدم إليك إيضاحاً عن  
سلوكي .. وقد كتبت إليك رسالة .. ولكن الرسالة التي نكتبها فتاة  
مثلي .. قد تعتبر كذبة ما لم يدمغها الموت بطابع الصدق .. فتصبح  
اعترافاً لا رسالة ..

إنني اليوم مريضة .. وقد أموت بهذا المرض .. فطالما حدثني  
قلبي بأنني سأموت في عصفوان الشباب .. وقد ماتت أُمِّي بالسل  
الرئوي .. وطبيعة حياتي كان شأنها أن تشجع هذا الداء .. وهو  
الإرث الوحيد الذي ورثته عنها ..

ولكنني لا أريد أن أموت قبل أن تصحح رأيك في .. وأجعلك  
تصدر عليّ حكماً صادقاً .. إذا صح وكنت لا تزال تفكر في الفتاة  
المسكينة التي أحببتها قبل رحيلك .

أنت تذكر يا أرمان .. كيف كان قدوم أبيك مفاجأة لنا .. وتذكر

الرعب الغريزي الذي استولى عليّ يومئذ .. وما كان بينك وبينه في  
المقابلة الأولى ..

ففي اليوم التالي .. بينما كنت أنت في باريس تبحث عن  
أبيك .. جاءني رجل .. وقدم إليّ رسالة من السيد ديغال .

وفي هذه الرسالة - وأنت تجدها هنا - توسّل إليّ أبوك بلهجة  
جدية أن أقصيك عن المنزل في اليوم التالي بأي عذر ممكن .. وأن  
أستقبله .. لأنه يريد أن يتحدث إليّ ..

ولعلك تذكر كيف ألححت عليك أن ترحل إلى باريس في اليوم  
التالي .

ولم تنفص ساعة بعد رحيلك .. حتى جاء أبوك .. ولا أحدثك  
عن الأثر الذي تركه عبوسه وتجهمه في نفسي .

كان أبوك مشبعاً بالنظريات العتيقة التي تقول بأن الغانية مخلوقة  
لا قلب لها ولا عقل .. وأنها نوع من الآلات التي تشتري  
بالذهب .. وأنها كالألات الحديدية .. قد تجرح اليد التي تقدم  
الوقود .. وتهلك بغير شفقة أو رحمة الصانع الذي يجعلها تعيش  
وتعمل .

كانت الرسالة التي كتبها إليّ تنطوي على الاحترام .. أما مقابله  
فكانت غير ذلك .

كان مرتفع الرأس .. متفخ الأوداج .. مهتدأ متوعداً .. ما  
حملني على أن أذكره بأنني في بيتي .. وأنه ليس هناك ما يرغمني  
على أن أقدم له حساباً عن حياتي .. وأني لم أستقبله إلا بدافع  
حبي وإخلاصي لولده .

وعندئذ هدأت ثورته قليلاً .. ثم قال إنه لن يسمح لولده بعد



الآن بأن يورد نفسه موارد الخراب والدمار من أجلي .. وإنني فاتنة حقاً .. ولكن ينبغي ألا أتخذ من فتنتي معولاً لهدم مستقبل أحد الشبان بإغرائه على تبذير ما يملك وما لا يملك في سبيلي .

ولم يكن لديّ إلا ردّ واحد .. ولا شك أنك توافقني عليه .. وذلك هو أن أبرز الأدلة على أنني لم أدخر أية تضحية مهما عظمت .. في سبيل أن أبقى مخلصة لك .. دون أن أحملك من النفقات أكثر مما تستطيع .

وأبرزت له وثائق البيع والرهن .. وقلت له إنني الذي أبيع أثاتي كله لأسدّد ديوني وأعيش معك دون أن أكون عبثاً ثقيلاً عليك .  
وحدثته عن سعادتنا .. وآمالنا .. وانتهى به الأمر إلى الاقتناع .. فبسط إليّ يده .. وسألني المَعذرة على غلظته وقسوته .

ثم قال :

- ما دام ذلك كذلك يا سيدتي .. فإنني لا أستعين بالتهديد .. بل أستعين بالضراعة لأتمس منك تضحية أعظم من كل تضحية أخرى بذلتها في سبيل ولدي .  
فارتجفت ..

واقترب أبوك مني .. وتناول يدي واستطرد بلهجة رقيقة :

- لا يحزنك ما سوف أقول يا بنيتي .. وافهمي فقط أن للحياة في بعض الأحيان ضروراتها القاسية على القلب .. ولكنها ضرورات لا بد من الخضوع لها والتسليم بها .

إنك فتاة طيبة .. وفي قلبك من العواطف الكريمة ما لا تعرفه الكثيرات من النساء .. اللاتي ربما يحسبنك .. لأنهن لا يعرفن قيمتك .. ولكن فكري .. في أنه إلى جانب الحب .. توجد

الواجبات .. وأنه بعد فورة الشباب .. يأتي الوقت الذي يتعين فيه على الرجل لكي يكون محترماً .. أن يتربع في مركز خطير ..

وولدي لا يملك ثروة تذكر .. وعلى ذلك فإنه على استعداد للنزول لك عن الإرث الذي خلفته له أمه .. فإذا هو قبل التضحيات التي توشكين الإقدام عليها من أجله .. أصبح من واجبه كرجل يعرف الشرف والكرامة أن يقابل التضحية بمثلها .. وينزل لك عن القليل الذي يملكه ليقبلك في المستقبل شر الحاجة الملحة .

ولكنه لا يستطيع أن يقبل تضحيتك .. لأن الناس الذين لا يعرفونك يردون هذا القبول إلى أغراض غير شريفة يجب ألا تلوّث الاسم الذي نحمله .

ولن يسأل الناس .. هل يحبك أرمان .. وهل تحبينه .. وهل في هذا الحب سعادته .. وعودتك إلى سواء السبيل .. ولكنهم سيرون فقط أن أرمان ديفال قد رضي بأن يتبع إحدى الغانيات - ومعذرة إذا استخدمت هذه الكلمة فما أبغي غير الصراحة - سيرى الناس فقط أن أرمان ديفال قد رضي بأن يتبع إحدى الغانيات كل ما تملك من أجله .

ثم لا بد أن يأتي بعد ذلك يوم الندم .. فتندمان معاً .. وتشعران معاً .. بأنكما مغلولان بسلسلة من حديد لا تستطيعان فصمها .. وعندئذ ماذا تصنعان ؟! تكونين أنت قد فقدت جمالك .. ويكون ولدي قد فقد مستقبله .. وأكون أنا - أبوه - قد فقدت نصف العطف الذي رجوته من ولدي في شبخوختي ..

إنك في مقتبل العمر .. وعلى جانب كبير من الفتنة .. ولا شك أنك ستجدين العزاء .. والسلوى .. وستكفّرين بهذا العمل الكريم

عن بعض ذنوب الماضي ..

إنَّ أَرْمَانَ قَدْ نَسِينِي مِنْذُ عَرَفْتُكَ .. وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ أَرْبَعَ رِسَالَاتٍ ..  
فَلَمْ يَفَكِّرْ فِي الرَّدِّ عَلَيَّ .. وَلَوْ اخْتَرَمَنِي الْمَوْتُ مَا عَلِمَ بِذَلِكَ ..  
وَمَهْمَا يَكُنْ عَزَمَكُمَا عَلَى الْحَيَاةِ مَعًا .. فَإِنَّ أَرْمَانَ الَّذِي يَحِبُّكَ لَنْ  
يَطِيقُ الْعِزْلَةَ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا عَلَيْكُمَا قَلَّةُ ثَرَوَتِهِ .. وَمَنْ يَعْلَمُ مَاذَا يَفْعَلُ  
عِنْدَئِذٍ؟

لَقَدْ تَوَرَّطَ فِي الْمَقَامِرَةِ - كَمَا عَلِمْتَ - دُونَ أَنْ يَقُولَ لَكَ - وَأَنَا  
وَأَنْتَ مِنْ ذَلِكَ ..

وَلَكِنْ هِيَ أَنَّهُ تَوَرَّطَ فِي الْمَقَامِرَةِ فِي سَاعَةِ جُنُونٍ .. ثُمَّ تَوَرَّطَ فِي  
الْمَدِينِ .. وَاضْطَرَّنِي أَنْ أَنْقِذَ شَرْفَهُ بِتَضْحِيَةِ الْمَالِ الَّذِي ادْخَرْتَهُ لِيَكُونَ  
مَهْرًا لِأَخْتِهِ .. وَمِلَاحًا لِي فِي شَيْخُوخَتِي .. فَمَاذَا يَحْدُثُ عِنْدَئِذٍ؟  
ثُمَّ هَلْ أَنْتَ وَاثِقَةٌ مِنْ أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي هَجَرْتَهَا مِنْ أَجْلِ لَنْ تَحْتَذِيبُكَ  
إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى؟!

هَلْ أَنْتَ وَاثِقَةٌ مِنْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّخِذِي مِنْ دُونِهِ عَاشِقًا أُخْرَى؟!

فَكَّرِي فِي كُلِّ هَذَا يَا سَيِّدَتِي ..

إِنَّكَ تَحْبِبِينَ أَرْمَانَ .. فَبِرَهْنِي عَلَى ذَلِكَ بِالْوَسِيلَةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي  
بَقِيَتْ لَكَ الْآنَ .. بِرَهْنِي عَلَى ذَلِكَ .. بِتَضْحِيَةِ غَرَامِكَ لِمُسْتَقْبَلِهِ ..  
إِنَّ الصَّلَةَ بَيْنَكُمَا لَمْ تَسْفِرْ عَنْ شَرِّ أَوْ أَدْوَى حَتَّى الْآنَ .. وَلَكِنَّهَا  
سَتَسْفِرُ عَنْهُمَا حَتْمًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ .. وَقَدْ يَحْدُثُ أَهْوَالٌ مِمَّا أَنْتَ تَتَوَقَّعُ ..  
قَدْ يَغَارُ أَرْمَانَ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ مِنْ رَجُلٍ يَحِبُّكَ .. فَيَبَارِزُهُ وَيَقْتُلُهُ ..  
وَعِنْدَئِذٍ كَمْ سَيُؤَلِّمُكَ مَنظَرُ أَبِيهِ عِنْدَمَا يَسْأَلُكَ حَسَابًا عَنْ حَيَاةِ وَلَدِهِ؟  
إِنِّي لَمْ أَذْكَرْ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ يَا بَنِيَّتِي .. وَلَكِنَّكَ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمِي  
كُلَّ شَيْءٍ ..

إِنَّ لِي ابْنَةً .. وَهِيَ صَبِيَّةٌ حَسَنَاءٌ .. طَاهِرَةٌ كَالْمَلَائِكَةِ ..

وَابْتَنِي تَحِبُّ .. وَهِيَ كَذَلِكَ قَدْ وَضَعْتَ فِي الْحُبِّ كُلَّ آمَالِهَا ..  
وَأَحْلَامِهَا .. إِنِّي كَتَبْتُ لِأَرْمَانَ عَنْ كُلِّ هَذَا .. وَلَكِنَّهُ كَانَ قَدْ شَغَلَ  
بِكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ ..

صَفْوَةُ الْقَوْلِ إِنَّ ابْنَتِي تَوْشِكُ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِالشَّابِّ الَّذِي تَحِبُّهُ ..  
وَهَذَا الشَّابُّ يَنْتَمِي إِلَى أُسْرَةٍ شَرِيفَةٍ نَبِيلَةٍ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَرَى فِي أُسْرَتِي  
كُلَّ شَرَفٍ .. وَنَبْلِ ..

وَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ سَمْعُ الشَّابِّ وَأُسْرَتُهُ نَبَأَ الْحَيَاةِ الَّتِي يَحْيَاهَا أَرْمَانَ  
فِي بَارِيسٍ .. فَصَرَخُوا بِأَنَّهُمْ سَيُضْطَرُّونَ إِلَى الْعَدُولِ عَنْ هَذَا  
الزَّوْجِ .. إِذَا اسْتَمَرَ أَرْمَانَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ .. فَبَيْنَ يَدَيْكَ إِذَا مُسْتَقْبَلُ  
صَبِيَّةٍ لَمْ تَلْحَقْ بِكَ أَدْوَى وَلَهَا كُلُّ الْحَقِّ فِي أَنْ تَطْمَعُ فِي السَّعَادَةِ ..  
فَهَلْ مِنْ حَقِّكَ .. وَهَلْ تَحْمَدِينَ فِي مَقْدُورِكَ أَنْ تَقْضِي هَذِهِ  
السَّعَادَةَ؟

أَسْتَحْلِفُكَ بِحُبِّكَ وَتَوْبَتِكَ يَا مَرْغَرِيْتُ أَنْ تَمْنَحِي ابْنَتِي سَعَادَتَهَا ..

\*

أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ يَا صَدِيقِي .. وَبَكَيْتُ فِي صَمْتٍ .. وَمَا زِلْتُ أَبْكِي  
كَلِمًا طَافَتْ بِذَهْنِي هَذِهِ الْكَلِمَاتُ ..

بَلْ لَقَدْ قَلْتُ لِنَفْسِي مَا تَرَدَّدَ أَبُوكَ فِي أَنْ يَقُولَهُ لِي .. وَمَا قَرَأْتَهُ  
عَلَى شَفْتَيْهِ عَشْرِينَ مَرَّةً ..

قَلْتُ لِنَفْسِي : «مَا أَنَا أَوْلَى وَأَخِيرًا إِلَّا بِغِيٍّ .. وَمَهْمَا فَعَلْتُ فَسَيُظَلُّ  
غَرَامِي يَلْبَسُ ثَوْبَ الطَّمَعِ .. وَسَيُظَلُّ مَاضِيٌّ يَنْكُرُ عَلَيَّ كُلَّ حَقِّ فِي  
مُسْتَقْبَلِ شَرِيفٍ سَعِيدٍ ..»

\*

كانت لهجة أبيك ومشاعره النبيلة .. وما يتظنني من تقديره أولاً  
وتقديرك أخيراً .. كل ذلك حرك في أعماقي عواطف لا عهد لي  
بها .. جعلتني أرتفع في نظر نفسي .

وعندما تذكرت أن هذا الشيخ النبيل الذي جاءني ضارعاً من  
أجل مستقبل ابنته .. سوف يطلب إلى ابنته في أحد الأيام أن  
تذكرني في صلواتها .. هانت عليّ سعادتني .. وهان عليّ هنائي ..  
وطراً عليّ تحوُّك جعلني أفخر بنفسني .

قلت لأبيك وأنا أجفّف دموعي :

- حسناً يا سيدي .. هل تعتقد بأنني أحب ابنتك؟

- نعم .

- هل تعتقد بأنني جعلت من هذا الحب أمل حياتي ..

وحلمها .. وكفارتها؟

- أعتقد ذلك .

- إذا قبّلني يا سيدي كما تقبّل ابنتك .. وأقسم لك أن هذه

القبلة .. وهي القبلة الطاهرة الوحيدة التي تلقيتها .. سوف تشدّد  
عزيمتي على قهر حبي .. ولن ينقضني أسبوع حتى يعود إليك ولدك  
وقد شفي من غرامه إلى الأبد .

فقال وهو يقبّل جبينني :

- إنك فتاة نبيلة .. وسيجزيك الله عمّا تصنعين .. أمّا ولدي ..

فأخشى ألاّ تنالي منه جزءاً .

- اطمنن يا سيدي .. فإنه سوف يمقتني .

وكان لا بد أن أضع بيّتي وبينك حاجزاً مانعاً لكلينا .. فكتبت

إلى برودنس أقول لها إنني قبلت ما يعرضه عليّ الكونت دي ..  
وإنني سأتناول طعام العشاء معهما ..

والصقت غلاف الرسالة .. وقدمتها إلى أبيك دون أن أذكر له  
مضمونها .. ورجوته أن يسلمها إلى صاحبها في باريس ..

على أنه سألني عن مضمونها فأجبت :

- إنها تتضمن سعادة ولدك .

فقبّلني مرة أخرى .. وشعرت بدمعتي وفاء تتساقطان على  
جبیني .. وخيّل إليّ أن هاتين الدمعتين قد غسلتا ما فرط من ذنوبي  
وخطاياي ..

وانصرف السيد ديفال في مركبته ..

أمّا أنا فإلّمني امرأة على كل حال .. ولمّا رأيتك لم أملك من  
البكاء .. ولكنني لم أتحوِّك عن عزمي ..

فهل أصبت يا ترى؟؟

ذلك ما أسألك عنه نفسي الآن وأنا مريضة .. طريحة فراش قد لا  
أبرحه وأنا على قيد الحياة ..

إنك شاهد عدل على ما كنت أقاسي عندما دنت ساعة الفراق ..  
ولم يكن والدك معنا لكي يشدّد عزيمتي .. وقد كدت مراراً بدافع

الخوف من غضبك واحتقارك .. أن أعترف لك بكل شيء .. ولكن  
الله عصمني .. وشدّد عزيمتي .. فكان ذلك دليلاً على أنه قبل  
تضحيتي .

ولمّا قابلت الكونت في المساء لم أجسر على التفكير فيما أنا  
مقدمة عليه .. خوفاً من أن تخونني شجاعتي .. من ذا الذي كان

يتوقع هذا؟؟ من ذا الذي كان يتوقع أن يوماً سيأتي .. تشعر فيه  
مرغريت جوتيه بأشد الألم إذا اتخذت لنفسها عشيقاً جديداً؟  
وأسرفت في الشراب لكي أنسى .. ولمّا استيقظت في  
الصباح .. وجدته مع الكونت .  
تلك هي الحقيقة يا صديقي .. فأصدر حكمك عليّ .. واغفر لي  
كما غفرت لك إساءاتك إليّ منذ ذلك اليوم .

وأنت تعلم ما حدث بعد ذلك .. شيء واحد لا تعلمه .. هو  
أنني قاسيت كثيراً منذ افترقنا .

وقد علمت أن أبأك ذهب بك .. ولكنني ارتببت كثيراً في أنك  
تستطيع الحياة بعيداً عني .. ولمّا قابلتك في الشانزليزيه بعد  
ذلك .. استولى عليّ الانزعاج .. ولكني لم أدهش .

ثم بدأت سلسلة الأيام .. التي حمل إليّ كل واحد منها .. إهانة  
جديدة منك .. ولكنني كنت أرحب بتلك الإهانات .. ليس فقط  
لأنني وجدت فيها الدليل على حبك .. وإنما كذلك لأنه خيل إليّ  
أنك كلّما أسرفت في اضطهادي .. كلّما ازدادت سمواً في نظرك  
عندما تعرف الحقيقة كلها .

فلا يدهشك هذا الاستشهاد المرح يا أرمان .. فإن حبك فتح  
قلبي لأنواع من العواطف النبيلة لم يكن لي بها عهد من قبل .  
ولا شك أن برودنس قد حدثك .. كيف وجدت من الضروري  
لي أن أستعين على حياتي الجديدة بالإسراف في الشراب واللهو  
والعبث .. لكي أنسى .. ولكيلا أجن ..

كنت أرجو بهذا الإسراف أن أقتل نفسي بسرعة .. وأعتقد أن

رغبتني سنتحقق عما قريب .. فقد ساءت صحتي كثيراً .. ويوم  
أرسلت إليك برودنس في طلب الصنفح .. كنت منهوكة القوى  
جسدياً وعقلياً ..

ولست أذكر يا أرمان كيف كافأته على آخر دليل من أدلة  
الحب قدمته إليك .. ووسط أية فضيحة أخرجت من باريس المرأة  
التي لم تستطع - حتى وهي تحتضر - أن تصم أذنيها عن ندائك ..  
أنت طالبتها بليلة غرام .. فظنت في جنونها أنها تستطيع أن تصل  
الماضي بالحاضر .. ثم ما لبثت أن فطنت إلى خطئها ..

وقد كنت أنت على حق فيما فعلت بعد ذلك .. ولكن ليالي لم  
تكن دائماً عالية الثمن هكذا يا أرمان!!

إنني فررت إذاً من باريس .. وتركت كل شيء .. فاحتلت  
أوليمبيا مكاني عند الكونت دي ن .. وقيل لي فيما بعد إنها  
تفضّلت فذكرت له أسباب رحيلي .

أما أنا فإنني رحلت إلى لندن .. حيث يوجد الكونت دي ج ..  
وهو من أولئك السادة العظام الذين يفتحون لنا قلوبهم من ركن  
واحد وجيوبهم من جميع الأركان .. وقد رحّب بي ولكنه كان  
عشيق امرأة ذات مكانة في المجتمع هناك .. فأشفت أن يرانا الناس  
معاً .. وقدمني إلى بعض أصدقائه .. وهؤلاء دعوني لتناول طعام  
العشاء .. ثم اصطحبني أحدهم إلى منزله .. ماذا كان في استطاعتي  
أن أفعل غير هذا يا صديقي؟

هل أقتل نفسي؟

إنني لم أفعل ذلك حتى لا أحمل ضميرك وزر اتحاري ..

وبعد .. لماذا يتحجر الإنسان وهو يرى نفسه أدنى ما يكون إلى الموت؟

وهكذا تدرّجت إلى الحالة التي يصبح فيها الإنسان جسماً بلا روح .. وهيكل بلا عقل أو وجدان .. وبقيت كذلك فترة من الوقت .. ثم عدت إلى باريس .. وسألت عنك فقبل لي إنك ذهبت في رحلة طويلة .

وبرحيلك .. لم يبق لي ما يمتعني من الانحدار .. فعدت إلى الحياة التي كنت أحيهاها قبل أن أعرفك .. وحاولت أن أجتذب الدوق .. ولكنه أبى أن ينسى أو يصفح .. وذلك شأن الشيوخ جميعاً .. فإنهم أضيّق الناس صدراً وأقلهم صبراً .. ولعل ذلك لأنهم يشعرون أكثر مما يشعر غيرهم بأنهم ليسوا خالدين .

واستبدّ بي المرض .. وزاد شحوبي .. ونحو لي وحزني .. ولعلك تعلم أن أولئك الذين يشترون الحب يفحصون البضاعة قبل الاختيار .. وفي باريس نساء أقوى مني جسماً .. وأصح بدناً .. وأشدّ مرحاً .. فلا عجب إذا تركت في زوايا النسيان . ذلك هو الماضي .

أما الآن .. فإنني طريحة الفراش .. وقد كتبت إلى الدوق أسأله تقرباً .. لأنني لا أملك شيئاً .. والدائون لا يكفون عن إزعاجي .. فترى هل يجيبني الدوق؟!

لماذا أنت لست في باريس يا أرمان؟ لكي تزورني . وترقّه عني .

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر :

الجو مخيف .. وأنا وحيدة في المنزل . منذ ثلاثة أيام .. والحمى تهب جسدي .. وتمنعني من الكتابة إليك .

ولكن لا جديد يا صديقي .

وفي كل يوم أنتظر رسالة منك .. ولكن دون جدوى .. فما أقدر الرجال على عدم الصبح !

لم أتسلم رداً من الدوق .. وقد عادت بروندس إلى روحاتها وغدواتها بين المنزل وحوانيت الرهون .

أما أنا فإنني ما زلت أنفث دماً .. وسيؤمك أن تراني .

إنك سعيد الحظ يا صديقي لأنك تعيش في جو دافئ .. وليس هناك شتاء مثلج يزرع فوق صدرك .

لقد نهضت قليلاً .. ونظرت من النافذة .. ورأيت باريس المتحركة النشيطة .. التي أشعر بأنني انتزعت منها انتزاعاً .. ووقع بصري على أناس أعرفهم .. فرأيتهم يمرون ببابي فرحين مسرعين مغتبطين .. ولكن أحداً منهم لم يرفع عينيه إلى نافذتي .

إنني مرضت قليل الآن .. ولم تكن تعرفني .. ولكنك كنت تستفسر عني كل يوم .

وهأنذا مريضة .. بعد أن قضينا معاً ستة شهور .. أحبيتك في خلالها حباً لم تنطو عليه جوانح امرأة قلبي .. وهأنذا بعيد عني .. لا تبعث إليّ ولو بكلمة عزاء .

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر :

حظرت عليّ الطبيب أن أكتب كل يوم .. والواقع .. أن ذكرياتي تضاعف الحمى ..

ولكنني تسلّمت أمس رسالة أنعشتني مادياً بما تضمّنت .. وحسباً بما حملت .

وقد جاءتني الرسالة من أبيك .. وإليك مضمونها :  
سيدتي :

علمت الآن أنك مريضة .. ولو كنت في باريس لاستفسرت عنك  
بنفسي .. ولو كان ولدي على مقربة مني لأبته عني .. فاسمحي  
لي يا سيدتي أن أكتب إليك معبراً عن ألمي لمرضك .. وألمي في  
شفائك .

سيذهب صديقي الحميم السيد (هـ) إلى منزلك .. فتفضلي  
بمقابلته .. فقد أوفدته إليك في مهمة أنتظر نتائجها بفروغ صبر ..

تلك هي رسالة أبيك .

إنَّ أباك رجل نبيل الخلق .. كبير القلب .. فأحبه كثيراً يا  
أرمان .. فما أقل الرجال الجديرين بالحب في هذا العالم !!  
وقد جاء السيد (هـ) هذا الصباح .. وقدم لي باسم أبيك خمسة  
آلاف فرنك .. فأردت أولاً أن أرفضها .. ولكنه أكد لي أن هذا  
الرفض سوف يؤلم السيد ديفال .. الذي كلّفه بأن يمدني من المال  
بالقدر الذي أريد ..

وقد قبلت هذا المبلغ .. الذي لا يعتبر من أبيك على سبيل  
الإحسان .

فإذا مت قبل عودتك يا أرمان .. فدع أباك يقرأ ما كتبه عنه ..  
وقل له إن الفتاة التعمسة التي كتبت هذه السطور .. قد انتهلت إلى  
الله من أجله .. وذرفت عيناها دموع الشكر والوفاء وهي تكتبها .

٤ كانون الثاني / يناير :

قضيت بضعة أيام مؤلمة .. ولم أعلم الآن أن الجسم يستطيع أن

يحتمل كل هذه الآلام .

لقد أصبحت كينونتي قسمة عادلة بين الحمى .. وهذا السعال  
الخفيف .

لقد امتلأت غرفتي بالخلوى والهدايا المختلفة التي حملها إلي  
أصدقائي .. وبين هؤلاء طائفة من الشباب يرجون بغير شك أن  
أصبح عشيقتهم فيما بعد .. ولو أبصروا ماذا فعل المرض بي لولوا  
الأدبار فرعاً مني .

٨ كانون الثاني / يناير :

لو عرض الآن للبيع هذا الجسم الذي كان في وقت ما أئمن من  
كثر .. فترى كم يساوي؟  
لا بد أننا ارتكينا كثيراً من الأثام قبل أن نولد .. أو أننا سننعم  
بالكثير من السعادة بعد أن نموت .. وإلا ما احتوت الحياة كل هذا  
العذاب وهذه الآلام ..

١٢ كانون الثاني / يناير :

ما زلت أتألم وأقاسي ..  
وقد أرسل إليّ الكونت دي .. مبلغاً من المال أمس ولكنني لم  
أقبله ..

إنني لا أريد شيئاً من هذا الرجل .. فهو السبب في أنك لست  
الآن بجاني .

أواه .. ما كان أسعد الأيام التي قضيناها في «بوجيفال» !! أين  
هي تلك الأيام .. ؟

إذا قدر لي أن أبرح فراشي على قيد الحياة .. فسأحج إلى البيت

الذي أقمنا فيه معاً .. وأبقى هناك حتى أموت .

٢٥ كانون الثاني / يناير :

لم يغمض لي جفن منذ إحدى عشرة ليلة ..  
إنني أختنق وأناضل في سبيل تنشق الهواء ..  
ويخيل إلي في كل لحظة أنني ساموت ..  
وقد حظر عليّ الطبيب أن ألمس القلم .. ولكن جوليا ديار التي  
تسهر عليّ قد سمحت لي بأن أكتب هذه السطور القلائل .  
أفلا تأتي قبل أن أموت .

هل انتهى حقاً كل شيء بيننا؟

يخيل إلي أنك إذا جئت فيأتي أيراً من سقمي .. ولكن لماذا  
أطلب الشفاء .. ولأية غاية؟

٢٨ كانون الثاني / يناير :

أيقظتني اليوم ضجة شديدة .. وسمعت في الغرفة المجاورة  
أصوات رجال عديدين .. وصوت جوليا وهو يحاول أن يرتفع على  
تلك الأصوات .

ثم أقبلت جوليا وهي تبكي .

قالت إن الدائنين يريدون توقيع الحجز على الأثاث .. فأجبتها بأن  
الحق يجب أن يأخذ مجراه .

ودخل المحضر غرفتي وقبعته في يده .. وفتح جميع الأدراج ..  
ووضع قائمة بما وجد . وأحمد الله على أن رحمة القانون قد أعفت  
فراشي من الحجز فلم يسجله المحضر في القائمة .

وتفضل المحضر فقال لي إنني أستطيع الاعتراض على الحجز خلال

أسبوع . ثم ترك أحد الدائنين لحراسة الأثاث . وانصرف .

فيا إلّهي .. ماذا سيكون من أمري !!

٣٠ كانون الثاني / يناير :

تسلمت اليوم رسالتك .. وكنت في أشد الحاجة إليها .. ولكن  
تري هل يصلك الرد في الوقت المناسب؟!  
إن سعادتي اليوم قد أنستني ما قاسيت في الأسابيع الستة  
الأخيرة .. حتى إنني بدأت أطمع في الشفاء .. وأطمع في أن  
أراك .. وأطمع في أن أرى الربيع مرة أخرى .

٤ شباط / فبراير :

لقد عاد الكونت دي ج . وهو حزين .. لأن عشيقته خدعته ..  
ولكن حزنه لم يمنعه من سداد ديني وصرف الدائن الذي بقي  
لحراسة الأثاث .. وقد حدثه عنك .. ووعد بأن يحدثك عني .

وأمس .. أرسل الدوق يستفسر عني .. ثم جاء اليوم  
لزيارتي .. ولا أفهم ما الذي يبقي هذا الرجل على قيد الحياة .

لقد قضى بالقرب مني ثلاث ساعات ولم ينطق بأكثر من عشرين  
كلمة .. ولكنه بكى عندما رأى شحوبي وهزالي .. ولا شك أنه  
تذكر ابته .. فكأنه رآها تموت مرتين .

ولم يقل لي كلمة عتب .. حتى خيل إلي أنه شعر بالارتياح حين  
رأى العلة تفني جسدي .. وتحصد شبابي .. وشعر بالكبرياء لأنه  
صحيح رغم شيخوخته .. وأنا أموت رغم شبابي .

نعم يا صديقي .. إنني أدنو من الموت .. ولست أندم على شيء  
كما أندم على أنني أصغيت إلى أبيك ونزلت على إرادته .

ولو علمت أنني لن أعيش أكثر من عام .. لما سمحت لأية قوة أن تحول بيني وبين قضاء هذا العام في أحضانك .. حتى إذا مت .. وجدت صديقاً أضع يدي في يده . ولكن تلك هي إرادة الله .

٥ شباط/ فبراير :

شعرت أمس بانطباع شديد .. ووددت لو أفضي المساء في أي مكان إلا في هذا البيت .. واليوم قد جاء الدوق لزيارتي .. فخييل إليّ عندما رأيت هذا الشيخ الذي غفل عنه الموت أن مرآة يديني من الموت؟ وبالرغم من الحمى .. التي تلهب جسدي .. قد طلبت إلى جوليا أن تذهب بي إلى مسرح «الفودفيل» فألبستني ثيابي .. وصبغت وجتي وشفتي لكيلا أبدو كجثة أفلتت من القبر .. وأجلستني في المقصورة التي التقينا فيها لأول مرة .. ولم أحول بصري طول الوقت عن المقعد الذي تعودت أنت أن تجلس فيه .. وأخيراً حملت إلى البيت وأنا بين الموت والحياة ..

وفيما يلي رسائل جوليا ديار :

١٨ شباط/ فبراير :

السيد أرمان ..

منذ ذهبت مرغريت إلى المسرح .. وهي أشبه بجثة لا حراك فيها .. وقد احتبس صوتها .. وثلثت أعضاؤها .. ومن المستحيل أن أصف لك ما تعانته هذه الفتاة المسكينة .. وهي تهذي دائماً .. ولكنها في صحوها أو هذيانها لا تردّد غير اسمك .

وقد أكد الطبيب أنها لن تعيش طويلاً .. وكفّ الدوق عن السؤال عنها .. وامتنعت برودنس عن زيارتها بعد أن وجدت أنها لا تستطيع أن تغيد منها .

كل إنسان قد هجرها .. حتى الكونت دي ج .. فإنه اضطر إلى أن يرحل إلى لندن .. ولكنه ترك لها بعض المال قبل رحيله . لقد فعل هذا الرجل الكريم من أجلها كل ما يستطيع .. ولكن ذلك لم يمنع بعض الدائنين من توقيح الحجز على أثاثها مرة أخرى .. وهم الآن ينتظرون موتها بفروغ صبر لكي يبيعوا الأثاث . إنك لا تستطيع أن تتصور التعاسة الشديدة التي تحيط بهذه الفتاة المسكينة وهي على فراش الموت .

وهي لا تزال تشعر بما يقع حولها .. ودموعها المندرة تنحدر ببطء وسكون على وجهها الشاحب الهزيل .. الذي لو رأيته الآن ما عرفت فيه الوجه الجميل الساحر الذي طالما أحببته . وقد استحلقتني أن أوصل الكتابة إليك عندما يمنمها الضعف .. وها هي الآن تنظر إليّ ولكنها لا تستطيع أن تراني .. فقد غشيت عينيها سحابة الموت .

١٩ شباط/ فبراير (منتصف الليل) ..

هذا يوم محزن يا سيد أرمان .. فقد تعذّر على مرغريت أن تلتقط أنفاسها .. ونصح لها الطبيب أن تستقدم أحد القس لكي تعترف بين يديه .. وتتقبّل الغفران . ودعتني مرغريت إليها .. وطلبت إليّ أن أفتح خزانة الثياب .. ثم أشارت إلى ثوب أبيض بسيط .. وقبعة عريضة وقالت : - إنني ساموت بعد أن اعترف للقس بخطاياي .. فعتى مت ..



فألبسني هذا الثوب .. وهذه القبعة ..  
ثم قبلتني وبكت ..  
وأقبل القس بعد ذلك .. ودخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر  
أخرى .. ولعله علم في منزل من هو .  
فقال له مرغريت :  
- ادخل يا أبت .. ولا تخف .  
وقضى القس عندها بعض الوقت ثم خرج وقال لي وهو  
ينصرف :  
- إنها عاشت بغياً وستموت قديسة .

\*

٢٢ شباط / فبراير :

انتهى كل شيء .. ولم يتعذب شهيد كما تعذبت مرغريت ..  
فقد نهضت في فراشها مرتين أو ثلاثاً .. كأنما لتمسك بروحها  
وتستردها قبل أن تذهب إلى بارنها ..  
وقد نطقت باسمك كذلك مرتين أو ثلاثاً .. ثم سألت من عينيها  
دمعتان وأسلمت الروح .  
وناديتها فلم تجب .. فأغمضت عينيها .. وقبلت جبينها ..  
مسكينة مرغريت .. ! ليتني كنت قديسة لكي تشفع لها قبلي .

\*

٢٣ شباط / فبراير :

شيعت جنازتها اليوم .. وبكاها بعض أصدقائها بإخلاص ..  
ولمّا حمل التابوت في الطريق إلى مونمارتر لم يتبعه إلا  
رجلان .. الكونت دي ج .. وقد عاد خصيصاً من لندن ..  
والدوق .. وكان يسير متكئاً على ساعد خادمه ..